طرائف

ذكريات وعجائب

في أحوال الأولين والسوالف

جمعه وألفه
محمد بن محمد بن خريف التويجري
القصيم - بريدة

المجلد الثالث

إليك الضالة المنشودة

دار العاصمة
للنشر والتوزيع

طرايف
ذكريات وعجايب
في أحوال الأولين والسوالف
٣

الطبعة الثانية
مزيدة ومنقحة
١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

الصف والإخراج دار العاصمة للنشر والتوزيع

دار العاصمة
المملكة العربية السعودية
الرياض - ص ب ٤٢٥٠٧ - الرمز البريدي ١١٥٥١
هاتف ٤٩١٥١٥٤ - ٤٩٣٣٣١٨ - فاكس ٤٩١٥١٥٤

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهــــداء

إلى جيل اليوم . . .

فهذه محفوظات، لمأثورات، وعِبر، ووقائع،

وأحوال، عاشها الآباء ــ والأجداد، الأوائل،

لأخْذ العِظَة فيها ــ وحتى لا تَنْدَثِر،

لتدعوا لمن سجَّل لكم مآثر ماضيكم .

المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله رافع السبع الشداد، عالية بغير عماد، واضع الأرض ومرسيها بالأطواد، وجاعلها مقرًا للعباد، خلق الخلق وقسم بينهم الأرزاق، وفاوت بينهم في العقول والأخلاق، ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ﴾ [القصص: ٦٨].

أمَّا بَعْدُ: حيث حُضيَ هذا الكتاب بالقبول، واستفاد منه الكثير، بفضل الله تعالى، وقد نَفَدت الطبعة الأولى، قمنا بعون الله تعالى بطبعه مرة ثانية، مَزِيدَة ومُنَقَّحَة، قد مَزَجْنا فيه الجزء الثالث مَزْجًا، وحذفنا بعض الأولى، فأَبْدلناه بجديد، نسأل الله القوي المنان: إن كان عملنا هذا صالحًا يرضيه، أن ييسر نشره بين العباد، والانتفاع به، بفضله الواسع، فإنه ولي التوفيق، والمطلع على السرائر، وهو على كل شيء قدير.

وصلَّى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدّمَةُ الطّبعَةِ الأولى

الحمد لله الذي علَّم بالقلم، علَّم الإنسان ما لم يعلم، فَضَّلَ العرب بأشرفِ الرُّسلِ وأفضل الكتب، ووعد بحفظ القرآن إلى آخر الدَّهر، أحمده وأشكره وهو واهِبُ الحمد والشكر، وأشهد أن لا إلـٰه إلَّا الله وحده لا شريك له في ربوبيته وأُلُوهيته وأسمائه وصفاته، شهادة تنافي عموم الكفر، وأشهد أن محمَّدًا عبده ورسوله نبينا وحبيبنا سيد البشر، الشافع المشفع في المحشر صلَّى الله عليه وعلى آله وأصحابه السَّادة الغُرَر النجوم الزُّهَر، وسلم تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بَعْدُ: فأنا عندي معرفة شيء كثير من السَّوالف، والآثار، والذكريات، مما يعين على تثقيف النفوس، ومعرفة مآثِرِ العروبة؛ لأن النفوس تحب الوقوف على الآثار، وتتشَّوق لسماع الأخبار عن الآثار، من الغرائب، والنَّوادِرِ، والنُّكَتِ، والْحِكَم، والفوائد، وذلك أيضًا يُعين على فهم معاني القرآن، حيث نَزَلَ القرآن في مثل ذلك، فمن لم يعرف الآثار، فقد يغلط في فهم بعض معاني القرآن، كما قال بعضهم: (إن هذه السيارة مذكورة في القرآن في سورة يوسف ﴿ وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٌ

﴿فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ . . .﴾ [يوسف: ١٩] الآية: وهذا لأنه لم يعرف أن السيارة المذكورة في الآية: هم القَافِلَةُ، مجموعة من الناس، تَقِلُّ وتكثر، يسيرون في الطرق البرية، خلف الإبل أو الحمير أو البغال، ونحو ذلك، أما هذه السيارة فهي من الصناعات الحديثة، وهذا الخطأ سببه هو عدم معرفة الماضي، الذي نزل في مثله القرآن.

وعامة ما أذكره من السَّوالف قد حفظته من أفواه مشائخ القَمْرا[١]، لأني أحفظ ما سمعته من وقت صِغَري فلا أنساه، وقد أسمع الشيء عِدَّةَ مرات، من عدة أشخاص، في أوقات متفرقة، فيكون قد استفاض عند الناس: إلاَّ ما عَزَوْتُه إلى قائله فهو كما يُذْكَر، وما لم يكن صالحًا للجميع[٢] تركناه، ولهذا لا تجد فيه سالفة إلاَّ وفيها فائدة في لفظها ومعناها، وتجد فيه أشْيَاءَ لَعَلَّك لا تجدها في غيره[٣]: وتجد فيه بعض الفوائد بلفظ وَجيز، ونُعِيد بعض الكلمات بلفظ آخر (كَشَرْح)، ولا نتعرض لإصلاح بعض الألفاظ العامية، لأَجل معرفة الماضي[٤].

وحيث كان كل شيء يحتاج إلى مُلْحَةٍ وتجميل، فإني أرى تَوْشِيحَ هذا الموضوع، بفوائد وحِكَم دينية، تكميلاً للفائدة واغتنامًا للفرصة فالحسنات يذهبن السيئات، وَنُدْرِجُها متفرقة بين طَيّات الكتاب، ليكون كالبستان مُنَوَّعِ الثِّمار، لترويح نفس القارىء حتى لا يمل هذا ولا ذاك،

(١) أهلِ القَصَصِ والسوالف.

(٢) يعني كل الفئات: رجال ونساء صغار وكبار.

(٣) وهو أَغْلَبه.

(٤) وَيَتَّسِقْ لك فهمه جيّدًا إذ اسْتَكْمَلْت تصفحه، لأنك تجد توضيح بعض المسائل في موضع آخر.

ونَبْدَأ بـذكـر مُغَايرة الأحوال الأخيرة عن الأحوال والآثار القديمة، لينفتح فهم القارىء لمعرفة الآثار، ويدخل من هذا الباب.

فمثلاً: كـان النـاس لا يعـرفـون السيـارات، ولا الطيـارات، ولا مكائن الماء، ولا الكهرباء، ولا البترول، ولا الغاز ونحوه، وإنما كانوا يسنون على النَّواضِح، من الإبل أو الحمير أو البقر وعلى ظهورهم، وكذلك يحرثون الأرَض بآلات تجرها المواشي، أو يحرثون بالمساحي بأيديهم، وهو أكثر عملهم، وكذلك وسائل النقل لديهم، هي: الإبل والحمير والبغال، وربما يحمل بعضهم أغراضه على رأسه وظهره، لقلة حصولهم على شيء من المواشي، في بعض الأحيان، وحين سمعوا بظهور الصناعات الخارقة لما يعرفونه، صاروا بين مصدق ومكذب، وقد كان رجال من أهل نجد يسمون «عُقيل»، يذهبون للغربية لتسويق الإبل والخيل هناك (والغربية هي بلاد الشام وفلسطين ومصر والعراق، بالنسبة لبلاد نجد، لأنهم يتغربون فيها عن بلادهم)، وفي إبّان بدء العصابات الصهيونية، لغزو فلسطين، حالة الاستعمار البريطاني، وإذا بعض رجال عُقيل حضروا هناك، ورأوا طائرة في الجو، فلما قدموا لنجد، وجلسوا في (جردة) السوق، يتبادلون السَّوالف عما رأوا هناك، قال أحدهم إننا رأينا الحديد يطير في الهواء، فقال الجماعة كذبت، فاستشهد بصاحبه وقال: هذا مسلّم اسألوه، فقالوا: ما تقول يا مسلم، هل هو صحيح، الحديد يطير في الهواء؟ فقال، (لا أنا ما رأيته) فغضب عليه صاحبه حين أَكْذَبَهُ، فلما خَلا به قال: كيف أَكْذَبْتَنِي وأنت قد رأيت ذلك مثلي؟ فقال مُسَلّم: أنا لا أحب أن يُكذّبونني مثلك، دع هذه الغرائب تأتيهم من غيرنا.

وفي عام واحد وستين وثلاثمائة وألف هجرية تقريبًا، جاءت طائرة عابرة، من الغرب للشرق، آخر الضحى، من فوق بريدة وقراها، فانزعج الناس منها، وهرب بعضهم إلى بعض، وكثر الصراخ، وخرجوا من البيوت، حتى قال بعضهم: هذه صيحة القيامة، وأخبرني من أثق به، أن امرأة سقط ولدها من بطنها، من شدة الإنزعاج من جلبة الطائرة، (وأنا رأيت المرأة تغطي جانب وجهها، تنظر إلى الطائرة وتقول: انظروا رؤوسهم فوقها ينظروننا، (يُخَيَّلُ إلى المرأة ذلك من ذهول عقلها)، حتى البهائم انزعجت، فخرجت الإبل من السواني وخربت عُدّة السواني، والبقر انزعجت وقطعت الحبال (الربط) وهربت، والبدو في البر انزعجوا وهربت إبلهم وغنمهم، إلى آخر ما حصل من ذلك الشيء العجيب، وحين بدأت تأتي السيارات: صاروا يهربون منها، حين يسمعونها من بُعد، فيختفون خلف الجدران، وخلف الأثل، ويغلقون البيوت وينظرون من فوق السطوح، مع ما يصيبهم من الخوف والرهبة منها، فأنا أدركت ذلك وشاهدته، فصاروا بعد ذلك يعللون أنفسهم ويتناقلون أثرًا، أو حديثًا «أنه في آخر الزمان يتكلم الحديد ويقرب البعيد».

وأنا أدركتهم ولم تظهر مكائن الماء ولا يعرفونها، وأول ماكينة ظهرت عندنا للماء، ماكينة تشتغل على فحم حطب عادي فقط، هو مادة وقودها، يذهب رجال من الجماعة أعرفهم، يصلحون لها فَحْمًا من حطب البر، وينقلونه لها على الإبل، ثم ظهرت ماكينة تشتغل على الديزل، هو مادة وقودها، فاهتال الناس منها أيضًا، وصاروا يزورونها

ينظرون إليها، كما كانوا يهتالون من الأولا «كَيْفَ ماءٌ يشْتَعِل نارًا ويَعْمَلُ بالحديد هكذا».

أما استعمالهم الإبل، فهذا شيء عادي قد نشأوا عليه، فيذهبون به، ويأتون به، ويُنِيْخُوْنَه ويركبونه، حتى كانت بعض البنات والنساء تشْمُر (تقفز) على ظهر البعير وتركبه، حتى وهو واقف، وهو يمشي، فكيف الرجال والأولاد؟ ويحملون أثقالهم عليها، أسهل من حملهم على شاة.

أما المادة الاقتصادية عندهم، فهو الإنتاج الوطني، (التمر واللبن والقمح والشعير والدخن وغير ذلك)، مع اعتياد الاقتصاد في المعيشة، فإذا حصل لأحدهم ملء كفه تمرًا أو نحوه كفاه نهاره كله، وليس كلهم يجدون تمرًا في بعض الأزمان، وربما يحصل عليهم في بعض الأوقات مسغبة جوع وشدة خوف، وَحِصار وقتل ونهب بسبب مُغايَرَة الحكام (الملوك)، يأتي هذا الحاكم فيستولي على البلد، بعد قتال ونهب، ثم يأتي الحاكم الآخر، فيحاصرهم ويحاول الاستيلاء عليهم، وقد يعاقبهم على مُوالات الحاكم الأول، فلا تزال البلاد مُضْغَة آكل، حتى قَيَّضَ الله الملك عبد العزيز رحمه الله تعالى، فحكم البلاد ووحدها، إذ لم نعرف في التأريخ، مثل ما حصل لنا في هذا الزمان، في ولاية آل سعود والحمد لله، من الأمن في الأوطان، والصحة في الأبدان، والأمن على الحقوق والأنفس، ورغد العيش، وتقارب المواصلات وظهور الإسلام، وعلو كلمة الله، أطال الله عزهم وهدايتهم، وتوفيقهم، وأبقاهم للعباد والبلاد والإسلام، آمين. اللهم صلِّ على محمد. (انتهى).

* * *

خلها ملبدة.. لحل المشكلة

كان الناس يعيشون في الصحراء، على ثقة مع بعضهم، بالتمسك بالأخلاق المعروفة بينهم، وهي (السَّلْم، والْعُرْف، والعادات العربية)، وكان الأعراب إذا وجدوا خبراء (هي ماء مجتمع من السيل قيضوا عليها، يشربون ويرعون، فإذا جاء البراد والشتاء ارتحلوا لطلب المراعي.

فهناك بادية ارتحلوا من المصيف للمندا، وبقي آخرهم رجل في بقية المنازل من هنا، وبقي رجل آخر من هناك، وكان هذا شبه أمير وله أولاد، فارتحل يتبع الجماعة، فانفرد أحد أولاده، راكبًا فرسه، يريد يذهب إلى أحد الحدّادين يُحَذِّي فرسه، وكان طريقه يمر حول صاحب البيت ذاك الذي لم يرتحل حتى الآن، فأتى على إبلهم في الفلاة معها أخت صاحب البيت، فهزع فرسه، أي: أمالها إليها لتسقيه من حليب إبلها شبه ضيافه، فطلب منها حليبًا؟ فحلبت له، فلما شربه أغواه الشيطان، فطمع في عرضها، فخوفته من العار، وعاقبة الأمر، وكيف يعدو عليها وملحتها في بطنه فيخالف سلم العرب؟، فلم ينجع به، فجعلت تكافحه جهدها حتى أغمي عليها من شدة الكفاح، فتغلب عليها، وقضا غرضه منها، ثم سار وتركها.

فلما أفاقت: احتارت في أمرها؟ هل تخبر أخاها يأخذ بثأرها فيقتله ولو أدا الأمر إلى هلاكه أو هلاكها؟ أو تسكت ولعل الأمر يندمل، ولا يكون له عاقبة حيث كان هذا الأمر خارجًا عن قدرتها؟، آثرت هذا الأمر الأخير، إيثارًا للسلامة والستر، ولكن يا للمصيبة، فبعد مضي عدة شهور ظهر بها الحمل، فتلك الداهية التي لا محيد لها عنها. فجعلت تفكر بأمر تهلك به نفسها لا يعلم به أحد، ولا يلحق أخاها منه عار، ولكن ماذا تعمل؟، وكانت هي تسرح بإبلهم حتى الآن. وذات ليلة تأخرت بالهضول والمجيء لأهلها لأمر تقصده، وعَقَّلَتْ إبلها في البر الفلاة وأتت إليهم على ناقة، وحين وصلتهم انتدبت أخاها وقالت له: خذ بندقيتك وأركبني معك لعلنا ندرك الناقة فلانة؟ فقد نزعتها الولادة عن الإبل، وأخشى على ولدها من السباع، (وكانت عادة الناقة تذهب عن الإبل عند الولادة). فركب وأردفها معه، وسار نحو قولها، ثم أخذ يغني لتجاوبه كالعادة، والناقة تنخ (تقزع)، (تفد)، ولكن البنت لم تجاوبه، فقال: ألا تشيلين معي؟ قالت قد شغل قلبـي أمر الناقة، (وهي إنما أطار قلبها ما أقبلت عليه وتتوقعه من الأمر الهائل المعضل)، فلما أبعدت به بحيث لا يسمع النَّزْلُ دَحَّةَ البندقية، قالت له أنخ الناقة هنا فأناخها، ثم قالت اعقل يدها، قال لماذا؟ قالت ليس هناك ناقة، ولكني أريدك تقتلني وتدفنني هنا، حتى لا يعلم بـي أحد فيلحقك عار... فانزعج من هذا الخبر، وقال ما شأنك؟ قالت: الأمر كذا وكذا فأخبرته بالأمر كله. فوقف يفكر ساعة؟ ثم قال لها اركبـي إِبِلِكِ واهضلي على أهلكِ واكتمي أمرك وسيكون خيرًا إنشاء الله.

ثم ذهب إلى أمه وأعلمها بالأمر وحضها على كمه، ثم أخذ خمسين ريالاً وسلاحه وركب ناقته، وذهب يتطلب قوم ذاك الرجل الذي فتك بمقدساته بأخته، حتى وجدهم، فلما وصل النَّزِل نظر وإذا أبويت الخلوي في ناحيتهم، فقصده، وكان الخلوي يُقْصد لمثل هذا الأمر المعضل، فأناخ ناقته عنده ضيفًا، فقام الخلوي بضيافته، فعمل له قهوة وغداء، ثم إن الرجل، أخرج الخمسين ريالاً وناولها الخلوي، وقال: خذ هذه الريالات لك، فاستغرب الخلوي إعطاء هذه الريالات، وعرف أن الرجل يريد شيئًا مهمًا؟ فقال: لماذا تعطيني هذه الدراهم؟ فقال الرجل خذها إكرامية لك، فقال: لا آخذها حتى تخبرني ما حاجتك؟ فقال الرجل: حاجتي ثلاث مسائل: الأولى: أريدك تحفظ لي ناقتي، ثانيًا: أريدك تطلع لي على الجذيبة، ثالثًا: أريد رفة: بنت الأمير فلان؟ فقال الخلوي: ابشر بهن يا عمي مثل شربك ها الفنجال. فأخذ منه الفلوس، وقام إلى الناقة وقيدها بقيد حديد وقفل: اشبيلي فرس، والصق على وسمها وبرة من شعرها، حتى لا يرى فيفكر به ويعرف صاحبها ويبحث عنه، ثم تركها ترعى حوله. ثم أعطى الرجل سمل ثوب من ثيابه، وقال: ألبسه فوق ثيابك لأجل يُضَيِّع الواهس، (الظن والتقدير) حتى لا يفكر بك فتعرف، واذهب تَضَيَّفْ في سائر البيوت حتى تصل إلى بيت أبيها فلان، في ذاك الموضع، في الليلة الثالثة، فتكون حوله فهي الموعد، فأنا في ذيك الساعة، اطلع فوق الجذيبة وأجذب لهم الصوت بالفزع، فأنت يمكنك في ذيك اللحظة أن تدخل في خدر البنت، لأنها مخبئة في خدر وحدها في جانب البيت.

فلبس الرجل سمل الثوب وذهب حسب تخطيط الخلوي له.

وفي الليلة الثالثة وإذا هو حول بيت أبيها، وإذا صاحبه الخلوي يرقى فوق الرجم (الجذيبة) ويصيح بأعلى صوته «الْبِلْ يا أهل الْبِلْ ترى عليها حَوْف ـ البل يا أهل البل ترى عليها حوف». . . يردد هذا النداء، حتى اضطرب الناس وانتخوا وركضوا وركبوا الخيل بالسلاح وذهبوا يئمون الصوت (ثبت ـ ثبت؟)، وحين اشتغل الناس أمكن الرجل الدخول على البنت في خدرها، فارتاعت وفزعت منه، وقالت: إلى أين وما تريد؟ فقال أنا ضيف، قالت الضيف يقصد رُفَّةْ الرجال ما يجيء هنا؟ فقال أنا ضيف لهذه الرفة.

فأمعنت في تأنيه وتخويفه، ولكنه لم يتمزمز، ولم يهتم، واطمئن عندها حيث أمكنه إثبات وجوده هنا. فعرفت أن عاره وخِزْيَه عليها أصبح لِزامًا لها ولأهلها لا ينفك عنهم سواء قتل عندها، أو أخرج وطرد؟، وهذا الذي يريده هو بوجوده عندها، فهو لا يريد الفتك بعرضها، وإنما يريد إلزامهم بالعار كما ألزموه ذاك في أخته، فبقيت البنت حائرة بأمره، كما في المثل (إن أبديت أبديت عيبي، وإن شقيت شقيت جيبي) فما زالت تراجعه في الانسحاب فلم يفعل، حتى تساوت عندها الحياة والممات، ومع ذلك هي تأتي له بطعام وشراب، تنتظر الفرج من تبعته.

وبعد مضي نحو أسبوع، لم تشأ أن تخبر أحدًا سِوا أبيها حيث كان هو مبدأ أمرها ومنتهاه فلما أصبحت ذات يوم وقد أعياها أمره، فتحت فتحة في أعلى رواق البيت (الخدر) وندبت أباها (بالله يُبَهْ وايق؟) فأتى

إليها أبوها، وأطل من النافذة (الفتحة) وإذا هو يبصر الرجل جالسًا هنا، عينه بعينه يعرفه. فانثنى عنه، لم يَظْهر منه قول ولا فعل. لكنه ضحك لأولاده وقال: أنا والله اليوم، مبصوط ما عمري استأنست مثل اليوم يا اعيالي، ولكن أنت يا فلان اصلح لنا قهوة، وأنت يا فلان احلب لنا الناقة، وأنتم يا أهل البيت أصلحوا لنا خبز، خلونا انكيّف في هذا الصباح المبارك، فقام كل واحد منهم بتنفيذ ما قال، وهو يظهر الضحك والفرح والسرور ليضيع الواهس حتى لا يتلكع المجرم حين يسأله، ولم يعلموا أن النار تلتهب في أحشائه، وحين خلصت القهوة اجتمعوا حوله، أخذ يستخبر أسباب وجود هذا الرجل في أعز مكان عليه وأصونه؟ إذ عرف أن الرجل لم يوجد نفسه هنا إلاَّ انتقامًا منهم وأخذًا بالثأر، إذ لو كان طالب جريمة فقط لاتنهبها حسب قدرته وهرب، لكن رآه مطمئنًا، فعرف أنه يريد إثبات وجوده هنا لما يلحقهم من الخزي والعار بذلك وإن قتلوه.

وحيث كان الأب: (اِزْوِي الرأي، حِلْحِيلاً من الرجال، أخذ يعمل لردم هذا الباب قبل أن ينفتح فيستحيل سده، إذ عرف هذا الأب أن بعض أولاده قد أثر على الرجل في محارمه.

فأخذ يفحصهم أيهم صاحب الجريمة؟ فقال: للأكبر من أولاده (أنا ما أراكم مثلي، فأنا يوم أنا مثلكم ما أترك بنتًا أو امرأة إلاَّ فعلت بها كذا وكذا، فهل أنتم مثلي؟ يا عيال المرأة؟ فأجاب الابن الأكبر: (اللّه يهديك يا أبـي والله لو كان هذا الكلام من غيرك لعاقبته، لأن هذا يهدم الشرف وينافي العقل، فقال الأب: قم إذهب عن وجهي، ثم نادا الثاني

فكذالك، ثم نادا الثالث فقال له مثل ذلك؟ فقال الابن: أنا كذلك، قد فعلت كذا وكذا بابنة الفلان، فقال الأب: فأنت المجرم إذًا، انظر أخاها عند أختك؟ فثار الابن ليقتل الرجل: فأسكته أبوه وقال: اندحر يا خسيس هذا فعلك بنا، قم ادعه للقهوة: (بل قام إليه الأب نفسه وقال له: قم اقلط للقهوة يا رجل)، فقام وخرج إليهم فأجلسوه بالمجلس على الشداد وصبوا له القهوة والفطور والحليب. وبعد أن تقهووا وأكلوا وشربوا، قال الأب: «ما رأيك يا رجل في المسألة؟» فقال: أنت صاحب الرأي (ما يُشَدْ حاشي وبالمراح جمل)، قال الأب: الأحسن أننا نزوجك فريستك بنتنا، وتزوج الولد فريسته أختك؟، فقال الرجل: نعم، أما أنا فوالله ما يسألني الله عن عرض ابنتكم واسألوها عن ذلك، وأما ابنك فهذا ولده في بطن أختي اعتداء، فمن المجرم إذًا؟، فقال الأب: (أنت أجملت يا رجل، واترك الأمور مُلَبَّدَةً ولا تفتش)، ثم قال: قم يا ولد ناد بالناس يأتون الليلة للعشاء على عرس البنت فلانة، على فلان ابن فلان، فزوجوه إياها علانية، وفي الصباح حملها على ناقته، وركبوا معه يزوجهم أخته فريستهم، فزوجهم إياها وأتوا بها، (وبذلك اندملت الأمور وانحلت مشكلتهم، لأنهم زمن فوضى)، فسبحان مصرّف الأمور، ومقدّر الأقدار بعلمه وقدرته. (انتهى).

قيل:

بغيت أعدل مايل الناس وازريت   ازريت أعدل مايلٍ في ضميري

ازريت: عجزت.

لا يمكن أن تحصل لك الدنيا على ما تريد، كما قيل:

مـن رَقَّـعْ الـدنيـا تَبَـذُّه فتـوقهـا ....

يعني من يريد يكمل الدنيا أعجزته كثرة خروقها، كما يقال: الشق أوسع من الرقعة، لشتات الأمر. وقيل:

ومن يبذل المعروف في غير أهله يجـده وراء البحـر أو فـي قـراره

وقيل: لمن لا يقبل من نصيحه إذا ندم:

نصحتك يـا كـوبـان ثـم عصيتني واليـوم يـا كـوبـان شـم هـواك

قيل: كان رجل يغالي بمحبة رجل وإكرامه، فقيل له مَنْ هذا الذي أنت تغالي في إكرامه؟ أهْوَ ابن عمك؟ فقال: (لا)، أقرب وأقرب، قيل: أخوك؟ قال: (لا)، أقرب وأقرب، قيل: من هو؟ فقال: (امرأتي وامرأته أخوات). (انتهى).

* * *

زرقاء اليمامة

زرقاء اليمامة: امرأة ذكية، حاذقة، قوية الإبصار، من أهل اليمامة، (ورأت حمامًا يطير في الجو) فقالت:

ليت الحمام لَيَهْ * إلى حَمامَتَيَهْ * تَمْ الحمام مَيَهْ

وكان لها حمام عدده أربعة وثلاثون حمامة، ثم إن هذا الحمام الطائر وقع جميعه في شبكة صياد فَعَدُّوْه، فإذا هوست وستون حمامة كما حزرته (أي خرصته) قدرته.

ولهذا قال الشاعر يَنْخَا حاكمًا أنْ يعدل في قضيته:

واحكم كحكم فتاة الحي إذ نظرت إلى حمام عطاش وارِدِ الثمد

فعدُّوه فألفوه كما ذكرت ستًا وستين لم تنقص ولم تَزِدِ

وقد بنا لها قومها مرقبًا عاليًا، ترقى فيه وترقب لهم مسافة مسيرة ثلاثة أيام، فلا يأتيهم عدو إلاَّ وقد استعدوا له، ولكن جاءهم قوم واحتالوا عليهم، بأن علقوا على الإبل (الركايب) شجرًا بالوجه والجنب وأمام الرجال الراكبين، ليضيِّعوا واهسها، فلما أبصرتهم، قالت: لقومها جاءكم الشجر يمشي، فضحك عليها قومها وقالوا خرفتي يا زرقاء، ولكن بعد ثلاثة أيام دهمهم العدو بغتة.

والثمد هو: ماء مجتمع من السيل في الشعيب (الوادي) ويكون غزيرًا في بعض الأمكنة الجارحة. (انتهى).

من هو المحرم للمرأة؟

جاء في الحديث «لا يخلون رجل بامرأة إلاَّ كان الشيطان ثالثهما» رواه البخاري عن عمر.

والمحرم للمرأة هو زوجها ومن تحرم عليه إلى الأبد بسبب مباح، وما عداه فهو أجنبي منها، ولو كان أخو زوجها، أو ابن أخيه أو عمه أو خاله، أو ابن عمها أو ابن خالها وغيرهم، حتى عبدها المملوك لها: فهي لا تحتجب عنه، ولا يجوز أن يخلو بها لأنه غير محرم لها، فكيف الخادم والخادمة غير المملوك؟، فهذا أصبح اليوم هو الداء العضال الذي لا دوام له، وقد قال الرسول ﷺ: «الحمو الموت» والحمو هو: الرجل من قرابة زوجها، فلا يجوز أن يخلو معها في البيتِ ولا غيره وغيرهم كذلك.

فصل

قول الله تعالى: ﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ ﴾[(1)]:

أي: قائلة بثوبها على وجهها، ليست سَلْفَعًا من النساء (دَوّاجَةٌ، وَلّاجَةٌ، خَرّاجَةٌ)، قال الجوهري: (السَّلْفَعَ الجريئة من النساء السَّلِيطَةُ الجُسُور).

انتهى من تفسير ابن كثير رحمه الله.

---

(١) سورة القصص: الآية ٢٥.

لها وعليها

كانت تتحاور مع زوجها، فجاوبته جوابًا كريمًا، مع أنه قال فيها قولاً قاسيًا: لكنها قالت:

العام تبغي لك من البيض ثنتين	ايضًا وتبي لك عليهنَّ زياده
ومثلك إيلامنه بلغ عام سبعين	يروح مخه مثل مخ الجراده
لا يقضي الحاجة ولا يوفي الدين	حتيش لو عطرت فرش الوساده
والله ما لوم العَود مار الكبر شين	العَوْد جاته خَلّته من زناده
اللي مضا له من قبل عامين	مانِي مِنْ اللي دايم بالجحاده
يما ثنى عمره خلاف المقفين	إيلا ثوى خطو الردى في شداده
واليوم لو نوزيه في محجر العين	أمشي على مشهاه واتبع مراده
يا جاهلات ابحقهم فَالِكِنْ شَيْن	ميعادكن يوم الحشر والشهادة
العود إيلا شيب لزمنا إبحقين	رد الجميل ونحمد الله عباده
لا بد من يوم فراق المحبين	إن ما غضر عوده دنا له حصاده

(انتهى قولها): ونريد نوضح بعض معانيه:

قولها: (البيض): هي النساء الطيبات، والبياض هنا نسبة راجعة للمعنى، وهو الأفعال الطيبة والسمعة الشريفة ـ لا بياض اللون،

والفرق في النسوان: ظاهر معروف في تفاضلهنَّ في الأخلاق والآداب والحياء والتستر والصبر والديانة وغير ذلك، يعرفه كل أحد.

قولها: (يروح مخه مثل مخ الجراده): فهذا ليس على إطلاقه، فإن بعض الرجال يتجاوز عشر الثمانين والتسعين وهو يتمتع ببعض قوته ورجولته، ولا تنقطع عنه كل قوته، وهذا شيء معروف بالتجارب ومعرفة أحوال الناس.

قولها: (العَوْد جاته خلته من زناده): الزناد هو: الزند وهو آلة إيجاد النار في القديم، لأن الكبريت من الصناعات الحديثة، أما الزند، فأنا أدركت بعض الناس يقدح به لقبس النار، وهو موجود عندي الآن، وهو يتركب من حجر وحديدة وقطعة قماش. أما الحجر فهو صغير يسمى صلبوخ أملس صلب من نوع المرو مفروش بقدر طرف أصابعك. أما الحديدة فهي يصلحها الصانع الحداد شبه صيخ مربع نحو (ست ملي) من الحديد الصلب، ويرد أطرافه شبه حلقة سلسلة. أما القماش من نوع القطن البالي السَّمِل يقطع ويغسل بشيء من ملح البارود أو بول شاة وينشف، فيقطع منه قطعة قليلة بقدر رأس الأصبع ويمسك فوق طرف الحجر ويدخل بعض أصابع يده الثانية في الحلقة، ويضرب بها إلى تحت على طرق الحجر مزدوج بطرف القماش مرة بعد أخرى يقدح (قدحًا) فتقدح بينهما النار شررة، فتعلق بهدب طرف القماش الناعم، وإذا هو قد أعد عنده روث، إما من روث الحمار أو روث الجمل ونحوه، فيفته على شررة النار بالقماش قليلاً قليلا، حتى تعلق بالروث، ثم يقبلها الريح أو ينفخها بفمه، ويضع عليها من حطام الحطب الناعم

حتى يشتعل نارًا. ولذلك كان الجيران يقبس بعضهم من بعض، إذا كان عند أحدهم نار موجودة، وإذا لم يكن عند الجيران نار أو ليس عنده جيران فيقال: (من زندك وإلاَّ مت)، يعني إذا ما صلح زندك للقدح وقبس النار فليس هناك جيران ولا أسباب تعوضك عنه في إيجاد النار للدفء من البرد وطبخ الطعام، فأنت تموت، فيقال: (من زندك وإلاَّ مت) وهذا يضرب مثلاً لبعض الأمور التي لا معوض عنها (من زندك وإلاَّ مت) وإذا فسد الزند فلم يقدح: فيقال عمي الزند: كما يضرب به المثل في الإنسان قليل الجدوى: الأخرق الذي لا ينتج شيئًا: فيقال (أردى من الزند الأعمى).

والزناد أيضًا جهاز البندقية المقمع الذي إذا ضغطت عليه ضرب على طلقة البندقية، فيها الملح البارود، فتشتعل النار وتثور البندقية بسرعة إذا كان الزناد قوي، أما إذا كان الزناد ضعيف، فربما أنه يعجز عن إثارة النار بالبارود فلا منفعة فيه، فهي شبهت عضو الرجل في الذكورة، مثل زناد البندقية أو الزند القبس.

قولها: (يما ثنى عمره خلاف المقفين): تمدحه وتذكر ماضي أفعاله، بأنه لا يخاف حالة الحرب ولا ينهزم مع المنهزمين، بل يحمي ربعه ويناضل دونهم وذلك من شجاعته ورجولته.

قولها: (نوزيه في محجر العين): تخبر أنها سوف تقوم بحقوقه، تروف به، (وتخدمه)، ولو توقف الحال إلى أن تدخله في عينها لأدخلته، وذلك من شدة التزامها لخدمته، وهذا من أفضل خصال النساء الطيبات.

قولها:

العـود إيـلا شيـب لـزمنـا بحقيـن   رد الجميـل ونحمـد الله عبـاده

المعنى: أن الزوجين بينهما رابطة الزوجية (الاتصال الخاص، والمحبة، والرحمة، والصحبة، والذمام)، ففي حالة الكِبَر وإن توقف بعض الاتصال، فإنها لا تنقطع المودة، والرحمة، والتقدير، والإكرام ورد الجميل (ومع ذلك فهي تحتسب الأجر من الله في ذلك)، لأنها قامت بما عليها من الوفا والإحسان عند الختام والحاجة، وعلى الزوج لزوجته مثل ذلك عند الحاجة ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾[1].

قولها: (لا بد من يوم فراق المحبين): تخبر بأن الدنيا سريعة الزوال، فتفرق الأحبة، ولكن صاحب الأفعال الطيبة والجمايل يحمد العاقبة، وصاحب الردى يتأسف ويندم، (الله أكبر) فما رأيت أحسن من عقل هذه المرأة ومعرفتها. (انتهى).

* * *

(١) سورة النساء: الآية ١٩.

عجيبة في الرزق

كـان الأعـراب يسكنـون بـالبـراري، حيـث تكـون المـراعـي لمواشيهم، وكانوا يحرصون على شراء حاجتهم من التمر في وقت مـوسـم صـرام النخـل (الجـداد) كغيـرهـم، حيـث يكـون أيسـر وجـودًا وأرخص أسعارًا، أو يستوردونه من العراق، أو الأحساء سائر الوقت.

جاءت قافلة من البادية يكتالون تمرًا من سوق التمر، فكان بعضهم يحمل زنبيل التمر للميزان ثم يفرغونه في العياب، وبعضهم يضمده وسط العيبه، وكان هذا الرجل يأكل منه وهو يضمده، وكان يحرص أن يجد في التمر نقادة يأكلها، (والنقادة هي التمرة التي قد أكل منها العصفور وهي بالقنو)، لأن لها طعم خاص، فهذا الذي يضمد التمر بالعيبة، وجد تمرة نقادة، فأخذها ووضعها في فمه ليأكلها، ووجهه إلى تحت حيث يعمل، فلما لمضها سقطت من فمه على التمر في العيبة، وإذا خوياه قد أتوا بالزنبيل الثاني، فقالوا: وَخِّرْ وَخِّرْ، فأفرغوه في العيبة فضاعت النقاده في التمر، وكانت هذه العيبة خاصة لهذا الرجل الذي يضمدها.

فحملوا عيابهم وذهبوا لأهلهم، ومضا معظم الأيام، ثم إن هذا الرجل أنشأ له مَسَـارًا لبعض شئونه، فأخذ زَهَـابه من أهله تمرًا من هذه

العيبة في قلص (دلو)، علقه على جنب الناقة فركبها وسار. فبينما هو سائر ذات صباح، راكبًا ناقته في فلاة من البر، جعل يأخذ من التمر ويأكل وهو راكب سائر، وإذا هو بتمرته النقادة التي خرجت من فمه وهو يضمده في السوق ذاك الوقت، عرفها، فتعجب من هذا القدر الذي أخرجها من فيه ذاك اليوم وأتاح له أكلها اليوم هنا؟ فوضعها في فيه وحرك فمه يلوجها، فخرجت من فمه مرة ثانية، وسقطت فضربت الغرابة، وهي خشبة جانب الشداد، ثم سقطت إلى الأرض في جذع شجرة إلى جانبه، وإذا تحت الشجرة حيوان ضعيف: إما خِصْوى، أو جرذى، في باب جحره، وحين سقطت عنده لقمها ودخل في جحره، فهنا ظهر القدر العجيب؟ فهذا الرجل يذهب يشتريها لنفسه، وتسقط من فمه مرتين، فتساق معه هو رزقًا لهذا الحيوان الضعيف الواقف في باب جُحْرِه بفلاة من البر؟ فسبحان الرازق الحكيم. (انتهى).

* * *

شيء مخيف.. حلاة الطرقى خفيف

إذا وقعت المسغبة نسأل الله العافية، نزعت البركة من الطعام، فكان الإنسان يأكل ولا يشبع كأنه ينهب الطعام من بطنه نهبًا.

اشترى رجل إحدى عشرة وزنة تمرًا (والوزنة نحو كيلو ونصف)، ثم حملها على رأسه وخرج بها إلى أهله في إحدى القرى، وكان به لاهب على الأكل، ففتح فتحة قليلة من فم الكيس، وجعل يأخذ منه ويأكل شيئًا فشيئًا، فلما قرب من أهله، وإذا التمر قد نفد كله وطوى الكيس، ثم مر في ناحية القرية على رجل يروس (يسقي البرسيم) فجعل هو يأكل من ورق البرسيم، نسأل الله العافية والبركة.

وخرج رجل من أهل الخبوب غربي بريدة ليأتي بجمله من بلدة أبلق، قد كان أودعه مع الراعي يرعاه مع إبله بالأجرة. (وأبلق يقع شمال الشقة، والشقة تقع شمال الخنوب).

وأمير الشقة يقال له القصيِّر، كان رجلاً ثريًا وسخيًا يُقري الضيوف، وكانوا في وقت مسغبة، وهذا الرجل طريقه على الشقة ذاهبًا وراجعًا، وقال في نفسه لو أني ميلت على القصير وضفت عنده، لعله يحصل لي قهوة وتمر، ثم اختار أن تكون ضيافته إذا رجع قبالة الليل، فمضى وأتى بجمله، فوصل بيت القصيِّر قبل الغروب، وأناخ جمله أمام

الباب جهة البر، فخرج القصير يريد يذهب للمسجد قبل المغرب، وإذا الطرقى ينيخ جمله أمام الباب، فرجع إلى زوجته، وقال: جاء ضيف ونريد نعشيه لأجل يروح ما دام عليه نهار قبل الظلام، ولكن هل خلص العشاء؟ قالت: نعم، وكانت قد عملت عشاء العمال قرصانًا، وهم تسعة رجال يحرثون الزرع (الختام العثري)، فحمل العشاء هو والمرأة ووضعوه بالمجلس (القهوة)، ثم دعاه وقال: تعال تعش هذا العشاء، فإن أحببت تمشي، إذا تعشيت، وإن أحببت تمرح (تبيت) عندنا فالله يحييك، فدخل الرجل وجعل يأكل (فالمعزب لم يجلس عنده خشية يستحي)، ولم يذهب للمسجد، ينتظر خروج الرجل من المحل، فلما أبطأ الرجل، دخل عليه المعزب ينظر ماذا؟ فلقيه الرجل بالباب خارجًا فقال القصير: (وراك عجل، ما عشيناك يا رجل)، فقال الرجل: ألله يخلف عليك يابو فلان (حلاة الطرقى خفيف)، ثم دخل القصير يريد يحمل العشاء إلى البيت يصلحونه، وإذا الرجل قد أكله كله، وكفأ الصحفة ليس فيها شيء، ويقول: حلاة الطرقى خفيف.

فالحمد لله على نعمه علينا الظاهرة والباطنة. (انتهى).

* * *

تـنـبـيـه:
الدِّين غَيْرُ محتاج إلينا

(لا تظن أن الدِّين إذا تركناه ضاع، ولكن إذا تركناه ضعنا)، قال الله تعالى: ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾ ﴾[1]، قال ابن عقيل: إذا أردت أن تعرف الإسلام في أبناء الزمان، فلا تغتر بهم بازدحامهم على أبواب المساجد، ولا بكثرة قول لبيك اللهم لبيك، ولكن اعتبرهم عند ورود أمر الله ونهيه، وعند مواطأة أعداء الشريعة. (نعم. . فهذا هو المعيار الصحيح).

وقال ابن القيم في (النونية):

تحـب أعـداء الحبيـب وتـدعـي   حبًّـا لـه مـا ذاك فـي إمكـان

وقال الشاعر العربـي:

خَلِيلَـيَّ مـا وافٍ بعهـديَ أنتمـا   إذا لم تكونا لي على مَنْ أقاطع

والبدعة سبب لسوء الخاتمة غالبًا.

---

(١) سورة محمد: الآية ٣٨.

وكل أحد يبعث على ما مات عليه، قال تعالى: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ﴾[1]، (طائره) هو عمله من خير أو شر، فاحرص أن يختم لك بعمل صالح حين تموت، وأنت لا تدري متى تموت. (انتهى).

* * *

(١) سورة الإسراء: الآية ١٣.

يَرْبط الحصنى ويُطْلِق الفأر

قيل: احتال الثعلب على الأسد، وادعى صداقته، وهو إنَّما يُرِيد إهلاكه، قال له: أيها الملك إني اخترعت لعبة، إذا تريد نلعب وإياك؟ فقال الأسد: نعم، لا بأس، وما هي؟ قال: نأتي بحبل وتربطني بجذع شجرة وتلعب عليَّ ثم تطلقني، ثم أربطك وألعب عليك، ثم أطلقك، وهكذا نلعب.

فأحضر الثعلب الحبل من القِنَّبْ، وقال للأسد: اربطني، فربطه، ولعب عليه ثم قال: أطلقني، ثم ربط الأسد ولعب عليه، ثم أطلقه، ثم قال: اربطني، فربطه الأسد ولعب عليه، ثم قال: أطلقني، فأطلقه، ثم ربط الأسد وشد عليه هذه المرة (النوبة)، قال: عجل وراك أبطأت فقال: عيا ينعقد الحبل، وهو يريد يوثقه، فلما ربطه وتيقن ضبطه، قال: ابن الكلب اقعد في هذه الشجرة ومت، والله ما يموت ميتتك أحد، يا خبيث، وجعل يتفل عليه ويحثو عليه التراب، ثم راح وتركه وجعل الأسد يصيح وينادي مَن يغيثه ويطلقه، ولكن صيّاح خلا، وقارب أن يموت إلا أن الله رحمه، وجاءت الفأرة وقالت: كيف أنت مربوط يا أبا الليث؟ فقال: هذا هالخبيث الثعلب احتال عليَّ وربطني،

فقالت: هل تريد أن أطلقك؟ قال: نعم، تكفين يَأم عويمر، فقامت تقرظ الحبل حتى قطعته وأطلقته، فقال الأسد: (عجيب هذه بلاد يربط فيها الحصنى ويطلق فيها الفأر، لا أسكن فيها أبدًا)، وجلا عنها. (انتهى).

❊ ❊ ❊

ما طاب لك ليس يدوم

قيل: هناك امرأة مات زوجها، فجعلت تتوجد من شدة الحزن عليه وتقول:

يــا تَــلْ قلبــي علــى لامــاه   تَلَّــتْ مجــاذيــب ابــن لامــي
يــا قلــب هَــوِّدْ نبــي ننســاه   مــا طــاب للنفــس مــا دامــي

المجاذيب هي: الحبال والدِّلِتْ التي يجذبون بها الماء من البئر لسقي الإبل والغنم وغيرها (وابن لامي: شيخ قبيلة).

* * *

السَّيِنبه ما ترِّثْ إلا الخيبة

كان أعراب لهم إبل وكانوا يعقلونها أمام البيت بالليل حتى لا تسري ويأخذها الحرامية، وكانت المرأة هي التي تتولى تعقيلها (تربيطها): تربط يد البعير وهو بارك بالأرض فلا يستطيع يمشي.

وكانت المرأة كسلانة لم تعقلها حتى الآن، وجعلت توحوح، تقول:

إِهِهْ * إِهِهْ * أقوم أَعَقِّلْ ذَوْدِي * وأَنَوِّمْ خَوْدِي * وارْقُدْ (وانام).

فما زالت على هذه الحال حتى مضى بعض الليل، فقامت الإبل وذهبت وأخذها الحرامية، وهكذا كل إنسان كسلان فإنه يفوت عليه كثير من مصالحه وأعماله (والخود هو: الزوج، والذود هي: الإبل). (انتهى).

* * *

احتقار الأعداء.. قيل:

وضعيفة فإذا أصابت فرصة   قتلت كذلك قدرة الضعفاء

قيل: (لا تحتقر عدوك وإن كنت تظنه ضعيفًا).

لا تحقرنْ كيد الضعيف فربما   تموت الأفاعي من سموح العقارب

. . . .   فكم أفسد الجُرْذان في سد مأرب

قيل: كان ملك من المتقدمين، بلغه خبر جيش قد دخل طرف مملكته فأهمه ذلك، فقيل: لا تهتم لهذا الجيش، وأرسل إليه فلانًا القائد ويكفيك إياه، فقال الملك:

إن فلانًا لا يصلح لمقابلة العدو، لأنه يحتقر أعداءه فلا يتحرز منهم فيصيب العدو منه غرة، وصدق ذاك الملك في هذا، فإن الذي يحتقر عدوه قد لا يحترز منه فيظفر به عدوه على غفلة منه، أما الإنسان الحاذق، الحازم، الحذر، فإنه يأخذ للأمور أهبتها.

فإن احتاج ذلك   وإلا فما في الحزم من بأس

فالذئب ينام بإحدى عينيه ويراقب بالأخرى، كما قيل في الذئب:

ينام بإحدى مقلتيه ويتقي   بأخرى فهو يقظان نائم

وهذا ينبغي للإنسان في كل أحواله وشئونه، فالذئب من أحذر الحيوانات وأشجعها. (انتهى).

* * *

الرزق على الله سبحانه

قيل: كان رجل له اثنا عشرة نخلة، وكان يقوم عليها ويسقيها ويكنز تمرها يأكله، وكل نخلة تكفيه شهر، وما فاجأه يومًا إلاَّ وقد ماتت إحدى النخل، فحزن عليها وقال: هذا الشهر الثاني عشر من أين لي طعام آكله؟ ولكن الله قد علم أنه سيموت بعد أحد عشر شهرًا؛ فمات قبل أن يأكل ما عنده، فسبحان الخالق الرازق.

وهنا رجل قد استغرق معظم حياته في جمع المال، واقتناء العقار، ولا يبيع شيئًا منه ولو اضطرته الحاجة، لقصد اقتنائه لأولاده.

وحين مات في أثناء عمره، قد خَلَّفَ أولادًا ذكورًا وإناثًا، بعضهم قد بلغ الرشد، وبعضهم قد ناهز البلوغ، وبعضهم دون ذلك.

وكانت أمهم امرأة صالحة، حافظة، منظمة لبيتها وأهله. وحين بردت مصيبتهم بأبيهم، قالت لأولادها: (إن الولد لا يصير رجلاً تمامًا إلاَّ إذا تعلق الرجال وعمل معهم واكتسب المال مثلهم، فهذا هو رجل المستقبل)، فتعلق أولادها كلهم مع الناس، يعملون ويكتسبون المال.

ثم قالت لبناتها: (إن البنت حياتها مع الزوج، هي الحياة الطيبة، والإنسان ليس يأخذ من الرزق إلاَّ ما كتب له، وإني أرى لَكُنَّ أنْ لا نَرُدَّ خاطبًا، إذا كانت أحواله مقاربة)، ثم نفذت هذه الخطط فما لبثن إلاَّ

وكلهنَّ مع الأزواج، والأولاد يكتسبون المال مع الناس، وهي تزوجت فاستغنت كذلك، وبقي مال أبيهم وعقاراته لم يحتاجوها ولم ينقصوها شيئًا.

وهكذا كثير من الناس استغنى أولاده من بعده وبقيت عقاراته لم تُصَرَّفْ إلى اليوم.

فما الرزق إلاَّ على الله ومن الله وقد رزقهم الله ذكورًا وإناثًا، كما رزق أباهم وغيره. (انتهى).

* * *

المسلم الحقيقي

لا يكون الإنسان مسلمًا حتى يحقق الشهادتين.

شهادة أن لا إله إلاَّ الله، وشهادة أنَّ محمدًا رسول الله.

فشهادة أن لا إلٰه إلاَّ الله لها شروط سبعة. والشرط لازم للمشروط، لا يصح إلاَّ به. وقد نظم بعضهم هذه الشروط السبعة في بيت. فقال:

عِلْمٌ، ويقينٌ، وإخلاصٌ، وصدقُكَ، مَـ
ـعْ محبةٍ، وانقياد، والقبول لها
وزِيدَ ثامِنُها الكفرانُ منك بما
سِوَى الرحمٰن مِنْ الأشياءِ قد أُلِهَ

وأما شهادة أن محمدًا رسول الله، فهي طاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وأن لا يعبد اللّٰهُ إلاَّ بما شرع، كما بينه الشيخ في ثلاثة الأصول.

وأما شروط الصلاة فهي تسعة، ولا بد أن توجد قبلها، وتستمر حتى تنقضي الصلاة، وهي: الإسلامُ، والعقلُ، والتمييزُ، ورفعُ الحدث، وإزالةُ النجاسةِ، وسترُ العورة، ودخولُ الوقت، واستقبالُ القبلةِ، والنيةُ. فلا يسقط شيء منها إلاَّ في حالة العجز عنه. (انتهى).

* * *

الشاعر إبراهيم بن جعيثن:
يمدح أهالي سدير للضيف وصدق
(من مجموع أبا بطين)

يـا الله بِنَـوٍّ للـرعـد بـه زلازيـل ... ينشـى مـن القبلـة صـدوق أخيـالـه
ينشي الضحى وهو اسود كنه الليل ... البـرق بـه مثـل الضـوى بـاشتعـالـه
يحدي أركونه مثل زجر المحاحيل ... وأعيـاز مـزنـه مثـل دامـر حـلالـه
وإلى انتهض ساق السدايا هما ليل ... مثـل النعـام إلـى تـزايـد أجفـالـه
من واحد ما هوب منان وابخيل ... رب كـريـم وكـل حـيّ يسـالـه
سيل يعم اسدير من غير تفصيل ... عقب أربعين الحول يذكر كماله
يحـده الغـاط والـزلفـى مشـاميـل ... أرض الرفاع وما وطى من اسهاله
ويضفى على المشقر إلى هوّد الليل ... يعـم شعبـانـه تجـي بـاحتمـالـه
وياطا الرويضة والحرَيِّقْ مقابيل ... وأبا السروج وما انحدر من اقباله
واوراط يحيـا بـه حـلالٌ مهـازيـل ... حيث انْ هو اللي ينطح السيل جاله
وإلى انحدر يضفي على العودَةَ السيل ... واتميـر ومجـزل تمـلا هُجـالـه
ويثنى شعيب الغاط سيله بتسهيل ... ما يتعب اللي غارس له اسباله
يمطر على حرمه حقوق المخاييل ... يشبـع بهـا الحـرفـى وراع العمـالـه
ويعل وادي المجمعة والمطافيل ... وأبـا الميـاه عـلاوتـه والسفـالـه

يمطر على هدب الغروس المظاليل يحيـر سيلـه فـي النخـل والحيـالـه
ووادي الفقى زين البساتين وانخيل في القيض يسقى صافي من أزلاله
كـدادهـم كنـه على سـاحـل النيـل تسمـن معـاويـده ويكثـر إريـالـه
يرجع اسدير ويكثرن المحاصيل تلقـى بهـا التـاجـر ينمـى حـلالـه
غـرايـس يـا زينهـا طلعـة اسهيـل يفـرح بهـا اللـي جـايعيـن اعيـالـه
لـلأجنبـي والجـار فيهـا مـداهيـل خشر ليالي القيض مَنْ له ولا له
الأهلـي يعطـي الكسـابـة بـلا كيـل والأجنبي يعطـي العلـف للـزمـالـه
هذا يبـي خضره وهذا له الشيل وراعي الحطب له حزمة في حباله
وإن جا الضعيف بارد الكف وامعيل يمشي على الرجلين ما له ازماله
قليل شوف ويشتكي من ردا الحيل ماله حلال ويستحي من اظلاله
جـار لسمحيـن الـوجيـه المنـاويـل أهالي اسدير هل الصخا والجزالة
ربـع ايسلـونـه بـزيـن التعـاليـل وكـل يـوسـع خـاطـره بـالنـزالـه
يروح واركابه تهادي من الشيل من شاف حاله قال يا كثر ماله
ومـع ذا تـراهـم للخـاطـر بهـا ليـل لأهل النضا واللي ذلوله انعاله
يلقـى أدلال بـاشقـر البـن والهيـل تبـوح مـن طيـب النبـا والسهـالـه
يلـزم امسـويهـا بغسـل الفنـاجيـل وتُـرْكـا لَيْـن انـه يحبـب الفـوالـه
ومن عقب ذا السمن وامفطح الحيل كـل يحشمـونـه علـى قـدر حـالـه
رَجّـالهـم لـو مـا لـه إلاّ المعـاميـل لا بـد مـع ضيفـه ايسـوى جمـالـه
أجـدادنـا جـادوا وحنـا مـواصيـل ومن مات يظهر من أعياله بداله
ربعي وأنا معهم كثير المداخيل من لامني فيهم عسى الشر فاله
يستاهلون المدح جيل بعد جيل اللـي يمـاريهـم فهـو مـن أهبـالـه

يا كثر ما مدحوا ويا ما بهم قيل للضيف راعي اسدير خله الحاله
هشيـن بشيـن أعـدال عـن الميـل سمحيـن: وبضـده لـراع الجهـالـه
أقول شوف العين ما هو تهاويل ما جيب لي نقل بخطو الرسالة

أقول: فما ذكره هنا عنهم فهو صحيح، فأنا جربتهم مع والدي ذاك الوقت أكثر من مرة، كما اشتهروا بذلك عند سائر الناس، مع كثرة من يتطرقهم، مشاة وركبان، وفي المثل:

كـــــروة أهـــــل اســـــديـــــر جـــــــزاك الله خيـــــــــر

(انتهى).

* * *

قاعدة الهجاء القديمة وتعليمها في القديم

قال أبو العلاء المعري:

وإني وإن كنت الأخير زمانه ... لآتٍ بما لم تستطعه الأوائل

ولكن لم يتم له ذلك، فقد سمع مقالته هذه شاب حدث أو أعرابي فعتب عليه، وتطلب لقاءه حتى لقيه، فقال له: أنت فلان؟ قال: نعم، فقال: أنت القائل هذا البيت؟ قال: نعم، قال: يا أحمق إن الأوائل قد وضعوا للهجاء ثمانيةً وعشرين حرفًا، فهل لك أن تزيد عليها حرفًا واحدًا؟ فتعجب الرجل من شدة ذكاءه واعترف بخطأ نفسه.

فحروف الهجاء المقطعة (الثمانية والعشرون) هي أصل الكلام العربي من حين نشأته، يتداوله الناس ويتوارثونها صاغرًا عن كابر، لأن أصله مأخوذ من طريق النبوات ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾[1] الآية.

فكانوا: أول شيء يطرق سمع المبتدىء ونظره من المعلم: هو البدء بحروف الهجاء المقطعة التي أولها الألف، وآخرها الياء. فيكتب

---

(1) سورة البقرة: الآية ٣١.

للمبتدىء بلـوح خشب كل يوم خطة (حصة) ثلاثة أحرف أو أربعة، حتـى يعـرفهـا نظـرًا ويحفظهـا لفظًـا ويتمـرن لسـانـه عليهـا، إلـى آخـر الحروف، ثم يعلمونه إعرابها بالحركات، وهي: الفتحة والكسرة والضمة والسكون.

وهذه القاعدة القديمة هي الآن موجودة مطبوعة ضمن (جزء عَمّ)، وتسمى (القاعدة البغدادية)، إلاَّ أن قاعدة نجد أتم منها، لإثبات حركة السكون فيها. فالمعلم يوحد فكر المبتدىء لمعرفة هذه الحروف، فيعرفها في وقت غير طويل غالبًا، فيسهل عليه معرفة القراءة والكتابة والكلمات حيث عرف الأصل.

وحروف الهجاء على قاعدة نجد القديمة معروفة هي:

ا ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز
س ش ص ض ط ظ ع غ ف ق
ك ل م ن و هـ ي.

أ بَ تَ ثَ جَ حَ خَ دَ ذَ رَ زَ
سَ شَ صَ ضَ طَ ظَ عَ غَ
فَ قَ كَ لَ مَ نَ وَ هَـ يَ.

أَ إِ أُ أْ بَ بِ بُ بْ تَ تِ تُ تْ
ثَ ثِ ثُ ثْ جَ جِ جُ جْ حَ حِ حُ حْ
خَ خِ خُ خْ دَ دِ دُ دْ ذَ ذِ ذُ ذْ

رَ رِ رُ رْ زَ زِ زُ زْ سَ سِ سُ سْ

شَ شِ شُ شْ صَ صِ صُ صْ ضَ ضِ ضُ ضْ

طَ طِ طُ طْ ظَ ظِ ظُ ظْ عَ عِ عُ عْ

غَ غِ غُ غْ فَ فِ فُ فْ قَ قِ قُ قْ

كَ كِ كُ كْ لَ لِ لُ لْ مَ مِ مُ مْ

نَ نِ نُ نْ وَ وِ وُ وْ

هَـ هِـ هُـ هْـ يَ يِ يُ يْ

أً إٍ أٌ بً بٍ بٌ تً تٍ تٌ ثً ثٍ ثٌ

جً جٍ جٌ حً حٍ حٌ خً خٍ خٌ دً دٍ دٌ ذً ذٍ ذٌ

رً رٍ رٌ زً زٍ زٌ سً سٍ سٌ شً شٍ شٌ

صً صٍ صٌ ضً ضٍ ضٌ طً طٍ طٌ

ظً ظٍ ظٌ عً عٍ عٌ غً غٍ غٌ فً فٍ فٌ

قً قٍ قٌ كً كٍ كٌ لً لٍ لٌ مً مٍ مٌ

نً نٍ نٌ وً وٍ وٌ هًـ هٍـ هٌـ يً يٍ يٌ

أَّ بَّ تَّ ثَّ جَّ حَّ خَّ دَّ ذَّ رَّ زَّ سَّ شَّ

صَّ ضَّ طَّ ظَّ عَّ غَّ فَّ قَّ كَّ لَّ مَّ نَّ

وَّ هَّـ يَّ

أَّ أِّ أُّ بَّ بِّ بُّ تَّ تِّ تُّ ثَّ ثِّ ثُّ

جَّ جِّ جُّ حَّ حِّ حُّ خَّ خِّ خُّ دَّ دِّ دُّ

دَّ دِّ دُّ رَّ رِّ رُّ زَّ زِّ زُّ سَّ سِّ سُّ

شَّ شِّ شُّ صَّ صِّ صُّ ضَّ ضِّ ضُّ

طَّ طِّ طُّ ظَّ ظِّ ظُّ عَّ عِّ عُّ غَّ غِّ غُّ

فَّ فِّ فُّ قَّ قِّ قُّ كَّ كِّ كُّ لَّ لِّ لُّ

مَّ مِّ مُّ نَّ نِّ نُّ وَّ وِّ وُّ هَّـ هِّـ هُّـ يَّ يِّ يُّ

أًّ أٌّ بًّ بٍّ بٌّ تًّ تٍّ تٌّ ثًّ ثٍّ ثٌّ

جًّ جٍّ جٌّ حًّ حٍّ حٌّ خًّ خٍّ خٌّ دًّ دٍّ دٌّ

ذًّ ذٌّ رًّ رٍّ رٌّ زًّ زٍّ زٌّ سًّ سٍّ سٌّ

شًّ شٍّ شٌّ صًّ صٍّ صٌّ ضًّ ضٍّ ضٌّ

طًّ طٍّ طٌّ ظًّ ظٍّ ظٌّ عًّ عٍّ عٌّ غًّ غٍّ غٌّ

فًّ فٍّ فٌّ قًّ قٍّ قٌّ كًّ كٍّ كٌّ لًّ لٍّ لٌّ

مًّ مٍّ مٌّ نًّ نٍّ نٌّ وًّ وٍّ وٌّ هًّـ هٍّـ هٌّـ يًّ يٍّ يٌّ

❊ ❊ ❊

الغُبَيْبَةُ

آيْ آوْ أَهْـ إِيْ أُوْ أَءْ

بـــايْ بـــاوْ بَـــهْ بِـــيْ بُـــوْ أَبْ

تـــايْ تـــاوْ تَـــهْ تِـــيْ تُـــوْ أَتْ

ثـــايْ ثـــاوْ ثَـــهْ ثِـــيْ ثُـــوْ أَثْ

جَـــآيْ جَـــآوْ جَـــهْ جِـــيْ جُـــوْ أَجْ

حَـــآيْ حَـــآوْ حَـــهْ حِـــيْ حُـــوْ أَحْ

خَـــايْ خَـــآوْ خَـــهْ خِـــيْ خُـــوْ أَخْ

دَآيْ دَآوْ دَهْ دِيْ دُوْ أَدْ

ذآيْ ذآوْ ذَهْ ذِيْ ذُوْ أَذْ

رَآيْ رَآوْ رَهْ رِيْ رُوْ أَرْ

زآيْ زَآوْ زَهْ زِيْ زُوْ أَزْ

سَـــآيْ سَـــآوْ سَـــهْ سِـــيْ سُـــوْ أَسْ

شَـــآيْ شَـــآوْ شَـــهْ شِـــيْ شُـــوْ أَشْ

صَـــآيْ صَـــآوْ صَـــهْ صِـــيْ صُـــوْ أَصْ

ضَـــآيْ ضَـــآوْ ضَـــهْ ضِـــيْ ضُـــوْ أَضْ

طَـــآيْ طَـــآوْ طَـــهْ طِـــيْ طُـــوْ أَطْ

ظَـــآيْ ظَـــآوْ ظَـــهْ ظِـــيْ ظُـــوْ أَظْ

عَـــآيْ عَـــآوْ عَـــهْ عِـــيْ عُـــوْ أَعْ

غَـــآيْ غَـــآوْ غَـــهْ غِـــيْ غُـــوْ أَغْ

فَـــآيْ فَـــآوْ فَـــهْ فِـــيْ فُـــوْ أَفْ

قَـــآيْ قَـــآوْ قَـــهْ قِـــيْ قُـــوْ أَقْ

كَـــآيْ كَـــآوْ كَـــهْ كِـــيْ كُـــوْ أَكْ

لَآيْ لَآوْ لَـــهْ لِـــيْ لُـــوْ أَلْ

مَـــآيْ مَـــآوْ مَـــهْ مِـــيْ مُـــوْ أَمْ

نَـــآيْ نَـــآوْ نَـــهْ نِـــيْ نُـــوْ أَنْ

وَآيْ وَاوْ وَهْ وِيْ وُوْ أَوْ

هَـــآيْ هَـــآوْ هَـــه هِـــيْ هُـــوْ أَهْ

يَـــآيْ يَـــآوْ يَـــهْ يِـــيْ يُـــوْ أَيْ

ثم الأسماء والكلمة، كما درسنا ذلك وتعلمناه، في مدرسة (محمد بن سنان) الابتدائية، بالرياض نحو عام (١٣٦٣هـ)، في ظلال حكومة الإمام عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود، تحت إشراف الشيخ/ محمد بن البراهم، رحمهم الله، ولم تزل المدارس الأهلية على هذا الأسلوب حتى الوقت القريب حيث انقرضت.

وإنني إذ أذكر هذه القاعدة كاملة، خشية ذهابها، وإلفاتًا لنظر أولياء أمور الأولاد، ومن يعنى بتعليمهم، رجاء أن يبدأوا تعليمهم بها قبل الرسم: بل قبل كل شيء، لأجل يتأسس فهمهم لذلك؛ «ومع الأسف الشديد: أن الإنجليز يُحَفِّظُون المبتدىء: الحروق الإنجليزية

ويكتبونها أولاً، ثم الكلمة، ثم الجملة». فيا ليتنا الآن نبدأ أولادنا بحروف الهجاء.

إذًا: فلا يجوز أن يسلك غير هذا الأسلوب الأصيل الصالح لكل زمان، فغيره يعقدنا، فإنا نجد حروف الهجاء المقطعة، قد ذكرها الله في القرآن، في أول بعض السور المكية، لمعنًى مهم جدًا، وهو: (أن هذا القرآن العربـي المعجز، الذي لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله: هو مؤلف من هذه الحروف المقطعة)، كما ذكره ابن كثير في مقدمة تفسيره، فهذا يدل على أصالتها، والأصل يبدأ بمعرفته قبل الفرع.

فالمتأخر عليه بالعلم القديم من ذلك إذا أراد الصحيح.

وأما من لم يعرف الأسلوب القديم في تعليم المبتدىء حروف الهجاء، ولم يجرب إفادته، فهو يدور يتطلبه فلم يهتدى إليه، حيث تقاذفته الأيدي فأبعد به الطريق.

وبعضهم يغتر بما ظهر من الصناعات الحديثة، نتيجة البحوث، وأنه لم يستطعها الأولون، ثم هو يريد يغير بعض ألفاظ اللغة أو بعض الحروف والهجاء أو بعض قواعد الكتابة محتجًا باختراع الصناعات وحدوثها، فهذا زعم غير مطابق للحقيقة، فليست اللغة مثل الصناعات، فإن الله سبحانه خلق الخلق، وقدر مقاديره، وجعل لكل وقت ما يناسبه، من الوسائل وسائر وسائل الحياة، من الأنعام ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝﴾[1]؛

---

(١) سورة النحل: الآية ٨.

وسوف يظهر أعظم مما ظهر الآن إذا جاء وقته، وهو وقت خروج الدجال، فيظهر معه جبال خبز، وجنة، ونار، ويأمر المطر فينزل، والنبات والخصب أو الجدب في ساعة واحدة، وتحبس له الشمس في السماء، يومًا طول سنة، ويومًا طول شهر، ويومًا طول جمعة، كما في صحيح مسلم من حديث النوّاس بن سَمْعان رضي الله عنه، وغير ذلك، وكله بتقدير العزيز الحكيم.

وأما اللغة والقواعد العربية فمتعلقة بالقرآن ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ۝ ﴾[1]. (انتهى)، والله أعلم.

* * *

(١) سورة الحجر: الآية ٩.

الاهتمام باختيار الزوجة

جاء في الحديث «الدنيا متاع وخير متاعها زوجة صالحة، إن نظر إليها سرته وأن أمرها أطاعته وإن غاب عنها حفظته في ماله وفي نفسها» الحديث روى أوله مسلم عن ابن عمر ورواه بتمامه ابن ماجه عن أبـي أمامة رضي الله عنه.

قيل: (خير النساء المبقية على زوجها، الصابرة على الضراء، مخافة أن ترجع إلى أهلها).

وقال الشاعر النبطي حيث لم يحصل له ما يريده من الزوجات.

عيـت يـدي عـن كـل عُـودٍ تعصـاه ولا هي على جِذْب العصي محدوده
الْمِطْرَق اللي يستويلي وين ابلقاه عينـي لهـا طفحـا ونفسـي شـروده
الخـابـر الله مـا تغـاليـت مشـراه مِيـر إنَّ حَظِّي قَـاصِـرٍ عـن وجـوده

والعصا هنا عبارة عن الزوجة، كذلك الْمِطْرَق هو العصا العود الغض المعتدل الجميل هيكله، ويعني به الزوجة المطلوبة.

وكذلك تقول المرأة حين لم يحصل لها مَن تريده من الأزواج:

اللـي يبينـا عيـت النفـس تبغيـه واللي نبـي عجز البخت لا يجيبه

فسبحان مقسم الأرزاق على خلقه ذكورًا وإناثًا على وفق مراده. (انتهى).

* * *

رائحة القهوة

كان بعض الناس يكثر شرب القهوة البن، وإذا فقد شربها حصل معه دوخ ووجع في رأسه وخلل في شعوره، فإذا شرب قهوة صحا.

قيل: كان رجل في بيته، وزوجته تعمل له القهوة في مجلس القهوة، (وكانوا يحمسون الطبخة عند إرادة شربها فقط)، ويظهر لها رائحة جيدة، ولذة أحسن، حيث كان الناس إنما يتخذون القهوة ويشربونها للكيف والأنس، وأكيف الكيف عندهم: جلوسهم حول حمسها على الجمر وشم رائحتها وتبادل السوالف عليها، كما قال الشاعر:

لا صْفَرَّ لَوْنه ثم بشت بالأعراق　　　ريحه على جمر الغضا يفضح السوق

وَدَقُّها حارة وشربها: فهذا هو الكيف بالقهوة. وأما إذا حمست قبل ذلك وبردت فهي تذهب شيرتها، فليست عندهم قهوة، فيقولون (اشرب مرق)، والشيرة هي النكهة (الطعم والرائحة) وكانوا يوقدون لها نارًا على حطب، لأنه لم يظهر الغاز إلاَّ قريبًا.

فبينما زوجته عنده تحمس له القهوة، وكان الباب غير مغلق، فما فاجأهما إلاَّ وقد دخل عليهما رجل بدون استئذان؛ ففزعت المرأة، لأنه

من اللازم أنها غير متسترة عند زوجها، وأرادت تخرج للبيت من المجلس، ولكن منعها زوجها من الخروج ومن ستر وجهها، وقال كمليها، فاستمرت حتى خلصت القهوة، والرجل جلس عندهم بدون كلام، (فصار الزوج حكيم، يريد يعرف ماذا ينتهي إليه أمر هذا الرجل)، ولا عجلٍ أخذ بابوه (كلمة العوام)، فلما خلصت القهوة، صبتها لهما المرأة، فلما شرب الرجل نحو ثلاثة فناجيل فتح عينيه ونظر في المنزل، فخجل وقام ليخرج، فعرف الزوج أنه قد دوخه فَقْدُ شرب القهوة، وأنه إنما جاء على رائحة الحمسة، فأمر المرأة أن تستتر وتخرج، وقال للرجل اجلس ليشرب معه باقي القهوة.

وقد تكلم بعض من يشرب الدخان قائلاً: إن شارب القهوة يدوخ إذا فقد شربها كما يدوخ شارب الدخان إذا فقد شربه؟.

والجواب عن هذا هو: أن شارب الدخان إذا فقد شربه وأبطأ عنه، ثم شربه فإنه يخدره ويذهب شعوره، وأما شارب القهوة فإنه إذا شربها صحا فورًا، فهي منبهة لا مخدرة. (انتهى).

❊ ❊ ❊

ومن أخبار السفر: امضحى أهل العزم

كان الناس يزاولون الأعمال ويسافرون على الإبل، ويحملون عليها أثقالهم في السفر البعيد والقريب والحج، وأكثر سيرهم من بعد نصف الليل وقبل الفجر، وبعد صلاة الفجر، فإذا صار بعد طلوع الشمس أوقفوا الإبل وتركوها ترعى وعليها الأحمال، أو أناخوها، ثم أنزلوا أواني القهوة، فأوقدوا نارًا من حطب البر، وعملوا قهوة، وأفطروا بما تيسر مع القهوة من تمر أو غيره، ثم ساروا إلى أول الضحى، ثم نزلوا وأنزلوا الأحمال عن الإبل إلى قبل العصر. ثم حملوا عليها وساروا إلى قبل المغرب، ثم نزلوا وأراحوا الإبل ترعا وناموا إلى نصف الليل أو الفجر.

ومن عادات الناس أنهم يسافرون جماعات، من أجل الخوف من الحرامية، فيحملون معهم سلاحًا، يحمون أنفسهم ورفاقهم، ولا يسافر الرجل وحده غالبًا في أوقات الخوف، وقد يحصل على الناس أوقات مساغب، فلا يحصل معهم من الطعام ما يكفيهم، وكذلك القهوة قد تنفد، وهم في الطريق. ومن عادات الناس الطيبة التستر أمام الناس، فأهل العزم رجال كغيرهم في السفر والرجولة، وكانوا مع القافلة في هذا السفر، ولكن نفدت القهوة معهم، ولما أصبح الناس في الطريق

وأوقفوا للقهوة بالمضحى، وكلٌّ أوقد نارًا، وعمل قهوة، فأهل العزم ليس معهم قهوة ذاك اليوم، ولكن أحبوا التستر فأوقدوا نارًا وجلسوا حولها على غير شيء، ثم سَيَّرَ عليهم أي (جاءهم بعض رفاقهم) يريد يتحدث معهم، ويتقهوى، وإذا ليس عندهم شيء، فصار يضرب بهم المثل (إمضحى أهل العزم)، ومثل هذا التستر: هو عادة كثير من الناس من أهل المروءة والشرف، كما قيل:

إن الكريم ليخفي عنك عسرته ... حتى تراه غنيًا وهو مجهود
وللبخيل على عِلاّتِهِ عِلَلٌ ... زُرْقُ العيون عليها أوجه سود

وقيل:

أبت المروءة أن تفارق أهلها ... وأبى اللئيم أن يكون كريمًا

فأنا أدركت بعض وقت المساغب، فبعض النساء توقد نارًا في بيتها وليس عندها عشاء تريد بذلك التستر، لأن البيوت متقاربة وكلهم يوقدون نارًا للعشا، ويظهر لها دخان، لأنها نار حطب وليس هناك غاز. (انتهى).

* * *

الطبع عضو

الطبع هو الخلق الذي اعتاده الإنسان وجبل عليه.

قولهم: عضو: أي مثل أحد أعضاءه لا ينفك عنه غالبًا.

هناك رجل وجد بنتًا جميلة تطوف (تتسول) مع الشحاذين عند الأبواب، فعشقها، وقال: أتزوجها وأغنيها عن التسول. فبحث عن أهلها وخطبها وتزوجها وأسكنها في بيته وأوجد عندها ما تحتاجه من الطعام، ولكن هي لم تترك عادتها، فصارت تخرج وتطوف عند الأبواب، ونهاها فلم تنتهي، فأغلق عليها الباب، فلم تستطع الخروج، فصارت لا تشتهي الطعام في البيت، فجعلت تُدْخِل التمرة في شقوق الجدران ثم تأتي كأنها تسأل فتضرب الجدار بكفها مثل ضرب الباب حالة التسول، وتقول: من مال الله يالأجواد.

الله لا يغنـــي مـــن أغنـــانـــي عـــن سلـــم أبـــوي وجـــدانـــي

ثم تأخذ التمرة وتأكلها، ثم تذهب إلى التمرة الثانية كذلك، فلما دخل الرجل عليها وإذا هي على هذه الحال: فمجتها نفسه وعافها، ثم أوصلها أهلها وطلقها.

إذ التسول عادة دنيئة، لا يمارسها إلا ذوي النفوس الوضيعة، أما

النفوس الشريفة، فهي تأنف من هذا، وتصبر وتستغني بالله وتسعى لكسب ما يغنيها عن الحاجة إلى الناس، لهذا ينبغي للإنسان أن يعتاد عزة النفس، ويعلم أولاده القناعة والتصبر، والترفع عما في أيدي الناس، ويعلمهم التكسب (التسبب) والاستغناء بذلك، فهذا شأن الأشراف من الناس. (انتهى).

* * *

صبيان العقول والعيايرة

قيل: كان رجل في مصر، له حمار يعمل عليه، يكاري في السوق بالأجرة، لطلب المعيشة، عمل بالنهار على عادته، وبعد المغرب أقبل من عمله يريد بيته، يمشي في الطريق وبيده حبل الحمار (الرسن)، والحمار يمشي خلفه، فأتى اثنان من العيايرة، وهم الذين يحتالون لأخذ أموال الناس ظلمًا، فأتوا يمشون خلف صاحب الحمار وهو لم يشعر بهم، فأحدهم أخذ الحبل (الرسن) من رأس الحمار وأدخله في رأسه هو ومشى خلف الرجل كأنه الحمار، والعيار الثاني أخذ الحمار وذهب به، فلما وصل صاحب الحمار بيته، فتح الباب ودخل، ويريد أن يدخل الحمار خلفه على عادته، ولكنه لم يدخل، فجذب الحبل، فلم يدخل، فالتفت إليه، وإذا هو رجل في ظلام الليل، فقال: بسم الله، وش أنت؟ فبكا الرجل بديل الحمار، وقال: أنت غربلتني، [يعني: آذيتني بالكد والتعب وكذا وكذا، ويبكي، فارتاع الرجل ورمى الحبل إليه وهرب منه، حسب أنه انقلب الحمار جني، فانفلت الرجل بديل الحمار، ورجع إلى صاحبه. فلما كان في الصباح خرجوا بالحمار إلى السوق يبيعونه، وجاء صاحبه الأول وحضر بيعه، وقال له الناس: أهذا حمارك يا فلان؟ قال: نعم، ولكنه البارحة جني ليس حمارًا. (انتهى).

* * *

قصة أخرى في مصر

قيل: اشترى رجل خروفًا من السوق، فرآه أربعة رجال عيايرة، فتآمروا على أخذه منه بالحيلة، وكانوا يعرفون طريق الرجل، فتقدموا أمامه في الطريق، ووقف كل واحد في محل بعد الثاني، فلما مَرَّ صاحب الخروف يقوده، والرجل واقف في الطريق، قال: أين تريد بهذا الكلب يا رجل؟ فقال: ليس هو كلب هذا خروف، فقال الرجل: أنت ما تعرف الكلب من الخروف؟ هذا كلب، فتركه ومضى، ثم لقيه الثاني في الطريق، فقال له مثل الأول، فشك الرجل في نفسه أو في الخروف، ولكنه عزم ومضى في طريقه، ثم لقيه الرجل الثالث، فقال له مثل الأول، وزاد بقوله: أنت مجنون؟ هذا كلب ولكن لا ينجس ثيابك، ثم إن الرجل وقف وفكر في نفسه، وفكر في الخروف، وصار يجادله وهو شاك، ولكنه غلب على ظنه صدق نفسه، ثم مضى في طريقه معه خروفه، فلقيه الرابع في الطريق، وقال: من أين أتيت بهذا الكلب يا ولد، فقال الرجل: أهو كلب؟ قال: نعم، أوما تِعرف الكلب؟ فدهش الرجل وارتاع ورما حبل الخروف وهرب فوقف عنده هذا العيار، فلما غاب الرجل صاحبه، أخذ حبله وذهب به إلى أصحابه. (انتهى).

* * *

صيد غِرْ: كذلك

ذهب رجل إلى الصائغ ليعمل له خاتم (وبعض العوام يسميها الفتخة) فقال له الصائغ: قيمتها جنيهٌ، فأعطاه الجنيه فوعده الصائغ بعد يوم أو يومين، ثم جاء الرجل على الموعد فأعطاه الخاتم، فلبسها الرجل، ولكن صادفت الحال أن صار فص الخاتم داخل الكف، فقال الرجل: والله خاتم زينة، لو كان الفص برًا (ظاهر الكف) فعرف الصائغ مستوى الرجل وأنه صيد غِرْ، فطمع فيه، وقال: نقلبه لك، فقال الرجل: بكم تقلبه خارج الكف؟ فقال: بجنيه فقال الرجل: لا بأس صلحها، فأخذها الصائغ فوضعه عنده، وقال: ترجع بعد يوم، فلما رجع إليه الرجل أخذها الصائغ وألبسه إياها الفص ظاهر الكف، ففرح الرجل وقال: أحسنت.

قيل: مات رجل بغتة، فقالت إحدى زوجاته:

مِـــنْ حِسْـــدُه وْقِـــرْدُه   مـــات ولَيْلَتِـــي عنـــده

قيل: (ولد بطني يعرف رطني).

وقيل: (ضربة بالفنطليس ولا عشر بالمقيرعة)، الفنطليس هو: المطرقة الكبيرة، والمقيرعة هي: المطرقة الصغيرة.

يضـرب مثلاً: للقـوة والشجـاعـة والعـزم، كمـا يقـال: (ضـرب مْخَلِّصْ) للقوة والشجاعة أيضًا. (انتهى).

عنترة بن زبيبة

قيل: أكثر ما تنشأ الأمور العظام من ضعف.

فهذا عنترة بن زبيبة، من أشجع العرب القُدَمى، تعلم الفروسية من كلب، حيث نشأ عنترة شبه يتيم، لأن أمه جارية اشتراها أبوه من السبـي، وكان العرب في الجاهلية يعدون ولد الجارية في عداد المماليك، فكان أبوه يعامله هذه المعاملة، فكان عنترة في حال صغره تعوزه لقمة العيش، فكان يطوف في بيوت الحي يتطلب لقمة العيش، فيعطيه هذا لقمة وهذا لقمتين، وصار أولاد الحي يتبعونه، فإذا أعطي شيئًا غمروه ونهبوه منه، وليس ثم من ينصره، فلما ترعرع صار يفكر في خلاصه من طغيان أقرانه عليه، وما يحرز له لقمة العيش.

وفـي ذات يـوم رأى كلبًـا معـه رأس شـاة، قـد هـرب بـه مـن بيـن الكلاب، والكلاب تعدوا في أثره، فإذا غمرته الكلاب وضع الرأس، والتفت على الأول منها ولكمه لكمة قوية حتى يسقط على قفاه، فيقف البقية من الكلاب، فيأخذ هو الرأس ويهرب به، ثم تتبعه الكلاب، فإذا غمرته فعل مثل فعله الأول، وما لكمه لا يتبعه مرة ثانية، حتى رجعن عنه، فصار عنترة هو يفعل بالأولاد فعل هذا الكلب بالكلاب، حتى تفرقوا عنه خوفًا منه، فهذا بداية فروسيته، ثم تزايدت حتى صار يضرب به المثل: (أشجع من عنترة). وحيث كانت عادة العرب نهب الإبل من

بعضهم، خرج عنترة مرة لهذا الغرض: وبعد خروجه صادف رجلاً، هو حاتم الطائي، ولم يعرف أحدهما الآخر وغرضه مثل غرضه، واتفقا على الخوة والشراكة، فيما تحصلوا عليه من الكسب. فانتهى سفرهما بالحصول على ذود من الإبل، ورجعوا. فلما افترق بهما الطريق، قال عنترة لصاحبه: اقسم الإبل، وكانت تمشي وأمامها جبل صغير، وقال: كيف نقسم؟ فقال صاحبه: وَسِّطِ الإبل من هذا الجبل فما أخذ يمينًا فهو لي، وما أخذ يسارًا فهو لك، ففعلوا وافترقت الإبل فرقتين، ومنها ناقة صارت مع إبل حاتم وولدها الصغير الحوار مع إبل عنترة، ثم وقفا يودع صاحبه، فجعلت الناقة تحن لولدها، ويحن لأمه، فقال حاتم لعنترة: خل الحوار يتبع أمه أو خذ أمه معه، فقال عنترة: أنا لا أترك الحوار (اليوم احوار وغدًا جمل) فقال حاتم: خذ الناقة مع ولدها؟ فتعجب عنترة من سخائه بناقة، حيث لم يسخ هو باحوار، لهذا السبب سأله من أنت؟ فقال: أنا حاتم، فقال: أنت حاتم السخاء؟ قال: نعم. ثم قال حاتم: وأنت من أنت؟ فقال: أنا عنترة، فقال: أنت عنتر الظفر، قال: نعم. فقال عنترة: أخبرني يا حاتم، كيف تستطيع السخاء؟ فقال حاتم: أنا إذا أردت أن أعطي الشيء فكأنه لم يأتني، ثم قال حاتم: وأنت أخبرني كيف تستطيع الظفر؟ (الشجاعة) فقال عنترة: أنا إذا لقيت القوم حسبت أني ميت أمس. (انتهى).

* * *

عَقِيل: صلة رحم.. وقطيعة

كان عَقيل من رجال البادية، من آحاد العرب المتنقلين على الحمير، وكان معه أبوه شايب هرم، قد نحل جسمه وسقطت قواه ما عدا حواسه فهي عامرة: (سمعه وبصره وعقله)، وكان الابن بارًا به محافظًا عليه. والابن معه زوجته شابة مغرورة، قاطعة بالشيبة، تتفلت على تركه في البر ليهلك وحده، فلم ترحمه ولم تراعي رضا زوجها ببر أبيه، ولم تتذكر حالها في الكبر وماذا يصنع بها أولادها وزوجاتهم، وقت احتياجها إليهم، فإن البر سلف، وما صنعت صنع بك، جزاءًا وفاقًا.

الحاصل: أنه في صباح ذات يوم، أراد أن يرتحل من منزله إلى منزل آخر، فأمر زوجته أن تحمل العفش على الحمير وتحمل أباه وتنزل بالمكان الفلاني: يقول لها: وأنا سوف أذهب من هنا أطلب الصيد وآتيك في ذاك المنزل، ولكن احملي أباي لا تتركينه.

فذهب مبكرًا في طلب الصيد، فقامت البنت وحملت العفش، ونزلت في ذاك المنزل، وتركت الشايب في مكانه، فأتاه الذئب يريد يأكله، وجعل يدور حول الشايب، ويُعرِّض ويقفي ويقبل، والشايب ينظره ويومىء عليه بعصاه، ويقول له اذهب جاءك عَقيل، ثم يدور

الذئب ويدور معه الشيبة بوجهه ويومىء عليه بالعصا ويقول: اهرب لا يذبحك عَقيل، ثم يدور الذئب من هناك ويقبل إلى الشايب فيومىء عليه بالعصا ويقول: هج قبل يجيك عقيل، فهذه حاله مع الذئب.

أما عقيل: فإنه أتى إلى امرأته وقت الضحا ومعه صيده فألقاه بسرعة وسألها أين أبـي؟ فأجابته بكلام شرس مزعج: (أبوك عود هريان وش تبـي به وكذا وكذا)، فجمح إليه يعدو ليدركه قبل تأكله الذئاب أو غيرها، فلما أقبل عليه وإذا الذئب يُعرِّض حول الشايب، فوقف وطرق عليه البندقية ورماه فقتله، فانتخا الشايب على الذئب حين جأر وقال: أنا أقول لك اهرب جاك عقيل، فبكا عقيل لأبيه فرحا بسلامته، وحمله على متنه وأتى به. (انتهى).

* * *

اعمل تلقى

قيل: كانت أعرابية لها غنم، فاستأجرت شابًا يرعى لها غنمها، كل سنة بجزء معلوم من أولاد الغنم، وكانت هذه الأجرة عادة معروفة عندهم، حتى زماننا القريب.

وسألته، ما سامك؟ فقال: اسمي (اعمل تلقى)، واستمر في عملها مدة فتحصل عنده من ذلك غنم، ولكن المرأة حسدته، وأرادت أن تهلكه وتبقي لها الغنم. وذات يوم خبزت له غداء، وجعلت سُمًّا في ثلاثة أقراص منها، وجعلت في هذه الأقراص الثلاثة دهن (سمن)، وجعلتها فوق الغدا، وقدمته له ثم حادت عنه إبعادًا للشك، وكان لها ثلاثة أولاد صغار، فقربوا من الرجل، ولم تعلم بهم أمهم، فآثرهم على نفسه بهذه الأقراص الميدومة، فأعطا كل واحدٍ واحدًا فأكلوها، ثم بدأ بهم الموت فانزعج الرجل، وجاءت أمهم، فقالت: هل أنت أعطيتهم من الخبز؟ قال: نعم، أعطيتهم المدهونة، قالت: اتركهم سوف يموتون، (اعمل تلقى، وهذا عملي)، أنا جعلت فيها سمًّا أريد قتلك، والآن قتلت أولادي. (انتهى).

* * *

قالت امرأة في زوجها: هو شوقها

مِــنْ حــال يــا شــوق وِدِّيْ بِــكْ ومِــنْ حــال يــا شــوق لا والله
يــا شــوق كثــرت عــذا ريبــك عنــدي وعنــد العــرب كلــه

وقيـل:

أصـل حـديثـك مـا رواه البخـاري اخبـار سـوء مـن رواهـا جنـاهـا

وقيـل:

مــن قــال بــالنــاس قبالــوا بــه ومــن عــال تــأتيــه عِيّــال

(انتهى).

* * *

ذرابة المرأة

أخبرني رجل صدوق، يقول: ذهبت للبر وقت الربيع، أرتاد العشب، فأمساني الليل وهتش علي المطر وأنا هناك، فجعلت أنظر اتطلب أحدًا اضيفهم للمبيت والذرا عن المطر، وإذا أنا اهتش على أهل خيمة صغيرة من الجماعة، عازبين يحشون من العشب، فقصدتهم، فوصلتهم مع المغرب، والمطر يرش، وإذا هو رجل وامرأته فقط، وإذا الرجل أعرفه: غير ذكي، والمرأة ذَرْبَةٌ قرمة، وكانت عادة الناس في البر: لهم موقِدان للنار. فوقت الليل والمطر: يرفعون مِقْدَم البيت أو الخيمة بعمود، فيوقدون النار تحته، ويجلسون حولها، والموقد الثاني: بالبروز خارج الخيمة، حول شجرة كبيرة تذرى عن الهوى، وقت النهار والدفء.

الحاصل: أن الرجل حين رأى الضيف أقبل: أخذ شعلة نار وخرج ليوقد النار بالبروز خارج الخيمة، (على العادة، إذا أتاه ضيف وقت الدفء). فنادته المرأة «لا يا فلان: تعال تحت الخيمة، ما هو اليوم يوم الخروج برا: اليوم الذرى خير من العشا»، فرجع الرجل بشعلته، ووضعها موضع النار في مقدم الخيمة.

فقامت المرأة وأخذت رداءً ونصبته ستارة أثناء الخيمة، فلما

وصلتهم، سلمت عليه، وصلينا صلاة الجمع بسبب المطر، وجلسنا حول النار نتحدث، ناوَلَتْهُ دلة القهوة جاهزة، والتمر القدوع، (الفواله) فلما تقهوينا، ناولته لنا عشاهما الجاهز: ويمكن أنها تعشت هي تمرًا أو نحوه، فلما تعشينا ناولته دلة الحليب جاهزًا، ثم نمنا في ليلة مباركة. وفي الصباح بعد القهوة والفطور، ودعتهما ودعوت لهما بخير وذهبت في سبيلي.

يقول: هي الآن موجودة، وأنا إذا وافقت ولدها سألته عنها وأرسلت لها معه الدعاء والشكر. (انتهى).

* * *

تـبِـيـن أمْ العـوف

كانوا يعطون البقرة علف (تُبِن) ويعطون الفرس شعيرًا (حب)، فغضبت البقرة وقالت: هذا جور: أنا علفي تبن، وهذي الفرس علفها شعير؟ فقالوا: إن الفرس تركب في الطراد والجلاد للحرب والضرب والكر والفر، وأنتي كما تعلمين، فقالت: أعطوني شعيرًا مثلها وَأغِير مثل ما تغير وأضرب مضاريبها، فقالوا: لا بأس، نشوف، فأعطوها شعيرًا مثل الفرس، وجعلت تعفط وتشوش مثل فعل الفرس، بزعمها أنها صارت فرسًا من أكلها الشعير، وفي ذات يوم صاح الصياح وفزع الناس للحرب، وركبوا البقرة مع الخيل فركضت أم العوف نحو مائتين باع (ويقال بوع) ثم وقفت وفتحت فمها تخور، ثم قالت: (تْبِينِكِ يا عَوْفِه ومِّيْه بارِدْ)، فاعترفت بعجزها ورضيت بعلفها.

* * *

البـر بـرجـب

كان رجل له فرس، ولكن بخل عليها بالعلف الشعير، فهزلت فلما حضر يوم الحرب وصاح الصياح، أخذ شعيرًا وأعطاها تأكله فمر عليه رجل وهو يعطيها الشعير، فقال: البر برجب، يعني ليس هذا يوم التنفيع والبر، يضرب مثلاً لمن يترك بذل المعروف والنفع في وقته، ثم يبذله بعد وقت الحاجة.

كذلك كانوا إذا أرادوا الحج، فلا بد من إعلاف الإبل وتنفيعها في رجب وشعبان ورمضان، حتى تسمن وتقوى وتستطيع حملهم وحمل أثقالهم للحج والرجوع منه، أما إذا أهملوا تسمينها وقت الرخاء، ثم أعلفوها وقت الشدة، فإنه لا ينفعها، فهي لا تقوم بحاجاتهم في الطريق، فإذا عجز بعيره، جعل يعطيه علفًا، فيقول له الناس (البر برجب)، خله يولِّي الْحَقْ ربعك (يولي: يذهب). (انتهى).

فـائــدة:

الغفلة تميت القلب، وشرعت الصلاة ليستيقظ القلب، ويتصل بربه بين حين وآخر، ليحبه ويذكره ويعظمه ويمجده، فيسعد القلب في الدنيا والآخرة.

قيل: حج رجل فجعل يقول في تلبيته ودعائه:

أَزْنِـــي جِيْتِـــكْ حَجَّيْـــت بيتـــك   لا تقـــول اِطْـــوَيْـــرِش مـــا جـــانـــي

أَرنـــي جيتـــك حجيـــت بيتـــك   لا تقـــول اطـــويـــرش مـــا جـــانـــي

(انتهى).

* * *

حول بدأ بشرب النساء القهوة

حين بدأت النساء تشرب القهوة وتجتمع لها، قال بعضهم شعرًا:

دار الـزمـان لِـلابسـات الْـوَراسِـيْ   واهل الْمَعانِي ما يَجُون الْمصَفّات
جيت الحبايب يَرْزَحِنْ القهاوي   هـذي يحمسنـه وهـذي مـركّـات
الطيبـه منهـن بهـرجـه تمـاري   وايلا طق رَجْلَهْ قالت عندي مْسَيْرات
بَعَـدْ اسبـوع ويـأخـذن الـرجـال   هُمِّيْنِ تصيـر بِـايْـدَيْهِـنّ الْتخَـلاَت

(انتهى قوله: وإليك بعض المعاني)

قوله: الوراسي: هي ثياب الورس، وثياب الْكِيْن، وهن نوع من الحرير الجميل ذاك الوقت.

قوله: أهل المعاني: هم الرجال ذوو الشأن المهم: أي يعنيهم، وهم أيضًا أهل القهوة إذ ذاك لا النساء، ويسمونها المعنىٰ حيث كانت تعنيهم ويعنون لها. (والرَّزْح هو: الدق، الضرب بقوة).

قوله: المصفّات: هي القهوة المعمولة الممتازة مصفاة عن السريب، من التصفية، فصارت القهوة مع الكيف للنساء فَالْتَهَتْ بِها المرأة عن مُباشَرَة زوجها، بعد أن كانت النساء لا تشربها ولا تقرب محلها، وقوله: ايلا طق رَجَّاله قالت عندي مسيرات، أي: زائرات، يعني أنها تَنْحَشُهُ عن محل القهوة. ولقد كان الرجل لا يحتاج نقل مفتاح لبيته، لأن زوجته في بيته ليس لها مشاوير ولا ظروف خارج البيت،

فهي مستريحة هادئة البال، فإذا أتى هو طرق الباب وتكلم «هيش»، لتعرفه، فاهتزت وأجابته (سم سم) وأتت تفتح له الباب وتغلقه بعده، وتحييه بتحية الصباح أو المساء، ثم مشت أمامه تضع له فراشًا يجلس عليه، ثم تباشره بما يريد من ماء أو غيره، إلاَّ القهوة فهو يعملها ويشربها ويكيف عليها بنفسه لا دخل للمرأة في عملها ولا شربها، ثم عند خروجه تمشي أمامه أو معه، تفتح له الباب وتودعه (مع السلامة)، وتغلق الباب بعده وهكذا.

فهذا الشاعر: لما رأى تحول أمر القهوة والكيف إلى النساء، تَخَوَّفَ أَنْ يَقَعَ لَهُنّ مثل ذلك، بما هو مستحيل وهو الطلاق: فهذا معنى قوله:

بَعَـدْ شبُـوع ويـأخـذنـا الـرجـال ... همين تصير بأيديهن التخلات

الطلاق الذي هو من خصائص الرجال، أي قد يستحيل لهن المستحيل. (والآن كِخْ في مخْباتِكْ). (انتهى).

(ومن أقوال الأديب راضي الراضي). قال:

رَمْيَ الشِّبَكْ دايم يصيد قِرْناسِهْ ... تـاقَـعْ بِهـا ثـم تَنْشَـبْ مَخـالِبْهـا

ترا التلفون مصياده وعوكاسه ... يخدعها لين يأخذ كل غايبها

ثُمَّ يذيع الخبر شعله بقرطاسه ... فضيحة شعها صدق مكذبها

والبيض مثل الجنيه وفيهن انْحاسِه ... وفيهن حمامه وفيهن من عقاربها

مثل البحر مُخْطِرٍ بالغوص غطاسه ... إما كسب درة والا شَـواذِ بْهـا

وصدق رحمه الله. (انتهى).

* * *

أخطار بعض المصادفات

قيل: كان رجل ظن في امرأةٍ أنها جميلة، وكان يصادف ابنها الصبي كل يوم في ذهابه إلى المدرسة، ويقول له سلم لي على أمك، ثم الصبي يخبر أمه بذلك. فلما كثر إرسالُهُ السلام لها، وكانت هي امرأة عفيفة، شريفة، شجيعة، تأنف أن يعبث بشرفها أو ينسب لها مثل هذا الاستهتار، فقالت لزوجها: ما رأيك؟ القصة كذا وكذا، فقال: وماذا تريدين؟ قالت: أريد، أربيه (أؤدبه) فقال: وماذا تصنعين؟ قالت: استدعيه وأنت حاضر.

ثم قالت لولدها عند ذهابه للمدرسة: قل له اتسلم عليك أمي، ففرح الرجل وصارت توصي ابنها كل يوم (تسلم عليك أمي)، وهو يرسل لها السلام كذلك، فلما قوي طمعه فيها، قالت لولدها: قل له إن أمي تقول يأتي بعد صلاة العشاء الآخر في جهة باب البيت (الحوش)، إذ كل بيت هنا له بابان (باب للرجال وباب للنساء)، ثم أخبرت زوجها، وقالت: خلك حاضر حولي وقت موعده، ثم أعدت عيشًا (قمحًا) بقدر ما يحمل الرجل، عند الرحا. (وقد كان غالب الناس يتخذون رحا في بيوتهم يبنون لها غرفة صغيرة

قريب من الباب الخارجي لهـم ولجيرانهم ممن ليس لديه رحا) فلما صار بعد صلاة العشاء الآخرة وزوجها حاضر في البيت، جاء الرجل وحـرك الباب وإذا هي قريبـة منه، ففتحت لـه وعليها ثيابها ساترة وجهها عنه، وقالت له: تعال. . تعـال هنا، وأشارت إلى الرحا، قالت: فإن الرجـل حـاضر، تعني زوجـهـا، وسوف يروح هالحين، لأنه معزوم على قهوة، ولكن أنت اجلس اطحن الرحا، وهذا العيش البر اطحنه، لأجل أقول لزوجي إن هذه جارتنا (فلانة) جاءت تطحن، حتى لا يستنكر.

فدخل الرجل غرفة الرحا وجعل يطحن، وهي تروح ثم ترجع إليه، وتقول (هاذاه يبغي يمشي)، هاذاه يتمغط، يبغي يمشي، ثم تروح وترجع، وتقول: لا توقف الرحا لعله يروح (عطاه النفر)، فلما ظنت العيش خلص، قالت: قم اخرج اخرج إن زوجي هون عن الذهاب، ويقول خلي المرأة تخرج، نبغي ننام، ولكن أنت أخرج وأنا أوصي لك غير اليوم، فخرج الرجل بعدما تعب من الطحن، ولم يحصل على مقصوده، فلما صار بعد أسبوع، قالت لولدها: قل له تسلم عليك أمي، فقال الرجل: أهو خلص طحينكم؟

يعني أنها تريدني أطحن، ما هي على ما أريد.

أما قولها عطاه النفر، النفر هو: جرح يطلع في جسد الإنسان كالدمل وغيره، وهذا منها دعاء غير مقصود، فهي تدعو عليه إيهامًا للرجل لأجل يستمر في عمله حتى ينهي الطحن ليتعب.

ومثل هذه: امرأة أخرى، تسلط عليها رجل يغازلها ويتطلع عليها

وهي في بيتها، فأرادت أن تنكله وتتشفى منه، حيث كانت امرأة شريفة. فأخبرت زوجها وأخاها: وقالت احضروا وقت مجيئه؟ فلما جاء الرجل يتطلع عليها ويغازلها فتحت الباب وأشارت له فدخل، وأغلقت الباب، وإذا الرجلان يمسكانه ويضربانه حتى غفل، فطرحوه في الشارع وتركوه، فما رؤي في تلك الحارة بعد ذلك. (انتهى).

* * *

راكان ابن حِثلَين

كان راكان ابن حثلين، شيخ قبيلته، وكان شجاع شاعر، وكانت بعض الدول آنذاك تنتاب جزيرة العرب في حملاتها الحربية، اقتضاء مصالحها وأغراضها. وفي إحدى حملاتها على نجد قبضوا على راكان وحملوه إلى مركزهم بالمدينة المنورة، فبقي بالتوقيف (السجن) هناك فعرض راكان عليهم المصالحة: بأن يطلقوه ويدفع لهم ثلاثمائة بعير فداء؟ فأبوا، فلما كان بعد سنة أتوا إليه وقالوا: اعطنا ثلاثمائة بعير ونطلقك، فقال: لا ولكن أعطيكم مائتي بعير، فأبوا، فلما كان بعد سنة أيضًا أتوه وقالوا: اعطنا مائتين بعير ونطلقك، فقال: لا ولكن أعطيكم مائة: فأبوا، فلما كان بعد السنة الثالثة قالوا: اعطنا مائة بعير ونطلقك، فقال: لا أعطيكم شيئًا الآن. فسألوه لماذا أنت كنت شفقًا على الخروج والآن تنازلت؟ فقال: إنه كان لي ابن صغير، وأشفقت أن أدرك اعجوباته! وأما الآن فقد كبر وقلت اعجوباته فلا شفقة على الخروج؛ فتركوه في السجن.

وبعد مدة حصل حرب بين الدولة وآخرين على الخيل، قريب من هذا السجن، فصار راكان ينظر فيهم وهو في سجنه، فاستشعر حالة الحرب، فشخص بصره فيهم، وجعل يرجف الأرض برجليه ويعوم

بمرفقيه كأنه على فرس في الطراد ويهز جسمه إلى أمام للتقدم حالة لحاق خيل الدولة على المحاربين، ويقول: عليهم ــ عليهم ــ عليهم، فإذا انهزمت خيل الدولة ولحقتها خيل العدو جعل راكان يهز جسمه إلى خلف للإنهزام والتقهقر ويقول: عنهم ــ عنهم ــ عنهم، فرأت صنيعه ابنة الزعيم فأخبرتهم وقالت: إنه فارس، فأتوا إليه في السجن وقالوا: هل ترغب تحارب معنا؟ قال: نعم، فأطلقوه، فقال: أريد فرسًا لم تعسف فأنا أعسفها. فأدخلوه حوش الخيل فاختار فرسًا مهرة وعسفها أي علمها على قاعدته هو: بحيث (تجوض) وهو الروغان، فركبها ودخل المعركة.

وقد كان في خيل العدو فارس قد أثخن خيل الدولة وعجزوا عن قتله، فقصده راكان واستطرد له، فلحقه الفارس، فلما قرب منه راغ عنه راكان، وفرس ذاك لا تعرف الروغان، فرجع عليه راكان ولحقه وكان راكان قد أخذ معه غصنًا من شجرة العوشز في رأسه شوك لأنه لا يريد قتله، فلما قرب من الفارس وكان الفارس له شعر في رأسه قذلة، فأدخل راكان غصن الشوك في قذلة الفارس؛ والخيل في شد جريها وجعل يلوي الشوك في الشعر حتى مسكه فجذبه به فسقط الفارس على ظهره بالأرض، فنزل راكان وقبض عليه. فانهزمت خيل العدو وانتهى القتال.

فشكرت الدولة لراكان وقالوا له اطلب منا جزائك؛ فقال (أبغي الصمان والد هنا (يعني يريد يطلقونه يذهب لأهله هناك)، فأطلقوا سراحه وأعطوه ناقة مجهزة بأثاث المسافر وسلاحه؛ فركبها وتوجه إلى

أهله. وفي الطريق ما بين المدينة المنورة ونجد (القارة طميه) بدون تشديد الراء: هي جبل متحد عالٍ رأسه مستوٍ يسمى (طمية)[١] فجعل راكان يصف طريقه بقصيدة، ويسند كلامه إلى ناقته، ويذكر طمية بشعره، فقال:

يـا فـاطري ذِبِّـي خـرايـم[٢] طميه	إيلا ازمهرت مثل خشم الحصانى
ذبـــي طميــه والــديــار الخليــه	تنحــري بــرزان زيــن المبــانــى
ســلام أخــو نــوره لــزوم عليّــه	قبــل حبيــب وصــديــق ودانــى
وإيـلا قضيـت الـلازم اللـي عليّـه	الـلازم اللـي مـا قضـاه الهـدانـى
حطيـت الجـدي فـي ورك المطيـة	وبنحورهنْ يطلع اسهيل اليمانى
نبـــي انـدور طفلـة عسـوجيـه[٣]	ريحـة نسمهـا كـالـزبـاد العمـانـى

والهدانى هو الإنسان الكسلان، فلما وصل راكان أهله، وإذا زوجته هذه الطفلة، قد استبطأته وظنت أنه قد مات: فتزوجت شيخ قبيلة أخرى فولدت منه ابنًا؛ فلما سمع زوجها بقدوم راكان خاف منه فقال لها اذهبي إليه: فركبت وقدمت على راكان، وسلمت عليه وهو في جلسة الرجال، واعتذرت منه، ولكنه لم يقبل عذرها، وقال شعرًا:

خِـرِّي وَنـا راكـان زَبْـن الـوَنِيِّـه	مـا يشـرب الْعَقْبـات كـود الهـدان
لـومـي على الطيّـب ولـومـه عليّـه	وراه يـأخـذ عشقتـي مـا تنـانـى
وراه ما صبر عامين وتالي ضحية	أَلَيْـن يميـز غـربتـي وش جـرالـي

(١) ولها قصة مع جبل قطن وأخرى مع جبل ديم: وأخرى مع جبل سنام.

(٢) الخرايم جمع خريمة وهي الجادة (الطريق).

(٣) العسوجية هي البنت التي (رويانة العود وادقاقه) كما قاله الشاعر الآخر.

إمــا قعــد راكــان بــالمهمهيــة   وإلا جـا يصهـل صهيـل الحصـان

ثم قال قصيدة أخرى: يخبر فيها أنه سوف يغزو على هذا الذي تزوج زوجته ولم يخف منه فيحاربه، منها قوله:

لا بـد مـن يـوم إيقـوض عسـامـه[1]   إمـا علـى المطـران والا بنـي يـام

(انتهى).

* * *

(١) عسامـه هنا: هو غبار الخيل حالة الطراد.

وأما السراب في الأصل فهو شبه الماء يكون في البر (القاع) وسط النهار فإذا وصلته وإذا هو ليس بشيء، ومع ذلك هو لم يدعي لنفسه الغلبة على خصمه وذلك من رزانة عقله.

صدق وصراحة في القديم: حتى في الخصومة

تنازع رجلان في مسئلة، وتواعدا الخصومة لدى القاضي (في غَدٍ)، فلما أصبح أحدهما مَرَّ على صاحبه وقال: امش معي للقاضي! فقال الرجل الثاني: أنا أعمل بالفلاحة وليس لدي من يمسك عني العمل حتى أرجع، وأنا دعواي في هذه الورقة، خذها أنت معك واذهب للقاضي، اعرض عليه دعواك، ثم أعطه ورقتي، وأخبرني بما يحكم.

فقال الرجل: لا بأس هات الورقة، فأخذها وذهب وجلس بين يدي القاضي، فلما أراد أن يتكلم قال القاضي: (أين خصمك؟ لا نسمح لك تتكلم حتى يحضر خصمك). فأخرج الرجل الورقة من مخباته وقال: هذه الورقة خصمي، (إن صاحبها أعطاني إياها لأنه يعمل في مزرعته، وقال: أعطها الشيخ وادَّعْ أنت وأخبرني بما يحكم.

فأخذها الشيخ وقرأها، ثم قال للرجل: نعم وِشْ عندك أنت؟ فادْعا الرجل بحجته وانتهى، فقرأ عليه الشيخ الورقة وأفهمه بما فيها، ثم قال الشيخ: (الحق للورقة، أما أنت فليس لك حق في المسألة)،

فقال الرجل سمعنا وأطعنا، جزاك الله خيرًا يا شيخ، فأعطاه الشيخ الورقة، فرجع بها إلى صاحبها وقال: (عَيَّنْتَ يا فلان؛ قد حكم لك الشيخ بالحق وفَلَّجَ عليَّ أنا) وأعطاه ورقته، فقال الرجل: جزاك الله خيرًا، تفضل للقهوة، فقال نعم، فجلسوا يتقهوون ويسولفون ليس بينهما إلاَّ خيرًا.

كذلك رجل آخر: كان فلاحًا، وكانت لهم ناقة يعملون عليها خارج الفلاحة، فادّعى رجل من أهل إحدى قرى ضواحي البلد، أنها ناقته الضائعة؟ وأحضر شهودًا عليها، فأنكر صاحب الناقة دعواه وقال بل هي ناقتي أنا، فذهبا يتخاصمان لدى القاضي في بيته وَسْتَصْحَبَ كلٌّ منهما معه شهودًا، يُجْلِسْهما عند الباب حتى يطلب القاضي البينة فيدعوهما له، وكذلك الناقة أحضروها معهم، عقلُوها عند الباب.

فادّعى الرجل الأخير: أنها ناقته، فسأله القاضي بينته؟ فاستدعا شهوده من عند الباب، فسألهم القاضي عن عرفها؟ فشهدا أن هذه الناقة المعقولة عند الباب: أنها ناقته الضائعة، فالتفت القاضي إلى الرجل الأول صاحب الناقة وقال: وأنت وش تقول يا حمد؟ فقال حمد: أنا عندي جيراني يشهدون أنها ناقتي، فقال هاتهم، فدعاهم من عند الباب، فسألهم القاضي؟ فشهدا أنها ناقة حمد وهي في يده يعمل عليها من ذو زمن، فالتفت إليه القاضي وقال: وش تقول يا حمد كل شهودكما عدول؟ فقال حمد: أعطه إياها يا شيخ، فقال: جزاك الله خيرًا، خذها يا فلان، يعني المدعى، فركبها الرجل وذهب بها.

أما حمد: فلامه شهوده: قالوا كيف تنازلت عن ناقتك فنكون كذابين عند القاضي وعند الناس؟ فقال حمد: لا تخافون، الناقة حلالٌ وسوف ترجع لي إن شاء الله.

أما الرجل راعي (الشقة): لمّا وصل أهله، (زوجته وأولاده) قالوا ما شاء الله أنت اشتريت لنا هذه الناقة؟ قال: لا.. هذه ناقتنا فلانة الضائعة، فقالوا: ليست هذه ناقتنا، فقال بلى هذه هي، فأبوا يعترفون بها، فرجع لقولهم، وقال: يا ألله مقسوم خير عز الله إننا غلطنا، وتفسَّلْنا بالرّجّال، وسوف نرجعها إليه، ولكن أنا مستحي أروح له بالنهار، خلوها هنا حتى يأتي الليل أذهب بها إن شاء الله، فركبها بعد العصر فوصل مزرعة حمد بعد المغرب، فأدخلها في حوشه مع صواحبها ورجع، فلما أصبح حمد وإذا الناقة في حوشه مع صواحبها، فحمد الله سبحانه ودعا للرجل بخير، وذهب يخبر جيرانه بها، ثم ذهب يخبر القاضي أن ناقته رجعت إليه، ليعلم صدقه وصدق شهوده، فقال القاضي: جزاك الله خيرًا يا حمد.

كذلك: كان في البلد رجل له ناقة يعمل عليها ويدخلها في حوش بيته عادة الناس، فأخرجها للبر وقت الربيع، ترعى مع أحد رعاة الإبل، لكنها ضاعت منه، وبعد مدة وجدها صاحبها في سوق الإبل مع أعرابي يبيعها مع إبله، فعَرَفَها عليه؟ فأبى الأعرابي أن يعترف له بها، بل قال هذه ناقتي، فطلب صاحبها منه حضوره معه لحاكم الشرع، أو يشتكيه على الأمير؟ فذهب معه للشرع، فادّعى عليه بها، فأنكر الأعرابي عرفه إياها، فطلب القاضي من المدعى بينة تثبت دعواه؟ فقال الرجل: بينتي

هي: أن أفتح بابـي ويمر بها مع إبله في الشارع، فإن عرفت هي الباب (البيت) ودخلت فهي ناقتي، وإن نفرت منه عادة إبل البادية فهي ناقته؟ فقال القاضي: أحسنت هذه أبين البينة.

فقام الأعرابـي يسوق إبله مع الشارع، والرجل تقدم يفتح بابه، فلما رأت هي الباب حَنَّتْ ودخلت وتركت الإبل، فأغلق بابه على ناقته وانتهوا. (انتهى).

* * *

حرب البسوس: زمن الجاهلية

حرصًا مِنّا على نشر نوادر من الأدب العربـي والأحوال القديمة للجميع، فقد وجدنا هذه القصة في كُتَيِّب من مطبوعات المكتبات المدرسية، كما هي موجودة في كثير من كتب التاريخ والأدب، ولكن هذه النسخة قد صاغها مؤلفها بأسلوب عذب، فأحببنا نقلها هنا بأسلوبها ليعم الوقوف عليها، لنستفيد من القصة عدة فوائد مهمة.

أولاً: معرفة أحوال العرب في القديم، وقد أدركنا عامة أحوال الناس على مثل ذلك، ما عدا امتيازنا بالاسلام، وترك المحرمات، والحمد لله.

ثانيًا: تستفاد معرفة العربية من أمثال هذه القصة (الجاهلية).

ثالثًا: معرفة الله: حتى في الجاهلية، كما تراه كثيرًا في كلامهم وأيمانهم.

رابعًا: ضرورة الناس إلى حاكم يقوم بإقامة الوِلاية، لانتظام مصالحهم بالسلطان، ولازم ذلك السمع والطاعة له عليهم، باعتبار أضرار الفوضى، وفي الأثر: (مِلك غشوم ولا فتنة تدوم).

وفي الحديث: (اسمع وأطع لولي الأمر، وإن ضرب الظهر وأخذ المال): صحيح رواه أهل السُّنَنْ، وجاء في البخاري بمعناه، لا سيما لو تعرف ما حصل على هؤلاء بعد ذلك: من الحروب والمحن التي

تشققت منها الأكباد من الفريقين.

خامسًا: قد يجني الواحد على جماعته وقومه شيئًا لم يريدوه، كما فعل كليب بطغيانه، وجساس بانتقامه، وجليلة بنخوتها واعتزازها على زوجها، فاضطرمت نار الفتنة من هؤلاء، فاستعرت كثيرًا برجال القبائل الأبرياء.

وكذلك فعل قاتل الأمير حجر بن الحارث، وما حصل على جماعته بني أسد بعد ذلك.

سادسًا: حيث كانت تنسب هذه الفتنة والحرب إلى البسوس: إنما هو حكم على الظاهر، أما في الحقيقة فإنما سببها الأول: هي جليلة (امرأة كليب)، كما ستقف عليه إن شاء الله.

سابعًا: أضرار قطيعة الرحم، وشؤم عاقبتها، كما حصل من أولاد الملك الحارث، وما حصل عليهم.

ثامنًا: التفطن لأضرار الوشاة والمفسدين، بين العوائل، والأسر، والجماعات، والملوك، وغيرهم.

تاسعًا: أن المرأة تخدم زوجها، بل هي تبتهج بخدمته، بل هي تغار أن يخدمه غيرها حتى ولا خادمتها، كما فعلت جليلة زوجة سيد العرب (تغسل رأسه وتسرّحه هي: مع وجود الخادمات (الإماء).

عاشرًا: أن همامًا ليس بالرجل الحازم الذي يقضي على خصمه حين سنحت له الفرصة، وهو يرى تهديده إياه بقوله (ويل لبكر من غاراتي). وفي المثل: (رأس تقطعه ما يجيك فزّاع).

وها هي القصة: قال المؤلف:

ملـوك.. وملـوك

كان الحارث ابن عمرو آكل المرار: أعظم ملوك كنده، قد ملك الحيرة وحكمها على عهد ملك الفرس، لدخوله في دينه الذي دعاه إليه، بعد أن نفى المنذر ابن ماء السماء عنها، وعلا صيته زمنًا، واشتغل بالحيرة عما كان يراعيه من أمور أهل البوادي، فتفاسدت القبائل من نزار، وعم الشقاق بينهم واضطرب الأمن فيهم، فأتاه إشراف القبائل، وشكوا إليه ما حل بهم من غلبة السفهاء وحكم الأقوياء، وضياع الحق والعدل، وطلبوا إليه أن يملك أبنائه عليهم.

فملّك ابنه حُجْرًا على بني أسد وغطفان، وملك ابنه شرحبيل على قبائل بكر بن وائل بأسرها، وملك ابنه مسلمة على قبائل قيس عيلان، فهدأت بذلك الأمور، وعاد النظام إلى هذه القبائل المتنازعة، حتى نعمت بالهدوء والاطمئنان طول أيام حكمه وحكم أولاده.

وذات يوم خرج الحارث يتصيّد، فرأى جماعة من حُمُرِ الوحش، فشد عليها وانفرد منها حمار فتبعه، وأقسم يمينه ألا يأكل شيئًا قبل كبده.

وأتي به بعد يومين وقد كاد يموت من الجوع والتعب، ثم ذبحوه وشووه على النار، وأطعموه كبده وفاء بقسمه، وكانت الكبد حارة فساءت صحته وأدركه الموت.

خصومة الأبناء هي الداء:

ولمّا هلك الحارث تشتت أمر أولاده، وتفرقت كلمتهم ومشى بينهم الرجال بالدسائس والوشايات، واشتد أمر الخلاف فيهم حتى ثارت الخصومة في نفوسهم، وحقد بعضهم على بعض. فجمع كل واحد منهم لأخيه الجموع وزحف إليه بالجيوش.

وأشد ما بلغت العداوة بينهم تلك العداوة التي كانت بين شرحبيل ملك بكر بن وائل وأخيه مسلمة ملك قيس عيلان. ومما زاد هذه العداوة اشتعالاً أن المنذر ابن ماء السماء قد عاد إلى مملكته في الحيرة بعد هلاك ملك الفرس، وكان أول عمله أن يقضي على أولاد خصمه الحارث الذي نازعه على الحيرة، فراح يغري بين الأخوين ويحرّض أحدهما على الآخر.

سار شرحبيل ومن معه حتى نزلوا موضع ماء بين الكوفة والبصرة، وأقبل مسلمة ومن معه، وكان العقلاء من الفريقين ينهونهما عن التقاطع والتحاسد ويحذرونهما عواقب الحرب بين الأخوين وقطيعة الرحم، ، ولكنهما لم يقبلا نصحًا وأصرّا على القتال.

دم.. ونـــدم:

تهيّأ الفريقان للقتال، وأوصى كل واحد رجاله بالثبات حتى النصر، وعند مطلع الفجر التحم القوم، وهزوا رماحهم في وجوه بعضهم، واقتتلوا قتالاً شديدًا وثبت بعضهم لبعض دون أن يظفر أحد منهم، ولمّا كان آخر النهار وقد كلّت السواعد وتثلمت السيوف، وتقصفت الرماح، خرج منادى شرحبيل ينادي: من أتاني برأس أخي

مسلمة فله مائة من الإبل، وخرج منادي مسلمة ينادي: من أتاني برأس أخي شرحبيل فله مائة من الإبل، واشتد القتال على هذا النداء، كل مقاتل يطلب أن يظفر لعله يصل إلى قتل أحد الرجلين ليأخذ مائة من الإبل، وفي اليوم الثاني مال النصر إلى رايات مسلمة وأتباعه، فانهزم شرحبيل، وتفرق جمعه عنه فتبعه رجل من بني تغلب وهو يطمع أن يقتله لينال مكافأة قتله، فالتفت إليه شرحبيل: ويحك: ماذا تريد مني؟ فقال الرجل: أريد رأسك، فقال شرحبيل: لقد ظلمة أخي حين طلبت رأسه بمائة من الإبل، وظلمني أخي حين طلب رأسي بمائة من الإبل، فهل لك الآن بعشرة من الإبل، هي كل ما تملك يداي في هذه الصحراء؟ فقال الرجل، والطمع يغريه بما هو أكثر عددًا: لا أرضى إلاّ بمائة، فهز شرحبيل سيفه وأقبل نحوه وهو يقول: بئس ما منتك به نفسك، ستعلم الآن كيف تدافع الملوك عن شرفها وعزتها وحمل عليه وضربه على ركبته فقطع رجله وتركه يعاني الموت وحيدًا في الصحراء.

قتيـل بقتيـل:

كان لهذا القتيل أخ لأمه يكنى (أبا حنش) سمع بلقاء أخيه مع شرحبيل.

ولمّا وصل شرحبيل مضارب قومه: رآه أبو حنش فسأله عن أخيه: (لقد علمت أنك لقيت أخي فماذا كان من أمرك معه؟) فقال شرحبيل متهكمًا: لقد قتلني أخوك ثم هلك، فقال أبو حنش قتلني الله إن لم أقتلك وحمل عليه أبو حنش حتى أمسك به، فقال شرحبيل: يا أبا حنش لا تفعل، خذ ديته مني ما تريد من نياق تطفح ضروعها لبنًا،

فأجابه أبو حنش: لقد هرقت لبنًا كثيرًا، وليس مثل أخي يباع باللبن، فقال شرحبيـل: ويحك أتقتل أميرًا بصعلوك؟ فأجابه أبو حنش: دع عنك ذكر الأمراء إن أخي كان أميري، ثم طعنه أبو حنش، وألقاه عن فرسه قتيلاً يتخبط بدمه ونزل إليه فأخذ رأسه وبعث به إلى أخيه مسلمة مع ابن عم له: (هاك الرأس فهات الثمن)، فحين جاء برأس شرحبيل وقف على أخيه مسلمة وألقى الرأس بين يديه بعنف، وطلب الثمن الذي وعد به، فتأثر مسلمة لِما فعل وقال: ألا ألقيت الرأس برفق؟ فقال الرجل: ولماذا ألقيه برفق وقد صنع بنا وهو حي شرًا من هذا؟ فقال مسلمة: وقد دمعت عيناه: هل أنت قتلته؟ فقال الرجل: لا ولكن قتله ابن عمي أبو حنش، فتغير وجه مسلمة وظهر عليه الجزع لموت أخيه وقال: الويل لأبـي حنش لم يقتل أخي إلاَّ طمعًا بأن يبيعني رأسه بمائة من الابل، فقال الرجل: لا يا مسلمة بل قتله طلبًا لثأر أخيه، فغضب مسلمة وهم بأن يفتك بالرجل لولى أن الرجل هرب من مجلسه وتوارى عن الأنظار.

شقيق بعد شقيق:

كان مقتل شرحبيل بن الحارث على يد أخيه مسلمة أول حلقة في سلسلة ثورة القبائل على أولاد الحارث الذين عيّنهم في حياته على قبائل العرب.

وبعد شرحبيل جاء دور حجر بن الحارث الذي كان أميرًا على بني أسد، وكانت لحجر على بني أسد (ضريبة يدفعونها له في كل سنة)،

وذات يوم أرسل جابيه إليهم ليأخذ الضريبة كعادته، فمنعوه ذلك، وضربوا من معه وأَدْمَوهم وطردوهم، فبلغ ذلك حجرًا فغضب واتجه إليهم بجند من بني ربيعة وجند من رجال أخيه مسلمة، ففاجأهم وانقض عليهم وجعل يقتلهم بالعصا وأباح أموالهم، ونفى رؤساءهم، وحبس جماعة من أشرافهم، ثم سارت إليه بنو أسد ودخلوا إليه يستعطفونه، وفيهم الشاعر عبيد بن الأبرص الذي خاطب الأمير بلسانهم: (تقبل أيها الملك ندامة بني أسد على ما جناه بعض سفهائهم، وأرحم النساء والأطفال الذين أجلوا عن أوطانهم، وتاهوا هائمين على وجوههم في كل مكان، فإذا عفوت عفوت كريمًا، وإذا عاقبت عاقبت بحق، فأنت الأمير وهم عبيدك، فأحسن إليهم وأشفق عليهم)، فَرَقَّ قلب حجر عليهم، وأرسل من يردهم إلى منازلهم آمنين.

ثم إن حجرًا: وكان عائدًا من مأتم أبيه إلى بني أسد، نزل في منزله، وقد علم بنو أسد بموت أبيه، فطمعوا فيه، حتى إذا اطمأن ودخل في خيامه المنصوبة له، اجتمعت بنو أسد فيما بينهم، وقالوا: يا بني أسد من يتلقى هذا الرجل منكم فيقتله ويريحنا من حكمه؟ فنهض نوفل بن ربيعة وقال: أنا أكفيكم أمره، فقالوا له: والله ما لذلك أحد غيرك؟ فخرج نوفل في خيله حتى أغار على متاع حجر وخيام رجاله، فقتل من كان فيه وساق الغنائم ثم أقبل حتى أتى قومه، وحين بلغ حجرًا أمرهم أقبل نحوهم فلما توسط بينهم بادروه بالقتال، ولم يلبثوا إلاَّ قليلاً حتى هزموا أصحاب حجر وأسروه وحبسوه، (وفي المثل: الْفَزْعَةُ الردية من بخت العدو).

مقتل سيد بني أسد:

تشاور القوم في قتله، فقال لهم كاهن من كهنتهم، بعد أن حبسوه، ليروا فيه رأيهم (يا قوم لا تعجلوا بقتل الرجل حتى أرى رأي الآلهة)، وانصرف عنهم لينظر لهم في قتله، فلما رأى زعيمهم ما صاروا إليه، خاف أن يتأخروا عن قتله فدعا غلامًا كان حجر قد قتل أباه، وقال له: يا بني: أعندك عزم فتأثر لأبيك وتنال شرف الدهر؟ وإن قومك لن يقتلوك؟ تردد الغلام وخاف عاقبة الأمر، ولكن رئيسهم لم يزل يحمّسه ويحرضه حتى استجاب إليه، فأعطاه حديدة قد سنّها، وقال له: ادخل على حجر في سجنه مع قومك، حتى إذا رأيت الفرصة قد سنحت فاطعنه طعنة قاتلة.

فأخذ الغلام الحديدة وخبّأها في طيات ثيابه، ثم دخل على حجر في قبته التي حبس فيها حتى إذا رأى منه غفلة طعنه طعنة أصابت مقتلاً، ولما أدرك حجر أنه ميت أوصى، ودفع وصيته إلى رجل وقال له، وهو في حالة النزع انطلق إلى أولادي وأخبرهم بمصرعي فمن بكا منهم وأظهر الجزع فانصرف عنه ومن لم يبك ولم يجزع فادفع إليه سلاحي وتاجي ووصيتي، ثم أسلم حجر الروح، فوثب القوم على قاتله فقال: لماذا تقتلونني؟ أليس هو قاتل أبى؟ حر انتقم لنفسه وثائر لأبيه، فتركوه، وأقبل كاهنهم عليهم وقال: يا قوم قتلتموه قبل أن أبين لكم، إنه ملك شهر وذل الدهر أما والله لن تكون لكم حظوة عند الملوك بعده أبدًا، وهكذا لحق الشقيق بشقيقه.

الشاعر الذي يشعر . . هو الذي يأثر :

انطلق الرجل بوصية حجر إلى أولاده فلم يكن منهم إلاَّ حزين، يأخذ التراب ويضعه علـى رأسـه، أو خائف تنهمر الدموع من عينيه، لم يبق هنالك من أولاده إلاَّ أصغرهـم وهـو امرؤ القيس الشاعر، فطلبه، ولكن أين امرىء القيس؟ منذ طـرده أبوه مـن بيته، لأنه التهى عن مشاغل الملك بقول الشعر، والشعر كـانت تأنف منـه الملوك ــ كان يسير في أحياء العرب هائمًا على وجهه، قانعًا بمملكة الشعر التي هي عنده أرفع وأسمى من كل مملكه، ومعه جماعة من أصحابه الذين يأخذون بطريقته في الحياة، فإذا صادف غديرًا أو روضة أو موضع صيد أقام فذبح لمن معه في كل يوم، وخرج إلى الصيد، فتصيّد ثم عاد فأكل وأكلوا معه وشرب وسقاهم، وغنتهم المغنيات، وأطربتهم الساقيات ولا يزال كذلك حتى ينشف ماء الغدير، ثم ينتقل منه إلى غيره وهو لا يفكر في ملك ولا سلطان، لأن تاج الشعر شغله عن تاج أبيه.

وحين أقبل رسول أبيه القتيل: وجده مع نديم له يشرب الخمر ويلاعبه بالنرد، فقال له: قتل حجر، فلم يلتفت امرؤ القيس إلى قوله، وأجفل نديمه ووقف عن اللعب فقال له امرؤ القيس: ويحك اضرب والعب، فاذعن النديم لما أمره به وضرب حتى إذا فرغا من اللعب قال له امرؤ القيس: ما كنت لأفسد عليك لعبك. ثم سأل الرسول عن أمر أبيه كله فأخبره، فقال: ضيعني صغيرًا وحملني دمه كبيرًا لا صحواً اليوم، ولا سكر غدًا، اليوم خمر وغدًا أمر، ثم شرب سبعًا، فلما صحا

من سكره أقسم يمينه ألا يأكل لحمًا ولا يشرب خمرًا ولا يتعطر بطيب، ولا يغسل رأسه حتى يدرك ثأره.

ثم ارتحل حتى نزل على قبائل بكر وتغلّب، وسألهم مساعدته على أخذ ثأره من بني أسد.

لا أمر يغني عن الثائر:

لما علم بنو أسد بما عزم عليه امرؤ القيس بن حجر، أَلّفوا وفدًا من رجالهم وكهولهم، وفيهم قبيصة بن نعيم: وكان رجلاً عاقلاً حكيمًا وانطلقوا إلى امرىء القيس في مضارب قومه. لما علم امرؤ القيس بمجيئهم أمر بإنزالهم في دار الضيافة وتقدم بإكرامهم والإفضال عليهم لأنهم ضيوفه، والضيف يعز على مضيفه ولو كان قاتل أبيه. واحتجب عنهم ثلاثة أيام لا يلقى منهم أحدًا، فسألوا عنه من حضر من رجاله؟ فقالوا: هو في شغل بإخراج ما في خزائن أبيه حجر من سلاح وعدة، فقالوا: اللّهم غفرًا: إنا جئنا في أمر نتناسى به ذكر ما مضى، فبلغوه ذلك عنا، وحين بلغ امرأ القيس ما جاؤوا به خرج عليهم وقد تعمم بعمامة سوداء، وكانت العرب لا تعتم بالسواد إلاّ في الحروب، فلما نظروا إليه قاموا إليه احترامًا، وتقدم إليه زعيم الوفد قبيصة، فقال: إنك في المحل الأرفع والقدر العالي وصاحب المعرفة بأمور الدهر وتصرفاته، بحيث لا تحتاج إلى وعظ واعظ، ولا مشورة مجرب، ولك من شرف نسبك وعلو منزلتك وكرم أصلك في العرب، ما يحملك على العفو عن قومك الذين أذنبوا وندموا، لقد كان لأبيك حجر التاج فوق الجبين الكريم وطيب الشيم، ولو كان يفدي ميت بالأنفس الباقية بعده

لفديناه بكل كريم عزيز، ولكن مضى به طريق لا يرجع إلى الحياة من سلكه. أصغى امرؤ القيس إلى كلام قبيصة وأدرك الغاية التي يريد من وراء ذلك، فقاطعه قائلاً: وماذا تريدون أن أصنع الآن؟ فأجابه قبيصة: وظن أن تسأله هذا تساهلاً منه: نريد أن تختار واحدة من ثلاث: إما أن تختار من أسد أشرفها بيتًا وأعلاها في بناء المكرمات صوتًا، فنقوده إليك، تشفى نفسك بقتله: فقال امرؤ القيس: لقد علمت العرب أنه (لا كفء لأبي في دم، فقال قبيصة: إذًا يقدم لك بنو أسد ما شئت من جمال ونوق فداء لأبيك وهي كثير، فضحك امرؤ القيس ضحكة صفراوية وقال: أمثلي يعتاض بأبيه جملاً أو ناقة فيكتسب بذلك عار الأبد؟

وحين أدرك قبيصة ألا مكان للصلح قال: إذًا نريد منك الهدنة حتى تضع الحوامل من الإبل أولادها، ثم نتهيأ للقتال، ونرفع الرايات، فقال امرؤ القيس: أما الإنظار حتى تضع الحوامل فقد أوجبته الأطفال في بطون أمهاتها ولن أكون لهلاكها سببًا، وستعرفون طلائع خيلنا بعد ذلك، هل تقيمون أم تنصرفون؟ فأجاب قبيصة: بل ننصرف بأسوأ الاختيار، ولعلك تندم على ما اخترته، فقال امرؤ القيس: لا والله لا أندم ورويدًا ينكشف لك الغبار عن فرسان أحبوا الموت طلبًا للكرامة، ولقد كنتُ في غِنيً عن هذا التهديد وأنت وقومك نازلون في ربعي وضيافتي ولكنك قلت فأجبتك.

فقال قبيصة: ما نتوقعه هو فوق ما أردناه... وعاد الوفد خائبًا بعدما رأى عزيمة امرىء القيس على أخذ الثأر لأبيه من بني أسد.

وبعد قليل كانت أرض الجزيرة مسرحًا لحروب متواصلة يتساوى فيها الفريقان، دماء تهدر من أجل رأس حجر بن الحارث.

وأخيرًا.. دور الولد الثالث:

لم يبق من أولاد الحارث إلاَّ مسلمة، وقد حدثته نفسه أن يغزو قبائل نزار ومن يساندها بقبائله من أهل اليمن الذين كان لهم العز والسلطان على كل القبائل، فجمع الجموع وانطلق بها للغزو والانتقام لمقتل أخوته، وبلغ ذلك قبائل نزار، فاجتمع منهم بنو عامر بن صعصعة وبنو وائل من تغلب وبكر، فملّكوا عليهم كليب بن ربيعة ليقاوم بهم الزحف اليمنى، سار بهم كليب ووضع على مقدمته السفاح التغلبي وأمره أن يسبقه إلى جبل (خزاز) وهو: (الواقع وسط صحراء نجد شمال دخنه)، وانضم إلى هؤلاء أنصارهم وإلى هؤلاء أنصارهم، وأوصى كليب صاحب مقدمته: (أقم على الجبل دون أن تشعر أحدًا بقدومك فإذا غشيك العدو فأوقد نارين)، وفعل صاحب مقدمته ذلك، ولبث في مكانه ثلاثة أيام ينتظر قدوم أهل اليمن، وما هي إلاَّ ساعات من الليل حتى ظهرت الطلائع منذرة باحتشاد القوم، فلما رأى صاحب المقدمة ذلك أشعل نارين على رأس الجبل، فشاهد كليب ومن معه النارين، فزحف بجنده حتى أحاط بأعدائه عند الصباح فاقتتلوا قتالاً شديدًا، انتهى لأول مرة لصالح القبائل النزارية وانهزمت جموع اليمن لا تلوى على شيء.

وكان يوم (خزاز) من أعظم أيام العرب في الجاهلية، إذ حققت القبائل النزارية فيه النصر على قبائل اليمن وضربوا نفوذهم وسلطانهم في الجزيرة إلى الأبد، (فإكرامًا لما قام به كليب في ذلك اليوم اجتمعت

عليه الكلمة، وجعلوا له تاج الملك وشرف الرئاسة ما دام حيًا)، أما مسلمة فلم يتردد له اسم بعد ذلك اليوم، وهكذا أمحت مملكة الحارث ابن عمرو، وانطوت ممالك أولاده من بعده، بما ارتكبوه من ظلم للرعية، وتقاطع بينهم والظلم مصرعه وخيم.

الطغيان يرافق السلطان غالبًا:

أصبح كليب بن ربيعة منذ ذلك اليوم أمير قبائل نزار كلها وقد نصبته ملكًا عليها مكافأة له عن ذلك اليوم الذي قضى فيه على نفوذ القبائل اليمنية في وسط الجزيرة العربية إلى الأبد، وحكم كليب في بدء وِلايته بين القوم بالعدل ومشى فيهم بسيرة حسنة، وأطاعه الناس لعدله ودانوا له بالولاء والوفاء، ولكن قاتل الله الحكم فإن له نزوة شريرة، إذا لم يقض عليها صاحبها قضت عليه، لقد كان كليب رئيس عشيرة فأصبح رئيس قبائل، وكان نفوذه لا يتجاوز حدود قبيلته، فأمسى نفوذه يصل إلى حدود بعيدة وبلاد كثيرة، وكأنما نفسه غرها ما وصلت إليه، فدخلها الزهو والغرور وعبثت بها عزة السلطان، فصار يحكم بحكم هواه فالعدل عدله والناس عبيده، فالناس يحتملون منه ذلك خوفًا من سطوته وخضوعًا لعزته.

راح كليب يملك المراعي التي يسقيها ماء السماء لإبله خاصة، ويمنع أي قطيع أن يرعى في هذه المراعي، وأصبح إذا جلس لا يمر أحد بين يديه إجلالاً وخوفًا منه، وفي مجالسه يبقى الناس قيامًا، لا يجلس أحد سواه، ولا يغزو أحد من وراء رزقه إلاَّ بأذنه، ولا يأذن لإبل أحد أن ترد الماء مع إبله، ولا توقد نار مع ناره، ولم يكن بكري

ولا تغلبي يجير رجلاً، ولا يملك بعيرًا أو يحمى حمًا إلاَّ بأمره، وهو إذا أجار أحدًا أجاره على الدهر، فلا يستطيع أحد أن يعتدي على من أجاره، وكانِ إذا قال: (هذه الإبل في جواري)، لا يستطيع أحد أن يطردها من جواره، وكان هو الذي ينزل القوم منازلهم، ويرحلهم فلا ينزلون ولا يرحلون إلاَّ بأمره، وقد بلغ من سطوته وغروره بنفسه وقوته: أنه اتخذ جرو كلب فكان إذا نزل بمكان فيه عشب قذف ذلك الجرو فيه فيعوي فيعلم الناس أن هذا المكان أصبح في حماه فلا يرعى أحد من ذلك العشب إلاَّ بإذنه، وكان يفعل هذا بحياض الماء فلا يردها أحد إلاَّ بإذنه، أو من حدثته نفسه بحرب، ولذلك ضرب به المثل في العز والسلطان، فقيل: (أعز من كليب وائل)، ووصل بغيه إلى أن يحمي أماكن الصيد لنفسه، فيقول: (صيد هذه الناحية وتلك الناحية، في جواري فلا يجرؤ أحد بعد ذلك أن يصيد منه شيئًا. إنها فتنة الملك ونزوة الطغيان في السلطان، جعلت هذا الرجل الذي حكمته القبائل في أمرها إذ توسمت فيه العدل وحب الإحسان أن يغره الملك، فطغى وبغى وزرع في نفوس رعيته البغض والانتقام بدلاً من الحب والسلام.

كليب يجير قنبرة:

مر كليب يومًا بمرعًى فإذا به يجد قنبرة حاضنة بيضها فلما رأته صرصرت وخفقت بجناحيها وصارت تحوم على بيضها حومة الخائف، فقال لها: من ردعك ومن روعك؟ أنت في ذمتي: ثم أنشد:

يـا لـك مـن قنبـرة بمعمـر — لا تـرهبـي خـوفـا ولا تستنكـري
قـد ذهـب الصيـاد عنـك فـابشـري — ورفـع الفـخ إذًا لا تحـذري

خلا لَكِ الجو فبيضي واصفري ونقري ما شئت أن تنقري
فأنت جاري من صروف الحذر إلى بلوغ يومك المقدر

ولكن: يا ليت هذه العاطفة الرقيقة التي أبداها كليب لتلك القنبرة راح يبديها لأولائك الناس الذين أساء إلى جوارهم وأرهقهم خوفًا، وطردهم من منازلهم وحرمهم نعمة الطعام والشراب في منازلهم.

من هو أمنع مني ذمة؟

تزوج كليب: جليلة بنت مرة من قبيلة شيبان البكرية: حيث اشتهرت هذه القبيلة بشجاعتها وسطوتها وكانت جليلة من فضليات النساء وأحاسنهن في عصرها، وكان لأبيها مرة عشرة بنين، وكان جساس أصغرهم، وهو على صغر سنّه قد اشتهر بالشجاعة والإباء، حتى لقّبه قومه: بحامي الجار، ومانع الذمار، وكان قوم كليب وبنو شيبان يقيمون في وطن واحد ليكونوا يدًا واحدةً عند المخاطر.

دخل كليب على زوجته جليلة ذات يوم، فقال لها: أي جليلة هل تعلمين على الأرض أحدًا أمنع مني ذمة وأعظم جوارًا؟ فسكتت جليلة[1]، ثم أعاد عليها السؤال مرة ثانية، فسكتت، فأغضبه سكوتها

---

(١) هذه هي أول شرارة وقعت على حطب نار الفتنة: فلو أن جليلة صانعت زوجها في حالة العزة والسلطان، وقالت: لا أحد أعز منك ولا أمنع: لطفئت تلك الجمرة الملتهبة ولكنها زاعمته فأضرمت نار الفتنة، وفي المثل (لا تزاعم من إذا قال فعل) فما هو حصيلتها إذًا من هذا الاعتزاز بنفسها أمام زوجها: فلتحذر الآن كل امرأة أن تفعل فعلها مع زوجها، ولهذا قال الشاعر:

ومن لم يصانع في أمور كثيرة يضرس بأنياب ويوطىء بمنسم

وأدرك أن في نفسها شيئًا لا تريد أن تبوح به فأعاد عليها السؤال مرة ثالثة، يا جليلة إن سكوتك عن الجواب يزعجني، أصدقيني الخبر هل تعلمين على الأرض أحدًا أمنع مني ذمة؟ فردت جليلة بإباءٍ: نعم: أخي جساس وأصحابه سكت كليب عن مضض ومضت مدة دون أن يفاتحها بالأمر، وهو يعالج في نفسه ألمًا شديدًا لجوابها وتفضيلها أخاها عليه، وهو الذي يرى أنه لا يستطيع أحد أن يقضي أمرًا دونه، وبينما كانت جليلة (تغسل رأسه وتسرّحه ذات يوم)، بادرها بالسؤال: من هو أعز الرجال في قبيلة وائل؟ فقالت بلا تردد: أخواي جساس وهمام، فنزع رأسه من يدها وخرج غاضبًا وفي نفسه أشياء وأشياء، ولا يدري أحد ماذا كان يجول في نفسه من نزوات الشر والانتقام.

وأخيرًا. . بـدأ الشر:

كانت لجساس خالة اسمها البسوس، جاءت زائرة ونزلت على ابن أختها جساس ولبثت مدة في جوار بني مرة، وكان للبسوس ناقة اسمها (سراب) رفيقة حسنة، ومعها فصيل لهاومن عادة هذه الناقة وفصيلها أن يسرحا مع الإبل في حمى كليب، وصادف في ذلك اليوم الذي خرج فيه كليب من بيته غاضبًا لما سمع من قول زوجته جليلة: أن مرّ بإبله وقد انتشرت في المراعي ترعى بأمان، فلفت نظره ناقة غريبة عن نياقه، ترعى مع فصيل لها، فسأل الرعيان: ويحكم ما هذه الناقة؟ ومن صاحبها؟ فقالوا: إنها ناقة البسوس خالة جساس، أخرجوها لترعى مع إبلك، ضحك كليب لهذه المصادفة التي هيأت له الانتقام والرد على جليلة، فأخرج قوسه ورمى فصيل الناقة فقتله، وعاد على

الأثر وفي أذنيه نواح أمه التي كانت تتمرغ على فصيلها وتلعق دمه النازف من جرحه بلسانها، وجاء الخبر بني مرة، فاعتصموا بالسكوت وأغمضوا عيونهم على هذا الاعتداء منعًا للفتنة أن تفرق شمل العشيرة، ثم لقي كليب ابن البسوس، فسأله: ماذا فعل فصيل ناقتكم؟ فقال: قتلته بيدك وأبقيت لنا لبن أمه، وأغمضت بنو مرة عن السؤال المثير مرة أخرى، عاد كليب إلى بيته فوجد جليلة غراقة في الصمت والحزن، فلم يشأ يتركها لحزنها وصمتها، فأعاد عليها السؤال: من هو الأعز في قبيلة وائل؟ فقالت: وهي تحملق في هذا الجاني القاتل: أخواي جساس وهمام، فأضمرها في نفسه، وسكت والألم يحز في صدره، ثم خرج وفي نفسه أشياء وأشياء، حتى بلغ المراعي وألقى نظرة العداوة على ما حوله من الإبل، وفجأة مرت به إبل جساس وفيها ناقة البسوس فأنكر الناقة والتفت إلى رعيانه فقال: ما هذه الناقة الغريبة بين إبلي؟ ومن جرؤ أن يسرحها مع جمالي بلا إذني؟ فأجاب الرعيان: إنها لخالة جساس، فهمهم غاضبًا وقال: هل بلغ من أمر هذا الفتى المغرور بنفسه أن يجير علي ويستبيح حماي بغير إذني؟ ارم ضرعها يا غلام، فأخذ الغلام القوس ورمى ضرع الناقة، فاختلط دمها بلبنها، وولت هائمة على وجهها ولها ضجيج ملأ السهل، حتى بركت بدار صاحبتها البسوس، فخرجت البسوس من بيتها تستطلع الخبر، فإذا الناقة تتخبط وقد ملأت الدار دمًا، فصاحت البسوس: واذلّاه! أما في القوم من يحمي الجار؟..

ومشت في مضارب بني مرة وهي تمزق ثوبها وتحرّض على

الأخذ بثأرها، رآها جساس على هذه الحالة، فأنكرها وسألها: ماذا أصابك يا خالتاه؟ فقالت: ناقتي ناقتي تصاب في دياركم وأنتم خاضعون، فأحب جساس أن يتدارك الأمر ويسترضي خالته، فقال لها: لا عليك يا خالتي اسكتي ولا تفضحينا بالعشيرة، إني أعوضك عن ناقتك ناقة، أعظم منها، فاشتد بها الغضب وأجابت: لا أريد بناقتي بديلاً . . فهدأ جساس من غضبها ووعدها بأن يقدم لها من نوقه عشرًا، ولما كان الليل أنشأت البسوس تردد هذه الأبيات مخاطبة سعدًا أخا جساس وترفع صوتها ليسمع جساس:

أيا سعدُ لا تَغْرُرْ بنفسك وارتحل ... فإني في قوم عن الجار أموات
لعمرك لو أصبحت في دار والدي ... لما ضيم سعد وهو جار لأبياتي
ولكنني أصبحت في دار معشر ... متى يَعْدُوْ فيها الذئب يَعْدُوْ على شاتي

فلمّا سمعها جساس انتفخ صدره غيظًا وثارت في نفسه الكرامة لكبريائه، فالتفت إليها وقال: اسكتي يا خالتي ولا تجزعي إني سأقتل جملاً أعظم من هذه الناقة:

ولكن ما هو هذا الجمل الذي توعد جساس بقتله؟ هل هو جمل حقيقي؟ أم جمل تصوره جساس بنفسه؟

الجمل هو كليب:

ثم دب الشقاق، واشتعلت العداوة في صدور الفريقين بعدما كانوا عشيرة واحدة، وأمرهم واحد، وتفرقت قبائل بكر عن قبائل تغلب، كل هذا لم يعد كليبًا إلى الصواب، ولم يجعله يفتح عينيه على

ما ارتكب من خطأ يوم أساء إلى جوار جماعته، بل لم يزده ذلك إلاّ عنادًا وإمعانًا في قهر خصومه، حتى أخرجهم عن طاعته، وحرك فيهم نخوة الثأر والإنتقام. علم كليب بأن بني بكر مروا على غدير من غدرانه فطاردهم وأبعدهم عنه، وقال: لا يذوقون من مائه قطره، ثم انتقلوا إلى غدير آخر فلحقهم وأبعدهم عنه، وهو يمنعهم ويمنع إبلهم الماء فمضوا لا يدرون أين يتجهون، وقد أحرق الظمأ الحناجر وألهب الأحشاء، حتى ذبل الأطفال عطشًا، وضجت الإبل من الظمأ وأشرف الكل على الهلاك وما زالوا يمضون في سيرهم حتى نزلوا غدير الذنائب، في هضاب نجد، وكليب لا يزال يتتبع آثارهم هو وجنده حتى وافاهم على الغدير، راح كليب يختال على جواده الأشهب وهو لا يترك الغدير وعيناه القاسيتان ترقبان الحشود التي تتلهف إلى الماء ولا تجرؤ على الاقتراب من الغدير، وهو شامخ الرأس متحجّر القلب، ولكن إلى متى تصبر هذه الحشود على الذل والهوان؟ وإلى متى يغتر هذا الجاهل بقوته وعزته؟

في تلك اللحظة... عزم جساس أن يستفيد من فرصة انفراد كليب على الغدير فنادى ابن عمه: عمرو بن الحارث وقال له: اتبعني: إن أمرًا عظيمًا سيقع في هذه الساعة، فسأله ابن عمه: لا أفهم منك يا جساس وما هو هذا الأمر العظيم؟ أشار جساس إلى المكان الذي كان كليب يقف فيه وقال: ألا ترى إلى هذاالشاخص هناك أما تعرفه؟ فقال ابن عمه أعرفه أعرفه جيدًا إنه فارس العرب كليب، فقال جساس: لقد أحسنت الرؤية، إنه غايتنا الآن، فهل أنت على استعداد؟ فأجفل ابن

عمه من هذا التهديد وقال: لا لا يا جساس، لا ترم العشيرة في حرب لا يَدري أحد منتهاها، فقال جساس: وأنت أيضًا يا ابن عمي طاب لك احتمال الذل والهوان؟ لا والله لن ينجو كليب هذه المرة من سيفي، لقد صبرنا واحتملنا، وهذا الظالم لا يزداد إلاَّ بغيًا وطغيانًا، وركض جساس بفرسه ومن ورائه ابن عمه لا يزال يحاول أن يرده عن قصده، حتى أدركا كليبًا وهو لا يزال واقفًا على الغدير، فلما اقترب منه جساس ناداه: كليب، كليب لي كلمة معك فهل أنت سامع؟ أجابه كليب دون أن يلتفت إلى المنادي اعتزازًا بنفسه: إنني سامع ماذا تريد أن تقول؟ فقال جساس: هلا التفت إليّ وسمعت مني؟ فأجابه كليب: إنني سامع ولا حاجة إلى التفاتي إليك، فزاد هذا الاحتقارُ نفسَ جساس حقدًا عليه، وقال: لقد طردت قومنا عن كل غدير وردناه حتى كدت تقتلهم عطشًا، فقال كليب: ما منعناهم من ماء إلاَّ ونحن له شاغلون، قال له جساس: هذا كفعلك بناقة خالتي وفصيلها، فضحك كليب وقال: ألا تزال تتذكر الناقة؟ إني قد نسيت أمرها، ولكني لو كنت وجدت هذه الناقة في غير إبل مرة لاستحللت تلك الإبل بها، إني منعتها أن ترعى في حماي، فهل تمنعني أن أدافع عن حماي؟ فانتفض جساس غضبًا وأشرع رمحه، وكان كليب لا يزال موليه ظهره، دون أن يكلف نفسه الالتفات إليه احتقارًا، وناداه جساس: خذ حذرك إني طاعنك، فلم يزدد كليب إلاَّ عدم اهتمام به، فأعاد جساس النداء خذ حذرك: إني طاعنك ولا أريد أن ينفذ رمحي في ظهرك؟

ولكن كليبًا لم يهتم به ولم يلتفت إليه وقال: إنك يا جساس

أضعف من أن تحمل برمحك على كليب فارس العرب، ثم عطف جساس عليه فرسه فطعنه برمحه طعنة أصابت من ظهره مقتلاً، فتحامل كليب على نفسه، والتفت لأول مرة إليه وأشرع رمحه نحوه ولكن الرمح سقط من يديه، ووقع، كليب عن ظهر جواده، وهو يتخبط بدمائه على الأرض وقال: قتلتني يا جساس، قتلتني يا جساس، ولبث جساس مدة وهو لا يجرؤ على الاقتراب منه حتى إذا رآه دخل في نزع الموت دنا منه، وقال له: هذه هي عاقبة البغي يا كليب، لقد نصحناك فلم تقبل، وأهلكت قومك بظلمك إن هذا الجمل بتلك الناقة، فقال كليب: وماذا ينفع الندم؟ كأني بقومك وقومي يسبحان في بحر من الدم، اسقني من الماء، فقال جساس: أما عرفت قيمة الماء الذي حرمت قومي منه إلاَّ في هذه الساعة، إن الماء الذي منعته عنا هو الذي قتلك الآن، لا ماء عندي، التفت كليب إلى ابن عم جساس وقال: وأنت يا عمرو هل لك أن تغيثني بشربة ماء؟ فنزل إليه عمرو وأتاه بشربة ماء فسقاه ثم أجهز عليه.

ما خرجت ركبتاه إلاَّ لأمر عظيم:

بعد الانتهاء من هذه الملحمة، أمال جساس يده بالفرس وركض نحو قومه وقد بدت ركبتاه فلما رأته أخته خائفًا مضطربًا قالت لأبيها: إن جساسًا أتى كاشفًا ركبتيه، فقال والدها: إذًا والله ما خرجت ركبتاه إلاَّ لأمر عظيم، ونادى جساسًا إليه وقال له: ما وراءك يا بني؟ فقال جساس: ورائي أنني قد طعنت طعنة لَتُشغلن بها شيوخُ قبيلة وائل زمنًا طويلاً، قال أبوه مرة: ويحك وأية طعنة هذه لأمك الويل؟ أقتلت كليبًا؟

فقال جساس: ما قتلته ولكن بغيه قتله، فقال أبوه: إذًا نسلمك إلى أهل كليب، ونريق دمك في صلاح العشيرة والله لبئس ما فعلت، فرقت جماعتك وأطلت حربها بينها وقتلت سيدها، والله لا تجتمع وائل بعدها ولا يقوم لها عماد في العرب، ولقد وددت أنك وإخوتك كنتم متم قبل هذا، هل خَلَّفْتَ إلاَّ الشر والشؤم والحقد في أبناء وائل؟

وكان الخبر قد شاع بين الناس بمقتل كليب، فهاجت النفوس واستعدت السيوف للقراع كل يناصر أهل عشيرته وعصيبته، أقبل قوم مرة عليه وقد علموا بما توعد به ابنه جساس، وأدركوا عزمه على تسليم ابنه لخصومه حتى يراق دمه بدم كليب: فقالوا: يا مرة لا تقل هذا ولا تفعل ما يسيء إلى كرامتنا، فنخذلك وإياه، فأمسك مرة وأدرك أن الخطر أكبر مما يظن وأقبل على ابنه يسأله: لماذا قتلت كليبًا وأنت تعلم ما وراء مقتل كليب؟ فقال جساس: لقد تعدت تغلب ظلمًا علينا بلا جرم ولا ذنب جنيناه وحقرونا في جوارنا ومنعونا الماء وضيقوا علينا أسباب الحياة، وبعد هذا كله هل يلومني لائم على ما أقدمت عليه؟ فأجابه أبوه مرة: لقد وقع القدر ولا مفر، إني سأكون حيث قومي يكونون، باغ صرعه بغيه، والحرب تستباح حين تكون دفاعًا عن النفس والكرامة، أعدوا سيوفكم ورماحكم إني سألبس ثوب الحرب، وأدافع عن قومي بأطراف العوالي والسيوف ثم قال شعرًا:

وأجمل من حياة الذل موت ... وبعض العار لا يمحوه ماحي

حملوا كليبًا إلى داره صريعًا مخضبًا بدمه، وسرعان ما ذاع نبأ قتله في قومه وعشيرته، فأقبلوا ذاهلين واجمين يتساءلون: أقتيل كليب؟

أقتيل كليب، وحين مدوا أبصارهم إلى حيث كان كليب مغطى بردائه الأرجواني أدركوا أن كليبًا سيد العرب قد مات، فوقفوا حول جثته جامدين من الحزن والدهشة كأن على رؤوسهم الطير، حتى إذا صحوا من ذهول الدهشة أقبل بعضهم على بعض يستفسرون من الذي قتل سيد العرب؟ من الذي تجرأ أن ينفذ رمحه في صدره؟ ألم ترتعش يداه رعبًا؟ والتفت أحدهم إلى الجثة وقال: لقد كان القاتل جبانًا قد أصابه برمحه في ظهره ولم يجرأ أن يواجهه بصدره مواجهة الفارس للفارس، وصاح آخر: إن قتل كليب كان مؤامرة خسيسة دبرها أعداؤه له في ليلة غادرة ونفذوها عند مطلع الفجر، ودخل رجل منهم عليهم وهو يرتعش من هول الصدمة وقال: هل علمتم قاتل كليب؟ فقال الجميع: إن القاتل من أبناء مرة ولكن لا ندري أيهم القاتل؟ فقال الرجل: إنه جساس، قد قتله عمدًا انتقامًا لناقة خالته البسوس، فعلى الصياح وهاج القوم غضبًا وهم يقولون: (ويل لجساس) أيقتل سيد العرب بناقة حقيرة؟ هل يظن أن قبيلة تغلب تنام عن دم سيدها المطاع؟ لقد شق جساس لرجاله قبورًا لا يمكن ردمها بعد اليوم، وهتف واحد في القوم: أنقف على جثته كما تقف النساء؟ دعوا النساء وحدهن يمزقن ثيابهن وينشرن شعورهن ويلطمن خدودهن، وأما أنتم فانطلقوا إلى بيوتكم والبسوا السلاح وقلقلوا السيوف في الأغماد، إن كليبًا لن يموت ما دام فينا رجل يضرب وسيف يقرع.

وترك الرجال جثة كليب بين أيدي النساء وانطلقوا ليجمعوا أمرهم بما يحقق ثأرهم.

قاتلة.. مقتولة:

واجتمع نساء الحي للمأتم، اشتركت فيه كل امرأة تغلبية، وعلى رأس كليب اخته تبكي أخاها بشعر يفيض حزنًا ولوعة، وكان إلى جانبها زوجة كليب ــ جليلة بنت مرة وقد تحجّر الدمع في مآقيها، وهي تتصفح الوجوه ذاهلة وعيون النساء إليها شاخصة، إنها ابنة مرة وأخت جساس الذي قتل زوجها فمن ذا تبكي؟ وعلى من تخاف؟ وفجأة قالت إحدى النساء لأخت كليب أتتحملين النظر إلى هذه المرأة الشامتة بنا؟ ألا ترين على وجهها ملامح أخيها القاتل؟ رحليها عن مأتمك فإن قيامها فيه شماتة وعار علينا عند العرب، فالتفتت أخت كليب إلى جليلة، ودفعتها عن نعش كليب وقالت: اخرجي عن مأتمنا فأنت أخت من ثأرنا عنده وشقيقة قاتلنا فنهضت جليلة وهي تجر أعطافها وتنظر إلى من حولها نظرة احتقار، فقالت لها أخت كليب: رحلت المعتدي، وفراق الشامت ويل غدا لآل مرة من الكرة بعد الكرة، فأجابتها جليلة: هوّني عليك يا أختاه، كيف تشمت الحرة بخراب بيتها وترقب ثأرها؟ أسعد الله أختي وعفا عنها أفلا قالت: (نفرت الحياء وخوف الاعتداء)، وانطلقت من عندهم حائرة ذليلة[1] وهي تنشد هذه الأبيات الحزينة:

يــا ابنــة الأقــوام إن شئــت فــلا ... تعجلـي بــاللـوم حتـى تسـألـي
فــإذا أنـــت تبينـــت الـــذي ... يـوجـب اللـوم فلـومـي واعـذلـي
جـل عنـدي فعـل جسـاس فيـا ... حسـرتـي عمـا انجلـت أو تنجلـي

---

(١) وهي السبب في ذلك: بما تطاولت على زوجها كليب حتى أثارت في نفسه الحقد.

فعـل جسـاس علـى حبـي لـه ... قـاطـع ظهـري ومـدن أجلـي
يـا قتيـلا قَـوَّض الـدهـر بـه ... سَقْفَـا بيتـيَ جميعـا مـن عـل
هَـدَّم البيـت الـذي استحـدثتـه ... وانثنـى فـي هـدم بيتـي الأول
يـا نسـائـي دونكـن اليـوم قـد ... خصنـي الـدهـر بـرزء معضـل
خصنـي قتـل كليـب بلظـىً ... مـن ورائـي ولظـىً مستقبلـي
ليـس مـن يبكـي ليـوميـن كمـن ... إنمـا يبكـي ليـوم ينجلـي
إننـي قـاتلـة مقتـولـة ... ولعـل الله أن يـرتـاح لـي

فقد حليل . . وقتل أخ بعد قليل:

تركت جليلة مضارب زوجها القتيل وفي نفسها حسرة على أن القوم أرغموها على الخروج دون أن تستطيع مرافقة نعش كليب إلى حفرته ليغيب عنها إلى الأبد، وأقبلت على مضارب أبيها مرة، فإذا المضارب تعج بأصوات الرجال وصهيل الخيل، ورغاء الإبل، وكادت لا تدنوا من بيت إلاّ تسمع صليل السيوف وقعقعة الرماح، فقالت بنفسها: إن الأمر ليس بهزل، ماذا جنى أخي بجهله على بني قومه[1]؟

ولمّا دخلت على أبيها غلب عليها البكاء، فأمسك بها أبوها وهدأ من حزنها وسألها: ما ورائك يا جليلة؟ فقالت حزن الأبد وحسرة لا تنفد، فقد حليل، وقتل أخ بعد قليل، وبين هذين غرس الأحقاد، وتفتت الأكباد، فاضطرب مرة قليلاً، ثم أقبل عليها يسألها: ألا يمنع ذلك كرمُ الصفح وإرضاء القوم بما ندفع لهم من دية؟ فهزت جليلة

(١) قلت: بل أنت الجانية على الجميع: بتطاولكِ على زوجكِ فأوقدتي نار الإحنة في الصدور. =

رأسها وهي تستخف بما قال والدها وقالت: لا تخدعن نفسك بهذه الأحلام الكاذبة، أبالجمال تريد أن تشتري من بني تغلب دم سيدها؟ هيهات هيهات.. فهدّأ مرة من مخاوف ابنته وقال لها: إذا لم ينزلوا على صلحنا فإننا أهل سيوف ورماح لا نستوخم الموت حين يدعونا الموت، لقد عشنا كرامًا ونموت كرامًا.

همة أخيك أضعف من ذلك:

وكان لكليب شقيق سار في الحياة غير سيرة أخيه، قد ترك أرض القبيلة وعاش متنقلاً من غدير إلى غدير، ومن بقعة إلى بقعة، يصحبه فتية من أصحابه يقضون أيامهم في الشرب واللهو والطرب، هذا الشقيق هو المعروف باسم (المهلهل) لأنه أول من هلهل الشعر، ووسع القول فيه: كان المهلهل يوم قتل أخوه على الغدير يشرب الخمر، ومعه همام بن مرة صديقه الحبيب يلازمه وينادمه على الشراب، وقد بلغ من صداقتهما أنهما تعاقدا على ألا ينفصل أحدهما عن الآخر، ولا يكتم عنه شيئًا، وإذ هما ومن معهما كعادتهما لا يعلمون أي حدث عظيم أصاب القبيلة، مر جساس بهم يركض به فرسه مخرجًا فخذيه دون أن يقف فقال همام بنفسه: إن لأخي جساس أمرًا، والله ما رأيته قبل اليوم كاشفًا فخذيه قط في ركض، ولم يلبث إلاَّ قليلاً حتى مرت به جارية من جواري أبيه جاءت لتراه فانفردت به الجارية وقالت له: يا همام إن جساسًا قتل كليب، وإن أباك قد ارتحل مع قومه إلى ديار مأمونة، وكل قبيلة تستعد للقتال، فانج بنفسك قبل أن يعلم المهلهل بالأمر فيريق دمك بدم أخيه.

اضطرب همام لهول الصدمة، وما كان جساس إلاَّ أخاه، وما كان المهلهل إلاَّ صديقه، فأخذ فرسه وربطه إلى خيمته وعاد إلى المهلهل الذي كان غارقًا في نشوة السكر، وحين رأى ملامح همام تغيرت بعد عودته سأله: ما شأن الجارية والفرس؟ وما بالك مضطربًا؟ فقال همام اشرب ولا تهتم إني سمعت خبرًا كاذبًا لم أصدقه، فقال المهلهل: وماذاك الخبر؟ فقال همام: زعمت الجارية أن جساسًا أخي قتل كليبًا أخاك، فضحك وقال: همة أخيك أضعف من ذلك، وسكت المهلهل. ثم أقبل الإثنان على شرابهما كأن لم يكن هنالك شيء حدث، والمهلهل يشرب شرب الآمن وهمام يشرب شرب الخائف، حتى إذا غلب السُّكر على المهلهل، جعل يهذي ويقول: دع عنك يا همام هذا الخبر الكاذب واشرب معي: لا صحو اليوم، ولا سكر غدًا، إن يطلع الصبح المنير ويصدق الخبر الخطير، فالويل لقبيلة بكر من غاراتي. أدرك همام بأن الأمر لا بد أن ينتهي إلى هذه النهاية المشؤومة، ولكنه فضل البقاء إلى جانب صديقه المهلهل حتى لا يثير الشكوك في نفسه، وانتظر حتى صرع السكر المهلهل، وغاب عن وعيه، فانسل بخفاء والتحق بقومه من بني شيبان، فإذا بالقوم قد هدموا خيامهم وجمعوا خيلهم وإبلهم وارتحلوا إلى مكان بعيد.

إن البكاء سلاح الضعيف:

رجع المهلهل بعد سكره إلى الحي وتفقد صديقه همامًا فلم يجده فأيقن عندئذٍ أن الخبر صادق، وأن أخاه قتيل، ولما بلغ الحي رأى قومه يعقرون خيولهم، ويكسرون رماحهم وسيوفهم حزنًا على قتل سيدهم،

فهاله ما يصنعون فصرخ بهم: ويحكم ما هذا الذي دهاكم؟ فقالوا: أما ترى إلى كليب مدرجًا بأكفانه؟ صمت المهلهل من هول المفاجأة وكاد يقع على الأرض لولا أن تماسك، وغالب دمعة كادت تنحدر على خده، ثم أقبل على جثمان أخيه يقبل وجهه الشاحب ويلثم عينيه المتحجرتين، ثم نهض والتفت إلى قومه وقال: لقد ذهبتم شر مذهب كيف تعقرون خيولكم حين تحتاجون إليها؟ وكيف تكسرون سلاحكم حين تفقرون إليه؟ على أية خيل تقتحمون الحرب وبأية سيوف تستعدون للضرب؟ كفّوا عن هذا واتركوا النحيب والعويل واستعدوا ليوم طويل. فانتهى القوم عن عقر خيولهم، وتحطيم سيوفهم يختبئونها لذلك اليوم الثقيل، وخلال ذلك سمع المهلهل نحيب النساء وبكاءهن وراء الستور فرجع إلى النساء ونهاهن عن البكاء وقال: استبقين للبكاء عيونًا تبكي إلى آخر الأبد، إن البكاء صلاح الضعيف يلجأ إليه من يخشى سطوة القتال.

قَسَم على الدم:

لمّا أصبح القوم حملوا نعش سيدهم إلى مدفنه وهم يحيطون نعشه بالسيوف والرماح، فلما دفنوه طرحوا سلاحهم على ترابه وأقسموا هذا القسم: لتشهدن هذه السيوف بأن لا تعود إلى أغمادها قبل أن ندرك ثأرنا من قاتلي سيد العرب، ثم قام المهلهل على قبر أخيه يرثيه ويقول:

أهــاج قــذاة عينــي الادكــار	هــدوءًا فــالــدمــوع لهــا انهمــار
وصــار الليــل مشتمــلاً علينــا	كــأن الليــل ليــس لــه نهــار
وبــت أراقــب الجــوزاء حتــى	تقــارب مــن أوائلهــا انحــدار
أصــرف مقلتــي فــي إثْــرِ قــوم	تبــاينــت البــلاد بهــم فغــاروا

وأبكـــي والنجـــوم مطلعـــات كــأن لــم تحــوهــا عنــي البحــار
علـى مـن لـو نعيـت وكـان حيـا لقـــاد الخيــل يحجبهـــا الغبـــار
دعـوتـك يـا كليـب فلـم تجبنـي وكيـــف يجيبنـــي البلـــد القفـــار
أجبنـــي يـــا كليـــب خـــلاك ذم لقـــد فجعـــت بفـــارسهـــا نـــزار
سقـاك الغيـث إنـك كنـت غيثًـا ويســـرًا حيـــن يلتمـــس اليســـار
وأنـك كنـت تحلـم عـن رجـال وتعفـــو عنهـــم ولـــك اقتـــدار
وتمنـــع أن يمسهـــم لســـان مخـــافـــة مـــن يجيـــر ولا يجـــار
كـأنـي إذ نعـى النـاعـي كليبًـا تطـــايـــر بيـــن جنبـــي الشـــرار
ســألــت الحــي أيــن دفنتمــوه فقـــالـــوا لـــي بسفـــح الحـــي دار
فســرت إليــه مــن بلــدي حثيثًــا وطـــار النـــوم وامتنـــع القـــرار
أتغــدو يــا كليــب معــي إذا مــا جبـــان القـــوم انجـــاه الفـــرار؟
أقـــول لتغلـــب والعـــز فيهـــا أثيـــروهـــا لـــذلكـــم انتصـــار
خـذ العهـد الأكيـد علـيّ عمـري بتـركـيَ كـل مـا حـوت الـديـار
وهجريَ الغانيات وشرب كأس ولبســـــي جبـــــة لا تستعـــــار
ولسـت بخـالـع سيفـي ورمحـي إلـــى أن يخلـــع الليـــلَ النهـــار
وإلا أن تبيـــد رجـــال بكـــر فـــلا يبقـــى لهـــا أبـــدًا أثـــار

تراخى . . ثـم اشـتـد :

ما زال المهلهل يبكي أخاه ويندبه ويرثيه، وهو يكتفي بالتهديد لبني مرة دون أن يباشر القتال، حتى يئس قومه منه وقالوا: إن المهلهل ليس بالرجل الذي يدرك ثأر أخيه، إنه زير نساء وصديق خمره وحليف لهو وطرب، لقد ضاع كليب عند أخيه المتخاذل.

ولما رأى بنو بكر أن التهديد لا يتعدى الكلام سخروا منه ومن شعره، كما أن قومه لما رأوا قعوده عن القتال فكروا في أن يرجعوا إلى ديارهم لأن الحرب غير واقعة أبدًا، بلغ ذلك المهلهل: فَرَنَّ في نفسه صوت ذلك العهد الذي أقسم به على قبر أخيه، فانتبه للحرب وشمر عن ذراعيه، وجمع أطراف قومه، ثم جز شعره، وقصر ثوبه، وآلى على نفسه ألا يهتم بلهو ولا يشم طيبًا ولا يشرب خمرًا، ولا يدهن بدهن حتى يقتل بكل عضو من أعضاء كليب رجلاً من رجال بني بكر، ومن جديد، أخذ بنو تغلب يشحذون سيوفهم ويصقلون رماحهم استعدادًا ليوم رهيب. (انتهى).

* * *

إجمالُ وصفِ أحوال الأوّلين

هي أحوال بسيطة من كل ناحية، وتَعرف ذلك باستقراءه في ثنايا مواضيع هذا الكتاب، فهي أحوال مطلقة ليس فيها التزامات وارتباطات غالباً، إنما يعيشون كلٌّ يأخذ لنفسه بنفسه، لكن على العرف والعادة، وأعمال يدوية، وإنتاجات محلية.

فأكثر الناس في القرى والأطراف والبادية، فأهل المدن أقل.

وجملة قوتهم هو: التمر والعيش (القمح) بأنواعه، وإنتاجها بالنخل والزرع، وسقيها على النواضح، وعلف النواضح من المزرعة ومن العشب وشجر البر، فعمل المزرعة بأيديهم، وقد يتساعدون على بعضه.

وماء الشرب يستقونه من البئر بأيديهم (بالقدر أو القربة) والقربة هي جلد الأضحية ونحوها، يدبغونه ويخرزونه بأيديهم، وغالب البلدان ليس فيها ماء عذب للشرب، إذ هو من سطح الأرض، ولكنهم يتطلبون أحسن ما يجدون في العذوبة ولو هو أبعد.

ويخيطون ثيابهم بأيديهم، ويرقعونها إذا تشققت أو تخرقت، وعليه قول الشاعر:

نـرفـي خمـال الجـار لـو داس زَلّـهْ   كما ترفى البيض العذارى ثيابها

ويلبسون بعضها فوق بعض يرادفونها ويفرحون به، بل يتشرفون بذلك يعدونه من الْجِدَهْ والغناة.

ويطحنون العيش (القمح) وغيره بالرحا بأيديهم، ويأكلون البقل (الأقط) مع التمر، ويخمرونه بالماء يمرسونه ويشربونه يعوضهم عن اللبن، أو أحسن لبعض الأجسام. والحطب من البَر أو الأثل والنخل، بأيديهم، ويحملونه على رؤوسهم (على وِقَايَةٍ على الرأس) أو على البعير والحمار. وحفر البئر وبناء البيت ونحوه من الأعمال: يتساعدون عليه، هذا يعمل مع هذا، وهذا يعمل مع هذا، وإذا احتاجوا شيئًا أخذوه من بعضهم معاوضة بشيء آخر، لهذا لا يحتاجون إنفاق الدراهم إلاَّ نادرًا في أشياء خاصة: إلاَّ أهل المدن لا بد أن يشتروا حاجاتهم بدراهم.

وكذلك بيوت الشعر للبادية من الصوف، يغزلونه وينطونه بأيديهم، وكانوا يبنون بيوتهم من الطين: والطين عازل ما يحمل الحرارة ولا البرودة، فلا يحسون بالحرارة بالصيف ولا البرودة بالشتاء، كما توجد الآن في البيوت المسلح.

والمسجد يبنونه بالطين، ويجعلونه دورين، فالدور الأسفل يحفرون له بالأرض، يسمونها خلوة، فهي دافئة بالشتاء باردة بالصيف، يصلون فيها الظهر بالصيف، وينام بعضهم فيها القائلة، ويصلون فيها أوقات الشتاء كله، يرتاحون فيها، ويجعلون فناءه في مؤخره (الحائش) يسمونه سرحه، لأجل تكون باردة وقت الحر، (لأمرين)، أولاً: أنه يَظْفِى عليها ظِلال المسجد من العصر، ثانيًا: أن فَوْحَ نسيم الهوى دائمًا

يكون من جهة الشمال والشرق، لهذا تكون بادة، يصلون فيها أوقات الليل وقت الحر، وينام بعضهم فيها الليل، وأرضه تراب طبيعي، فيتوسد زبرة من الرمل.

وماء الشرب يُبَرِّدونه بالقربة: يخيطون عليها شيئًا من الْخَيْش يسمونها إشْمالة، تمسك عليها الرطوبة للبرودة.

ويوقدون النار لحاجاتهم وسط البيت، من الحطب، ويظهر لها دخان يملأ البيت، فلا يشكل عليهم قد اعتادوا ذلك، فتجد وسط البيت أسودًا من إيقاد النار، صيفًا وشتاءً.

ويقعدون بالليل بدون سراج غالبًا، إنما يوقدون نارًا أو سراجًا عند عملِ حاجة. والنشيط منهم ينصب له عريشًا من الخشب وسعف النخل في جانب البيت، أو تحت النخل بالمزرعة، يستظلون به أوقات الحر.

والمرأة في البيت ليس لها مشاوير ولا ظروف خارج البيت، فقد يمضي عليها أكثر من سنة لا تخرج ولا لزيارة أهلها، إذا كانوا غير قريب منها، إلاَّ إذا كانت من أهل القرى والأعمال، أو فقيرة ليس لها قيِّم يكفيها المؤونة: فتخرج لطلب المعيشة كغيرها.

وكانت المرأة تحترم الرجل وتهابه وتحافظ على أمره: (كتواضعها لأمه وإكرامها من أجله)، وهذا شيء متفق عليه عندهم، لا يحتاجون فيه توجيه. وكانوا تغلب عليهم القناعة وخفة مؤونة النفس، فكان بعضهم إذا تحصل على كفاية أهله يومهم قعد للراحة، وقال: عندنا عشا اليوم، وباكر على الله، فأنا شاهدتهم كذلك، والنعيم في راحة البال.

وليس هناك اتصالات سريعة بين البلدان، والأمراء، والحكام، والدول، إلاَّ مُكاتباتٌ بالبريدات على الإبل ونحوها.

وكان الحاكم: إذا تحصل على المجرم المخرب، نَفَّذَ فيه الحكم بالإعدام فورًا، كما في المثل: اقطع رأس يموت خبر، والمثل الآخر: رأس تقطعه ما يجيك فزاع، وأخذًا بقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ الآية. خلاف ما يفعله بعض الدول: في سَجْن المجرم بدون إعدام، فربما تخلص من السجن وعاد لإجرامه أو أشد، وقد تُنَفَّذ إجراماته وهو في السجن، كما في قصة الزناتي وابنته الصفيرا: في سَجْنِهِ بَنِي هِلالٍ (أبا زَيدٍ وَرِفَاقِهِ) حتى آل أمرهم إلى أن حاربوه وقتلوه وسلبوا ملكه. (فلو أنه قتلهم حين قبض عليهم في أول الأمر: لمَاتَ أمرهم ومشاكلهم).

وكذلك قصة شايع الحافي مع ابن عريعر، نُفِّذَتْ مكيدةٌ من أجله وهو في السجن، والقصص غيرها كثير، قديم وحديث، كلٌّ يعرف ذلك في سائر حكام العرب، وهو القضي على المجرم فورًا (لتموت مشاكله ويرتدع أمثاله). ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٧٩﴾. وحسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله.

وهنا مسألتين لم تكن توجد هنا، وكانت العرب تأنف منها، وكنا في القديم نسمع بها في الأمصار، فكنا نُهَجِّن أخلاقهم وَنَقْلاهم من أجلها، وهي «الرشوة، ونوم الصفرة»، لأن الناس هنا كانوا ينامون

الليل من أوله، وينتشرون الصباح المبكر لطلب المعيشة، فلم يكن من شأنهم نوم الصبح. قال الشاعر العربـي:

فـذاك كمثـل الكلـب يسهـر ليلـه   فإن لاحَ صُبْحٌ فهو وَسْنانُ ناعِسُ

أما الرشوة ومثلها الواسطة، فهي تنافي العدل والمرؤة، ومعلوم أن الذي يأخذ الرشوة أو يستجيب للواسطة: فلا بد أن يجضع الميزان مع صاحبها، ولم يجعل الناس في الهوى عنده سواء، ألا يذكر قول الله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١﴾، وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ۝١٤﴾. فويلٌ للظالم من المظلوم، ثم ويلٌ للظالم من المظلوم.

وكنا إذا كنا في البر وقت القائلة، ولم نجد ظِلاًّ ننام فيه، حفرنا دِحْمُولاً تحت شجرة ونَمْنا فيه، أو أقبل علينا سحاب مخيف: حفرنا زِرْبًا تحت شجرة، كما يحفر السَّبُع ولجأنا فيه عن خطر السحاب والبَرَد.

أما العمل بالشمس والقائلة فلا يشكل علينا، قد اعتدنا ذلك. والجسم يَعْرَقُ فيكتسب برودةً تقابل الحر. فسبحان الله الحكيم في خلقه.

هناك: رجل طلب من رجل أن يخطب له امرأة؟ فقال الموصَى:

وين أنت يوم البيض تشرىٰ وتنباع   يـوم منبـوزة الأوْراك بِـامْحَمَّـدِيِّـهْ

فقال الموصِيْ:

هـذاك يـوم الْنـاس كلهـا أجيـاع   وِدِّي بِمِـرْصـاعٍ ولا عَشْـوِجِيِّـهْ

(فأنتم اليوم: احمدوا الله على هذه النعم، وقيدوها بالشكر).

وكانوا لا يرغبون أن يسكن الرجل وزوجته وحدهما، بل يبقى هو وزوجته عند أهله، والصبر لظروفهم، حتى يكون ذو عيال، إن خرج لبعض الظروف، لأن الشيطان يتسلط على الوَحْداني بالوساوِس وضيق الصدر والإرادات السيئة، وقلة البركة. أما الجماعة المجتمعون فإن الشيطان لا يستطيعهم. (فالاجتماع عِصْمة وبركة، والتَّوَحُّدُ مَظْيَعَة).

وكانوا يُصلحون الحبال من ناتج الوطن (من ليف النخل، وعذوق النخل (العراجد)، بعد يبسه يخمرونه بالماء جيدًا ثم يضربونه بالكابون على وجه حجر أملس فيتفتت سرائح، فيفتلونه بأيديهم.

كان رجلان يعملان حبالاً جميعًا: هذا يَفْتِل، وهذا يَبْسِلْ، يعني: يصلح له البسائل، وهي وحدات الفَتِل، فَتَراهَنا أَيُّهما أسرع (الفاتِل، أو الباسِل) فجعل هذا يفتل بسرعة، وهذا يصلح له البسائل بسرعة، ولكن الباسِل لم يأخذ اللَّيْ على الفاتِل، فلم يُوجِدْ زيادةَ بسائلٍ على الطلب، بل قارب أن يغلبه الفاتل. وكان للباسل أخت هنا حوله، قد علمت بِرهانِهما، وتطالع سَيْرَ أخيها في عمله، وأنه قارب أن يُغْلَبَ، وكانت ذكية حازمة، فتطلعت لأخيها تجاه وجهه، وحين رفع طرفه أبصرها، فأومئت له بجديلتها، تعني: (أَطِلْ البسائل مثل جديلتي هذه، لأجل تغلبه) لأن الطوال تعوِّقه، ففهم إشارتها فجعل يطيل البسائل فغلب خصمه.

ويعملون حبالاً أيضًا من الصوف والوبر، ومن خُوصِ النخل وغيره.

وصِفَة فَتْلِ الحبل: حيث يكون بسائل (سرائح) طوال: الواحدة

نحو شبر، فيجمع طرفي البسيلتين لأول مرة، يمسكها بأصبع رجله، ثم يمسك البسيلتين بكفيه كل واحدة جنب الأخرى، ويدرج كفه الأيسر على كفه الأيمن على البسيلتين على قُدّام، تدور كل واحدة وحدها تحتكم، ثم يمسك الأمامية بإبهام كفه الأيسر على كفها، ويمسك الأخرى بإبهام كفه الأيمن على كفها، فيأتي بالأمامية إلى خلف بكفه الأيسر الأعلى، والخلفية إلى أمام بكفه الأيمن الأسفل، فتكون الأمامية هي الخلفية والخلفية هي الأمامية بنفس الحركة السريعة، فيتكوَّن تراكب في أسفلها، يطأ عليه برجله، ثم يبسط كفيه أيضًا على البسيلتين ويدرجها مثل الأول، ثم يمسك الأمامية باليسرى ويأتي بها إلى خلف، والخلفيَّة باليمنى إلى أمام، مع إحكام كل واحدة بنفسها، فيتكوَّن تراكب تاني، ثم ثالث وهكذا حتى تُقارِبْ إحدى البسائل الانتهاء، فيأخذ بسيلة جديدة فيضع طرفها الأسفل عَلى رأس البسيلة الأولى يُمَكِّنْها منها شيئًا، ويبرم عليهن كفيه مثل عمله الأول. ثم يأخذ بسيلة ويصل بها الثانية يبرمها معها، وهكذا، وما تم إبرامه من الحبل دفعه من تحت قدم رجله خلفه، وهكذا، حتى يتكوَّن منه حبلاً طويلاً كيفما شاء طولاً، وسمكه نحو الإصبع أو أزيد أو أقل.

ثم يَلُفُّون عليه شيئًا من القماش: بعد الفتل. (فالثوب السَّمِل يُشَرِّحونه سرائح، يلفونها عليه، واحدة بعد الأخرى، من أوله إلى آخره، لفًا لطيفًا لائقًا، لأجل يكون وقاية وصيانة له في الاستعمال، مثل الزيت للحديد. ثم يقومون بإبرامه مكرّرًا دبلاً: فهذا الحبل المفتول الملفوف قد يكون طوله عشرون مترًا، مثلاً. فيجتمع ثلاثة رجال،

يمدونه مَثْنيًا، يمسك أحدهم الثِّنْيَةَ، يطأ عليها برجله، ويمسك كل واحد طرفًا منه بِصَفٍّ بعضهما، عاقدًا برأسه عودًا نحو شبر يمسكه ويبرمه به، ويكون أحد الطرفين أطول بنحو الثلث. فهذا الذي بيده الأقل يلويه على الطويل دورات متتابعة، والذي بيده الثِّنْيَةُ يرصف اللِّيّات إلى بعضها من مبدأه، وكلما رصف اللِّيّات دفعه خلفه من تحت رجله حبلاً خالصًا، وذاك دائمًا يبرم ويلوى ويقرب، وصاحب الطرف الطويل يبرم ويقرب فقط، حتى ينتهى الثلثان ثم يمدونه أيضًا، يمسكه أحدهم، ويلوون عليه الثلث الأخير. فيتكوّن حبلاً، مثلّثًا، متينًا، مبرمًا، طويلاً، قويًّا، يستعملونه للسواني، وللحمل على البعير، ومتح الماء بالدلو من البئر، وحفر البئر وغيره.

أما الكابون: فهو قطعة من خشبة، بطول شبر، وعرض نصفه، يخرقونه بالعرض ويدخلون به نِصابًا أقل من نِصاب المسحاة، يدقون به كثيرًا من حاجاتهم: كدق السنبل، والعذوق حبالاً، وغيره.

وكانوا يجمعون نَوَى التمر، ويباع بقيمة (علفًا للمواشي) لكن بعد تخميره بالماء عدة أيام وغليه على النار. أو تكسيره وتخميره فقط، فهو نفّاع جدًّا: للإبل والبقر والغنم، يسمونه عَلُوقًا. (انتهى).

* * *

استغاثة مزارع فقير

حين كان زرَّاعًا في إحدى ضواحي البلد، وكان محله على طريق عام تتطرقه الأضياف ليلاً ونهارًا، وكانت سنةً مجدبةً قد تأخر عنهم المطر بحكمة الله تعالى، فأنهكه الفقر وهزلت بعارينه السواني، فسقطت إحداهن هزلاً، ثم سقطت الأخرى، ولم يجد ما يُقرىء به الأضياف، لذا بلغ به الجَهْدُ مبلغًا، وضاقت عليه الحال، فجمع أهله وَبَرَزَ بهم يستغيث حسب معرفته، فصلّى ركعتين ثم دعا: وهم يُؤمِّنون، فقال:

يـــا ربنـــا يـــا عـــالـــى ... يـــا راحـــم الأحـــوال
عجـــل لنـــا بسيلـــه ... كـــل ينـــام بليلـــه
مـــن مُـــذْلِهِـــمٍّ نـــاشـــى ... يجـــي شعيبـــه مـــاشـــي
تـــرعـــا بـــه الأدبـــاش ... واللـــي ردي حيلـــه
إبـــا عِـــرْنـــا لـــه جَضَّـــهْ ... ومـــن الهـــزل مِـــرْتَضَّـــهْ
والعـــامـــل كِبـــر حَضّـــه ... يقـــول يـــا مَـــنْ هـــي لـــه
عيـــالنـــا جَـــزَّوْنـــا ... وعمّـــالنـــا مَلُّـــونـــا
واضيـــوفنـــا ضـــامَـــونـــا ... وديـنـــي مـــن يشيلـــه

إلى آخر دعائه، فعجب الله له فأنزل عليهم المطر، فما غربت شمس يومهم إلاّ والشعيب قد سقى زرعهم، وذهب عنهم الفقر بفضل الله سبحانه.

وقال آخر:

تجـامَعَـنْ علـى ازْرَيْعِـي جُـرْذِي وفـأرِه
مْحَشْحَـثٍ بِفـامِهِـنْ مـا يَعْتَـرِضْ بـالجحـارِه
قلـت يـا شَيْنِـهْ هـذا رَاهِنُـهْ نـاس يبـونـه تجـاره
قـالـت أنـت خِبِـل تبغـى لـك زرع بَلَيّـا خسـاره
قلت عطاكِ الصَّقـهْ مـا تسمعين سَوانِيِّـيْ وقت السحـاره
قـالت الـزرع يبغـى لـه حَـوّاشٍ: علـى نـاقـة وحمـاره
قلـت هـذاي اسقيـه بليلـه مـع نهـاره
قـالـت أنـت مـالـك عـويـن وبعـت الحمـاره.

(انتهى).

* * *

نصف حمله رمل

قال الشافعي رحمه الله:

فليس ينقص الرزق التأنّي ولا يزيد في الرزق العناء

قيل: خرج رجل من ضواحي البلد، راكبًا جمله، قاصدًا البر المسمى (البطين شمالي القصيم)، قبل وجود المزارع فيه، والرجل يريد يحتطب حطبًا أو يعشب علفًا يحمله على بعيره يبيعه في السوق، يتطلب لقمة العيش لأهله، وفي طريقه اتفق برجل عنزي من بادية القبائل الشمالية، خارجًا من بريدة قد حمل على بعيره حمل طعام في كيسين كبار، وقد أثقل الجمل، والرجل يمشي على رجليه. فالرجل الحضري سأل الأعرابي: بكم اشتريت حمل العيش؟ فقال الأعرابي: إنه عِدْلَةٌ واحدة، فقال: والثانية ما هو؟ فقال: إن الثانية (رمل قد عادلت بها العيش على جنب الجمل)، فنزل الرجل الحضري عن جمله بسرعة، وأناخ جمل الأعرابي، وفك عنه الحمل الأكياس، فأفرغ الكيس الذي فيه الرمل بالأرض، ونفضه من التراب، ثم أفرغ فيه نصف الكيس الثاني العيش، ثم حمله على جمل الأعرابي، وقال له: إركب مع حملك، ففرح الأعرابي وأعجبته فطنة الرجل، لكن أحب أن يعرف مقدار محصول الرجل من المال بسبب هذا الذكاء، فسأله: [بالله يا

رجل وش عندك من المال؟] فقال الحضري: ليس عندي غير هذا الجمل الذي أنا راكبه، فتشاءم الأعرابي بهذا الذكاء، وقال: أنا يا خوي حلالي والله ما تشوف طرفه من كثرته، ولكن رجع رملي في مكانه، فقال الحضري: اتركه هذه المرَّة حيث أننا انتهينا منه. فقال: والله ما يثور (يقوم) بعيري إلاَّ رمله عليه، فرجع الرجل الحضري يعبىء الرمل ويحمله في مكانه.

ثم إن الرجل الحضري سأل الأعرابي ما اسمك؟ فقال: (اسمي تيس) فتاقت نفس الرجل الحضري إلى وفرة الرزق مثل هذا الأعرابي البديهي، فدعا ربه قال:

يـا أللّـه إن كنـتَ حَجَّبـتَ رزقـي مـن أجـل أنـي فهيـم
فـاجعلنـي تيـس مـن جملـت التيـوس بهيـم

فسبحان مقسّم الأرزاق والعقول بين خلقه، قال تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ الآية [الزخرف/ ٣٢]. (انتهى).

* * *

ميناء الصحراء.. وبعض أحوال الحروب

كانت جردة سوق بريدة مجتمع الأسواق من جميع الأشياء، من المواشي وغيرها، ومجتمع الناس من كل الآفاق، وكانت يسميها بعض الناس (ميناء الصحراء)، وكانت مذاع أخبارهم قبل وجود اللاسلكي البرق والهاتف، وموضع تنفيذ القصاص، وموضع اجتماع الجماعة في الأمور الهامة، (فقد جرت مسألة وغيرها كثير).

غزى البلد مرةً حاكمٌ، وحيث كانت البلد عليها سور ولها أبواب وتغلق بالليل وتفتح بعد صلاة الفجر، وحين فتحوا ذات يوم وأراد الفلاحون يذهبون لمزارعهم وإذا الجنود قد حصرت البلد، يريد الحاكم أن يستولي عليهم بالقوة، وقد سبق هذا الهجوم مفاوضات بينه وبينهم واشترطوا عليه ما يلزم اشتراطه في صالحهم، ولم تتم المفاوضات إذ ذاك فأراد الحاكم أن يأخذهم عنوة بمشروة بعض جنوده، فهجم عليهم هذا الهجوم، وتحامل عليهم بقوة.

الحاصل أن الجماعة لما رأوا الجنود رجعوا وأغلقوا الأبواب، وذهبوا يخبرون زعيم البلد، وهو في المسجد، لا يخرج حتى يصلّي الأشراق، فلما أخبروه قال: طقوا الدمام: طقوا الدمام: فجعلوا يطبلون الدمام في الجردة: والعادة عندهم أن مَنْ سمع طق الدمام أخذ

سلاحه وحضر، فلما اجتمع الناس كلهم، جلس زعمائهم يتشاورون؟ فقال بعضهم اصلحوا معه وأدخلوه، وقال بعضهم احربوه واختلفت الآراء هنا، ثم ردوا الشور لكبيرهم فقالوا: وانت يا أبو فلان، ماذا تقول؟ فقال: إن الأول يقول:

لا تطلب الصلح من جهال ... لِيْن الحرب تثور طْلِقة
ثم اغذِلْ فيه يا عذّال ... تْخَلاّ لَكَ ارقاب صدقه

وقال آخر:

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى ... حتى يراق على جوانبه الدم

وإني أرى إنْ صلحنا معهم بدون حرب حيث اعتدوا علينا فإنّهم يستهينون بنا وربما تنتهك محارمنا فلا نستطيع الدفاع عنها بعد ذلك، فقالوا: فماذ ترى؟ فقال: نخرج عليهم ونضربهم ضربة قوية، ثم يزين الصلح بعدها، فقالوا: سمعنا وأطعنا، ثم ارتجزوا قول الشاعر:

إيلا صار ما ننطح وجيه المواجيب ... تحرم علينا لابسات الخزارى

فقام هذا الزعيم بترتيبهم للقتال، ثم فتحوا الأبواب وخرجوا، حتى بعض النساء خرجت خلفهم تصيح وتنخاهم وتنقل لهم الماء، تسقيهم، لأنه كما في المثل السائر (الْهَوْش يُعَطِّشْ)، فالتقوا واقتتلوا قتالاً شديدًا، فأسفرت المعركة بانهزام الجنود رحمهم الله وغفر للقاتل والمقتول منهم فكلهم مسلمون. (انتهى).

* * *

استقرت الحياة في أهل المدن

كثير من أهل البادية: يرون أن أهل المدن والقرى ليس فيهم رجولة وشجاعة وحماسة وحمية، وأنهم لا يحمون زعيمتم، وهذا رأي غير مطابق، فإن العرب نوعان: عرب وأعراب، فالعرب هم أهل المدن والقرى، والأعراب هم البادية، والبادية تبع لأهل المدن والقرى في دينهم ودنياهم، فالرسول محمد ﷺ النبـي العربـي بعث في أهل المدن والقرى، والقرآن العربـي في لغة أهل المدن والقرى، قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ ﴾ [يوسف/ ١٠٩]، يعني وأنت مثلهم من أهل المدن والقرى، (والحكم المستقر في أهل المدن والقرى)، (والتجارة عند أهل المدن والقرى)، (والتعليم والتعلّم عند أهل المدن والقرى). . فالأعرابـي إذا أراد بيع بعيره جلبه للمدن، وإذا أراد أن يشتري طعامًا أو ثيابًا أو تجهيز زواج إنما يذهب للمدن والقرى.

ومن الدليل المعروف لدى الجميع على استقرار الدين والدنيا والحكم في أهل المدن: أنهم يسافرون المسافات البعيدة على الإبل ويحملون معهم التجارات والأموال والضعاين فيحمونها، رغم كثرة من يقصدهم من قطاع الطريق، ويريد انتهابهم، لأن الحضر إذًا يكونون

مستعدين للقاء، فلا يفرون أمام غيرهم أبدًا، ولو كانوا يفرون منهم لما سكنوا في القرى والمدن، ولما استقرت عندهم التجارة، وَلَما خَيَّمَ فيهم الأمن، أما قطع الطرق والحنشلة والاعتداء على أموال الناس ودمائهم فهذا ينكره دين الإِسلام والعقل الصحيح، قال النّبي ﷺ: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام»، الحديث رواه البخاري ومسلم.

كذلك يرى بعض أهل البادية: أن أهل المدن والقرى ليس لهم أصل في العرب، وأن من ليس له أصل فليس له رجولة، وهذا أيضًا رأي غير صحيح، فإن غالب أهل المدن والقرى أولهم بَدْوٌ ثُمَّ تحضروا: وهم أعرف بالأنساب، وأجدرُ أنْ يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله ﷺ، ثم إذا قدر أن بعضهم ليس له أصل، فهذا لا يمنع رجولتهم وشرفهم، وكثير ممن ليس له أصل، خير من كثير ممن له أصل، وهذا شيء معروف لا يحتاج تدليل، ومن الناحية الأخرى يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات/ ١٣]. ولهذا قيل:

وما المرء إلاّ بدينه فلا تترك التقوى اتكالاً على النسب
لقد رفع الإسلام سلمان فارسي ووضع الشرك النسيب أبا لهب

فمن أحبّه الله واختاره لجواره في الجنة، وفقه لطاعته، من حُرٍّ وعبد وعربي وعجمي وذكر وأنثى، ومن لا يصلح لجوار الجناب المقدّس، ولم يوفّق للهداية، فإنه لا ينفعه أصله ولو كان ابن عم الرسول ﷺ. (انتهى).

* * *

مـن أيام العرب

أيام العرب هي وقائع حروب تقع بين القبائل، وهي وقائع موجعة يقتل فيها رجال وتنهب الأموال وتيتم الأطفال وتفتقر فيها الأغنياء. فترقم في التاريخ (بيوم كذا وكذا) أو بوقعة كذا وكذا: وهذه الوقائع مستمرة من حين ولد آدم الذي قتل أخاه ظلمًا حتى زماننا الحاضر وحتى قيام الساعة والله أعلم.

فَمِنْ أيام العرب القدامى (يوم الوقيط): كما ذكره في (سبائك الذهب في معرفة أنساب العرب).

وذلك أنه تجمع عدة أفخاذ وقبائل، ليغيروا على بني تميم وهم غارون: وكان الأعور العنبري من بني تميم أسيرًا، عند قيس فعلم بما أرادوا، ورآهم يستعدون لذلك: فقال لهم الأعور: أعطوني رجلاً أرسله إلى أهلي أوصيهم ببعض حاجتي: فقالوا له: ترسله ونحن حضور؟ قال نعم، فأتوه بغلام مولد: فقال العنبري أتيتموني بأحمق، فقال الغلام والله ما أنا بأحمق، فقال إني أراك مجنونًا، فقال والله ما أنا بمجنون ــ قال أتعقل؟ قال: نعم إني لعاقل، قال فالنيران أكثر أم الكواكب؟ قال الكواكب: فملأ كفه رملاً وقال كم في كفي؟ فقال

لا أدري وإنه لكثير: فأومىء إلى الشمس بيده وقال ما تلك؟ قال الشمس، قال ما أراك إلاَّ عاقلاً.

-إذهب إلى قومي فأبلغهم مِنِّي السلام وقل لهم ليحسنوا إلى أسيرهم فإني عند قوم يحسنون إليّ ويكرمونني، وقل لهم فَلْيُعْرُوا جملي الأحمر ويركبوا ناقتي العبسا، وليرعوا حاجتي في بني مالك: وأخبرهم أن العوسج قد أورق والنساء قد اشتكت: واسألوا الحارث عن خبري.

فسار الرسول، وأتى قومه فأبلغهم قوله، فلم يدروا ما أراد، فأحضروا الحارث وقصوا عليه خبر الرسول، فقال للرسول اقصص عليّ أول قصتك، فقص عليه أول ما كلمه حتى أتى على آخره، فقال للرسول: أبلغه منا التحية والسلام وأخبره أنا سنستوصي بما أوصى به، فرجع الرسول.

فقال الحارث إن صاحبكم قد بَيَّنَ، أما الرمل الذي جعله في كفه فإنه يخبركم أنه قد أتاكم عدد لا يحصى: وأما الشمس التي أومىء إليها فإنه يقول ذلك أوضح من الشمس: وأما جمله الأحمر فإنه يعني الصُّمّان (المعرف) ويأمركم أن ترتحلوا عنه. وأما ناقته العبسا فهي الدّهنا ويأمركم أن تدخلوها وتتحرزوا فيها (حيث كانت أرضها زبائر رمال واسعة لا مجال لطراد الخيل فيها معروفة حتى الآن).

قال وأما قوله: بنو مالك فإنه يأمركم أن تنذروهم بهذا الخبر، وأما إيراق العوسج فإن القوم قد لبسوا السلاح، وأما اشتكاء النساء فإنه يريد أن النساء قد خرزن الشِّكَاءَ وهي القرب اسقية الماء للغزو.

فحذر بنو العنبر وركبوا الدهناء، وأنذروا بني مالك ولكنهم لم يقبلوا منهم. ثم إن اللهازم وعجلا وعترة أتوهم فوجدوهم قد ارتحلوا: فأوقعوا ببني دارم (بالوقيط)، واقتتلوا قتالاً شديدًا وعظمت الحرب بينهم، إلى آخر القصة. (انتهى).

* * *

قصة أخرى..

معروف أن كل قبيلة من العرب لهم جهة من البر يختصون بها دون غيرهم غالبًا، معروفة من هنا إلى هناك، يسمونها دارًا، ويسمونها وطنًا، وبلادًا، وإن كانت برًا ليس به عمران، ومن دخل عليهم حدودها قاتلوه.

ففي بعض الأوقات، أجدبت البلاد على إحدى القبائل، فبلغهم أن بلاد ذيك القبيلة مربعة ربيع جيد، فركب شيخ القبيلة الأولى وخمسة رجال من قومه، حتى قدموا على شيخ القبيلة الثانية، فأخبروه أن بلادهم مجدبة، وطلبوا منه المواساات، بأن يسمح لهم يأتون بعربهم يأكلون معهم هذا الربيع فقط، وكل رئيس يمنع قومه فلا يعتدي أحد منهم على الآخرين، وإذا صَرَّمَ عود العشب (الربيع) رجعوا لبلادهم، فأبى شيخ القبيلة الثانية قائلاً إن الفلان (يعني قومه) يُعَيِّبُونَ على مفلاهم (يعني لا) فقال الرجل الأول: إني أخشى أن تدفعنا عليكم الضرورة فيقع بيننا وبينكم حرب لا نريدها: فأبى الرجل الثاني أن يسمح لهم.

فرجعوا وأخبروا قومهم بالربيع ومنعهم عنه، وشاوروهم على الحرب أو الإقامة في بلادهم المجدبة؟ فاختاروا الربيع على ما به من

حرب، فارتحلوا مقبلين إلى الربيع، فلما قربوا من دار القوم ومنازلهم، جمع الرجل رجال قومه وشاورهم فقال: لا يحقرن أحد منكم نفسه عن إبداء رأيه لنا، (كيف نغير عليهم ومتى؟) فجعل كل ذي رأي يبدي ما يراه رأيًا، ثم قام شيخ شايب وحضر بين يدي الأمير وقال: أيها الأمير المطاع إن هؤلاء القوم خيلهم مُرْيعَةٌ قوية وخيلنا هزلانة ضعيفة فإن ركبوا خيلهم غلبونا لا محالة: ولكن دعونا نغير عليهم وسط النهار ونقصد خيلهم نقتلها أولاً، فإننا نجدهم قد عَذَّروا لها ترعى في الروض.

فقال الأمير هذا هو الرأي نحن عليه، وكلهم وافقوا على صحة هذا الرأي، فساروا وتركوا أهلهم، فوصلوهم وسط النهار، ووجدوهم آمين قد عذروا للخيل، (أي قيّدوها ترعى) فبغتوهم وقتلوا خيلهم واستاقوا الإبل، وأصحابها يصفقون بأيديهم مثل النساء ندمًا، ثم زحفوا عليهم جملة فارتحلوا وهربوا عن أرضهم وبلادهم إذ لا لقاء إلاَّ بخيل. والقصص غيرها كثيرة بمثل ذلك. (انتهى).

* * *

الاغترار بالنفس
قيل: كلٌّ يعتقد بومته صقر

وقال أبو تميم الهجيمي: إن أقوامًا غرهم ستر الله تعالى، وفتنهم ثناء الناس، أعاذنا الله وإياك أن نكون مغرورين بالستر، مفتونين بالثناء.

وقد قيل:

لو مَنْ غاب دَرْبَ الناس عَدَّلْ طريقه ومَنْ شاف عَوْبا الناس فكر بْعَوْباه

مَيْـر إنْ كُـلّ معجبـه حلـو ريقـه لـو كـان بـريقـه نكهـة مـا تمـاراه

وقولهم: (يا جلاب يا متمني.. يا سوق يا فَشّاش)، هذا مثل سائر، في قاعدة خاصة، ولكنه ينطبق على كثير من أحوال الناس، فأولاً نوضح معناه في اللغة المعروفة هنا، ثم ما ينطبق عليه من أحوال الناس.

(فالجلاب) هو الذي عنده بضاعة أو مواشي أو عقار ثم يجلبه إلى السوق ليبيعه، ومن العادة إعجاب الإنسان بماله: فترتفع نفسه فيه ويريد به قيمة عالية في نوعه، ولكن الناس يعرفون مقدار قيمته، فيستامونه بها فقط، فينفش هذا التضخم في نفسه وتتضح له الحقيقة، إذ السوق هنا كناية عن أهل السوق، كما في قوله تعالى: ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا﴾ [يوسف/ ٨٢]، أي: اسأل أهل القرية.

أما الفش: فهو ضد النفخ كالقربة إذا نفختها هواء ثم أطلقته

انفشت، وكالنفخ في البطن إذا خرجت الريح إنفش البطن، ومثله في هذا الزمان كفر السيارة إذا بنشر وخرج هواه انفش، وكالورم في بعض الجسد إذا بريء انفش الورم، وكالغضب في النفس إذا اشتد انتفخ الوجه والقلب فإذا ذهب انفش.

ومثل ذلك الكبر والتعاظم في النفس إذا حصل له ما يعارضه انفشّ وانهضم ورجعت النفس لطبيعتها.

ومن ذلك إعجاب الإنسان بنفسه أو بولده أو ابنته أو بنسبه وعشيرته أو بعلمه ومعرفته أو بوطنه أو غير ذلك، ولكن الناس يعرفون الحقيقة في هذه الأحوال غالبًا: أما هو فإن تعقل أمره وانجلى عنه إعجابه فيعرف من حاله ما يعرفه الناس، وإن استمر به الإعجاب ولم ينفش عنه التعاظم فهو الغرور، كما في المثل (ما يحمَل الزوم إلاّ البوم) والزوم هو الكبر، هكذا يعرف الناس مقدار مستوى بعضهم وإن زعموا لأنفسهم ما زعموا. وقال شاعر:

يقولون هذا عندنا غير جائز ومن أنتم حتى يكون لكن عند؟

أما الإنسان الذي يعرف قدر نفسه ويتواضع فإن الناس يحترمونه ويرتفع قدره عندهم، وفي الأثر: رحم الله امرءًا عرف قدر نفسه.

كما مزح النّبي ﷺ على أحد أصحابه رضي الله عنهم، فمسكه من قفاه وهو غافل وقال: «من يشتري العبد؟» فعرفه وألصق جسده عليه وقال: إذًا تجدني كاسدًا يا رسول الله، فقال النّبي ﷺ: «لكنك عند الله لست بكاسد»، الحديث رواه البغوي في «شرح السنَّة» عن أنس رضي الله عنه.

قيل لإنسان: ما شاء الله ابنتك جميلة، فقال عساها تُفاسِخْ (يعني) لعله يحصل لها زواج مبكر، فالمفاسخة هنا بمعنى المخالصة، هكذا التواضع في النفس والحقيقة لا تخفى على الناس غالبًا. . والله الموفق.

وقد يبتلى بعضهم بامتداد أموره في الدنيا فيظنها فضيلة له على غيره وليس كذلك، فمعرفة الناس لهذه الأحوال أصدق من ظنه لنفسه فهي مثل معرفة أهل السوق مقدار قيمة بضاعته إذا جلبها، فتطرأ في أذهان الناس هذه الكلمة فيه (يا جلاب يا متمني. . يا سوق يا فشاش)، يعني أنه قد يؤمل فوق مستواه، وهذا كله لتظهر أسرار حِكَمِ الله في خلقه.

قيل: كان بعض السلف خارج البلد، وكان ذو شأن، وحضره الموت، وعنده ابنه فقال له: إن أنا مت فوارني (يعني: ادفني) وسوِّ قبري بالأرض ولا تجعل عليه علامة ولا تخبر بـي أحدًا واذهب ولا ترجع عليَّ مترددًا وانسني، فإن كان عملي صالحًا لم يضرني الخمول، وإن كان غير صالح لم ينفعني ولو شيّعني الناس كلهم، (الخمول هو قلَّة الشهرة)،

ففعله هذا تعليمًا للإخلاص وتواضع النفس، رحمه الله.

وحدثني غير واحد من أهل الثقة، أنه قد استفاض خبر عن رجل ثقة كان يحفر القبور، وسئل (هل رأيت عجبًا في هذه القبور؟) وعزموا عليه أن يخبرهم، فقال: إني حفرت قبرًا لم أحفر مثله، انشرح صدري فيه ووجدت سهولة في حفره ورائحة طيبة وبرودة، مما جعلني حرصت وراقبت لأعرف من يكون صاحبه، فأتت جنازة يحملها ثلاثة رجال

والرابعة: امرأة، قد حملت معهم رجل النعش فوضعوا الجنازة ورجعت المرأة، ونظروا في القبور الجاهزة أيها يصلح، فدفنوه في هذا القبر، كما أخبر عن قبر آخر بضد ذلك.

وحدثني رجل ثقة عن هذا الرجل أيضًا أنه قال: حفرت ثلاثة قبور وذهبت فلما نَمْتُ ليلاً رأيت فيها عجبًا: أما أحدها فسطع منه نور إلى السماء، والآخر: ظهر فيه أشجار خضرة بهية.

وأما الثالث: فاشتعلت فيه نار، فلما أصبحت راقبتها؟ فالقبر الذي سطع منه نور، فقد دفن فيه فلان: (يعني زعيم البلد)، وكان قد سادهم بالعدل والإنصاف بينهم وسداد الرائي، رحمه الله. وأما الذي ظهرت فيه أشجار، (فقد دفن فيه فلان)، يعني رجلاً صاحب فلاحة (مزرعة نخيل) وكانت ينتفع الناس من مائها. وأما القبر الذي اشتعلت فيه النار، (فقد دفن فيه فلان)، يعني رجلاً جماعًا للمال السحت والمعاملات الربوية مع الكفار ونحوهم. نسأل الله العافية، والْوَفات على ملَّة إبراهيم وسنَّة سيد المرسلين ﷺ. (ولكن: يحتمل أن قصة هذه القبور وحفره إياها ليست في وقت واحد.. والله أعلم. (انتهى).

* * *

شــوك القتـاد

كثيرًا يضرب المثل بشوك القتاد: لصعوبة الوصول إلى الأمر وشدة الحايل دون تحصيله، فيقال: «لكن دونه شوك القتاد».

والقتاد: شجر بري ينبت بالأودية والرياض، وهو شجر مستديم غير كبير الحجم، ارتفاعه نحو ذراع وأغصانه تنطلق من جذوره شبه حبال، يكسوها شوك كثير طوال حاد شبه الإبره أحدّ من شوك الطلح، فلا يمكنك أن تأخذ من وسط القتادة شيئًا بيدك إلاَّ بصعوبة.

والقتاد به منافع:

أولاً: بشوكه وصعوبته، ويسمونه (خزاز)، فإذا أرادوا منع طريق وضعوا فيه من شجر القتاد، وإذا أرادوا حماية ثمر نخلة ربطوا على جذعها من شجر القتاد، ويربطونه بالطين فوق رأس الجدار بِناءً عن تسوّر الحرامية على البيت.

والمساجد القديمة حيث كانت تُبنى بالطين وتُسقف بالخشب وجريد النخل فيأوي إليها الطيور (الخفاش)، ويسميها بعضهم (السِّحا) حيث يجد له فيه مداخل فيؤذي فيه، فيعلقون بالسقف شجرة قتاد: فيهرب الخفاش خوفًا من الاصطدام به في ظلام الليل.

المنفعة الثانية: يتخذونه علفًا للمواشي: الإبل والحمير ونحوها في وقت الشتاء؛ إذ لا تجد المواشي مراعي في البر تكفيها فيضطرون لمساعدتها بالقتاد، ولكن بعد عملية جيدة.

أولاً: يقطعون شجر القتاد ويجمعونه، ثم يضرمون نارًا فيشلوطونه عليها شجرة شجرة، تقشط الشوك بسرعة، ثم يبعدون الأعواد عنها ويجمعونه فإذا أحضروه عند البيت قاموا فيه بعملية ثانية، حيث كان أعوادًا تحتاج تليين فيضربونه بالكابون أو حجر يدوي فوق وجه حجر فيتفتت شبه حبل منكوث، فتأكله المواشي نفاعًا جدًا.

وأكثر من يقوم بعملية تشويط القتاد: هم الرعاة ونحوهم؛ فيحضرونه معهم إذا راحوا بالليل.. حتى إن بعضهم يشترط على الراعي عندما يستأجره للرعي أن يقوم بعملية التشويط..

وراعي الغنم أيضًا حيث يكون معه حمار يركبه ويحمل أغراضه فلا بدَّ أن يعمل له شويطًا من القتاد وقت الشتاء، فصار هذا العمل وهو الرعي والتشويط معًا يضرب به المثل، فإذا أراد الإنسان أن يلتزم بأكثر من أمر، قال: (أنا أعمل كذا وكذا وأقَتِّدْ للحمار)، تشبيهًا بالراعي الذي يحفظ الغنم ويصلحها وَيُقَتِّدْ للحمار وغيره، وإذا كان الرجل يعمل في البر أو يسير في الطريق وقت الشتاء فقد لا يجد بعيره مرعًا يكفيه فلا بد أن يعمل له قتادًا يعشِّيه إياه، فصار يضرب به المثل في أقصى إمكانيات الاستطاعة (اِمْعَشٍّ ناقته قتاد).

نَـبْـت القطب:

أما شجر القطب فهو من الأعشاب: نبات ربيعي صيفي ناعم في أول عمره، فهو من أنعم النبات، وترعاه المواشي نفاعًا جدًا، ولكن ما يلبث أن يظهر فيه شوك كثير. فكل ورقة يظهر تحتها شوكة، ثم تنفلق وتنتثر ثلاث فلقات، كل فلقة منها مثلثة لها ثلاث شوكات حادة مؤلمة جدًا، فيضرب بها المثل لبعض الناس: يكون في أول عمره، أو أول أمره، هادئًا قليل الشر، ثم يظهر له أولاد يحصل منهم أذًى وقلَّة خير وكثرت غير؛ فيقال: (انتثرت القطبة)، يعني: انتشر شرها بعد لينها ونعومتها.

أما نوعها فهي نبت خفيف يمتد لها براعيم طوال على الأرض شبه خيوط، ورقها خفيف ثم الشوك الكثير. وأكثر نباتها حول المزارع والمعاطن والطرق وفناء البيت. (انتهى).

* * *

إجماع

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: من أحب شيئًا استلزم خوف فواته. فَخِفْ أن يفوتك الله فتفوتك الجنة.

وقال ابن الوردي:

قيمت كل امرىء ما يحسنه   أكثر المرىء منه أو أقل

وقال زهير بن أبي سلمى:

ومن هاب اسباب المنايا يَنَلْنَهُ   ولو رام أسباب السماء بِسُلَّمِ

يقال: (فينا وفيكم من خبيث وطيب)، وفي المثل: (العصيفير يقطِّعه الموت والصبيّ يلعب به).. يُضرب مثلاً لقليل المروءة من الناس الذي لا يحس بمشاعر الآخرين. (انتهى).

* * *

الحفاظ على الحقوق

قد يُعتدى على الإنسان إما خطئًا وإما عمدًا. . وقد مدح الله أهل العفو والإحسان، فقال: ﴿ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾[آل عمران: ١٣٤].

فالرجل الكريم صاحب النفس الرفيعة لا يعاقب على الخطأ، إذا لم يكن له عاقبة سيئة ترجع عليه، بل يعفو ويتسامح تكرمًا، وإذا كان الاعتداء عمدًا نظر في عاقبة الأمر فإن كان قد انتهى وليس له عاقبة فالأقرب أنه يعفو إذا اعترف المعتدي وطلب السماح.

أما إذا كان الاعتداء عمدًا، وصار يخشى من تسلسله أو يستهان بحقوقه الأخرى أو محارمه، فهو لا يعفو ولا يتسامح، بل يصول صولة الأسد حتى يأخذ حقه كاملاً ويعرف له ذلك، كما قيل:

إذا أنت لم تعرف لنفسك حقها ... هوانًا بها كانت على الناس أهونا

وكما قيل:

الدار مثل البنت يُفْتَشْ مُغَطَّاه ... لا عاد ما تُخْشى عواقب رجاله

وكما قيل:

إذا لم تكن ذئبًا على الأرض أطلسا ... كثير الأذى بالت عليك الثعالب

وكما قيل:

الْمَـرْجِلَـه بـالِـكْ تْـرَخِّـي حبـالـه وبالك تعيل، ولا تَسْتَرْخِمْ لْمِنْ عال

قوله: لا تسترخم، أي: لا تكن إرْخَمِه، والرخمة هي: طير كبير أبيض قريب من النسر تأكل من الميتات، فهي من خسيس الطيور، يوصف بها الإنسان الرديء. وفي المثل: (الكلب بينهم مذبوح)، أي: العداوة قائمة بسبب ذبحة الكلب، وهو مثل لكل عداوة.

وكان العرب يحافظون على الحقوق وإن كانت صغيرة لئلا يُعتدى عليهم بأكبر منها.

كما جرت قصة رجل في أوقات الفوضى ـ قبل أن يستتب الأمن ـ له أولاد وإبل، فاعتدى عليه رجل وقتل كلبه، فاغتاظ وقال لأولاده: اذبحوا ذبّاح الكلب، فلم يقتلوه، وكبر عليهم أن يقتلوا رجلاً بكلب، فسكت أبوهم على مضض..

وذات يوم كانت إبلهم تشرب على المارد (الماء) فصدّها رجل آخر وكفاء حوضها وطردها، فتكدروا وأخبروا أباهم، فقال: اذبحوا ذباح الكلب، فلم يقتلوه..

وفي يوم آخر جاء راعي الإبل وقد ضُرب وشُجَّ وجهه ونزف دمه، فأخبروا أباهم، فلم يزد على أن قال: اقتلوا قاتل الكلب، فلم يقتلوه.

وكان هذا الرجل له ابن من امرأة أُخرى، أخواله أهل شجاعة وحمية وهيبة وسطوة لا يُدان حماهم ولا يُعبث بشرفهم، وقد كبر وشب، فلحق بأبيه وإخوانه، فكان أول عمل قام به هذا الولد أن ذبح ذبّاح الكلب.

وبعد ذلك جاء الرجل الذي طرد الإبل عن الماء فاعتذر وطلب منهم السماح، ثم جاء الذي ضرب راعي الإبل فاعتذر وطلب منهم السماح، ثم لا يزال الناس يخافونهم.. ولولا هذا الفعل والبطش بالمعتدي لوصل الاعتداء حتى نسائهم ومحارمهم، لأنهم زمن فوضى قاتل ومقتول، وناهب ومنهوب.

الـدار مثـل البنـت يفتـش مغطـاه   لا عاد ما تخشى عواقب رجاله

(انتهى).

* * *

قصة المهادي الثانية.. وقصيدته

أخبرني رجل من رجال البادية، وكان جيد المعرفة بأحوال الناس، رحمه الله، قال: كان محمد المهادي من قبيلة عنزة، وكان قد عشق بنتًا من عائلة هناك وأحبها، فخطبها من أهلها، فطلبوا عليه مهرًا لها صعب الحصول، (وكان بعض الناس يفعل ذلك ذاك الوقت تمييزًا لمستوى ابنته على غيرها إذا كانت متميزة بجمال أو حسب). .

ولكن ما هو هذا المهر الصعب الذي طلبوا عليه هنا؟ هو: أن يحضر لهم فرسًا كانت لأحد رجال سبيع هناك حيث كانوا يسمعون عنها أخبارًا جيدة. .

فترك المهادي أهله وماله وذهب يسأل عن صاحب الفرس؛ حتى وصله، فضاف عنده وأخفى أمره ليتمكن من نهبها، فبقي عندهم افداويًا، يتهردس ويتغرغر ليصيب منهم غرة لغرضه. .

ولكن صاحب الفرس قد أخذ حذره من شفقته عليها لا يفلتها بيد أحد، فإذا نزل عنها شك الغل فيها (هو قيد الحديد وقفله)، ثم يربط مفتاحه ببَرِيمِهِ على بطنه فلا يثق عليه أحدًا، حتى ولا امرأته.

فهذا الفداوي طال بقائه معهم، ولم تسنح له فرصة لنهبها، وأَيِس

منها: فبداله رأي آخر لتحصيلها، هو: أن يبدي أمره للمرأة لعله يجد عندها جدوى. .

فأخبرها بأمره وضرورته إليها، وأنه إذا لم تحصل له الفرس فلا تحصل له البنت، وإذا لم تحصل له البنت فسوف يهلك بأثرها، فطلب منها مساعدته بتحصيلها له والتزم لها بما تريده من الجزاء عندما تطلبه على بُطء السنين. .

فقالت له: ليس من الممكن الحصول عليها كما ترى، ولكننا سوف نرتحل بعد غد لتجديد المنزل، ومن عادة الرجل أنه له جمل قعود خاص يركبه: وحالة الارتحال وحمل العفش على الرواحل (الإبل)، ينيخه عنده ويعقل يده،

فإذا درجت الرواحل بالعفش، فكَّ قيد الفرس وأمسك حبل عنانها بيده، ثم أطلق عقال جمله وركبه، قالت: فأنا أكون خلف الجمل، فإذا نهض الجمل صدره ليقوم فأنا ألكزه من قفاه من بين رجليه فإنه سوف يقفز الجمل بسرعة، فلعل حبل الفرس ينفلت من يده وأنت تكون حولي، فأقول لك: اعطِ عمك حبل الفرس، فأنت تصرّف إذًا، خذ حبلها واركبها واهرب بها.

ففعلت ذلك حال ارتحالهم، فانفلت الحبل من يد الرجل، فأخذه الفداوي وركبها وذهب.

فيقال: (هذا أيضًا من جملة الشواهد على أضرار الفداوي على أهل المحل، وقد يكون حصل بينه وبينها محبة وعشق أوجبت لها أن تضحي له بفرسها هكذا).

فمضت على السبيعي عدة سنين، ثم أجدبت عليه البلاد وهزلت إبله وَجَرِبَتْ، فتذكرت امرأته وعيدة صاحب الفرس لها، فقالت لزوجها: إن لي حقًا على رجل هناك يقال له المهادي، وقد وعدني الجود إذا أنا أتيته، فلعلنا نذهب إليه ما دامت بعاريننا تستطيع تحملنا قبل أن تهلك . .

فوافق الرجل على رأيها بسبب الفقر والجدب، وارتحلوا يتدرجون متجهين إلى المهادي في بلدانه، حتى وصلوه . . فلما طلعوا على أبياته أرسلت المرأة ابنها هو جذعًا دون أن يسمع الأب، قالت له: اذهب إلى هؤلاء العرب حتى تقف على جَلِيْسَة الرجال؛ فسلِّم عليهم ثم اسألهم عن محمد المهادي؛ فإذا أتى إليك فقل له: هذه صاحبة الفرس أتت مهزلة (أي إبلها هزلانة)، ولا تسمع أحدًا.

فلمّا وصلهم وكلّمه أخبره؛ فاهتز المهادي وانتعش وفرح، ثم نادى اثنين من خدامه وأمرهم أن يذهبوا مع الولد يستقبلون أهله يأتون بهم . . فذهبوا إليهم، فوجدوا إبلهم فيها جرب، فقال أحدهم: اصبروا وانتظروا هنا حتى أخبر عمي أن إبلكم مجربة حتى لا تُعْطِبُوا في إبلنا؟ فرجع يعدو فأخبر عمه، فقال المهادي: خلّوهم يأتون بأنفسهم على أرجلهم، وأنتم أذبحوا بعارينهم واجمعوا عليها عفشهم كله وأحرقوها بالنار، حتى لا تعدي إبلنا . . فنفّذوا أمره.

وحين وصلوا إليه وكانت إحدى نسائه في بيت متحد، أمرها أن تخرج من بيتها هذا بنفسها فقط وتترك البيت وما فيه، فخرجت

وانضمت إلى أبياته الأخر، فأسكنهم فيه بما فيه من أثاث، ثم عمل لهم وليمة القدوم..

وفي الليل جلس الرجل السبيعي مع الرجال يتبادلون السوالف والأخبار، لكونه حديث القدوم عليهم، وامرأته في البيت المذكور، فأتت إليها امرأة المهادي صاحبة البيت سابقًا، وأخبرتها أن ولدها (امفرج)، ابن المهادي، قد ذهب يتطلب الصيد، ومن عادته إذا أتى أثناء الليل أن يدخل مع أمه في القطيفة ينام، حيث كانت القطيفة هي لحاف النوم عن البرد، قالت: فإذا أتاكم بالليل فلا تاهمون، لأنه لم يعلم بالحال، فأخبروه أني أنا أمه قد خرجت للبيت الثاني.

ولكن يا للقدر، فقد نامت المرأة في القطيفة حيث أبطأ الرجل السبيعي مع الرجال وألهتهم السوالف، فأتى ولد المهادي على عادته وقصد بيته ودخل في طرف القطيفة ونام على أنها أمه، ولم تشعر به امرأة السبيعي..

ثم أتى السبيعي ليرقد مع زوجته في القطيفة، وإذا به يجد الرجل حول امرأته، ولم يعلم بكلام امرأة المهادي عن ابنها، فظنه رجلاً قد فتك بمقدساته في امرأته، فلم يملك غيرته أن مشع الخنجر (السكين) من حزامه وذبحه.. فأحست امرأته بالحادث، فنادته (ولد المهادي.. ولد المهادي)، يحسبني أمه، لم يعلم بأمرنا، قد أوصتني أمه به؟ فقال: فات الأمر، فكيف تنامين وأمه قد أوصتك بذلك؟.. ما أعلمتيني؟ قالت: إنه غلبني النوم لبطئك.

ثم نادوا المهادي وأخبروه بالأمر، فقال: (إنّا لِلّه وإنّا إليه

راجعون، قدَر الله وما شاء فعل، اللّٰهمَّ آجرني في مصيبتي واخلف لي خيرًا منها). . ثم قال: اسكتوا، لا تخبروا أحدًا، واحملوه الآن واطرحوه في ملعب العيال حتى لا يُعلم قاتله.

فلمّا أصبحوا ورأوه اجتمع الجماعة يتساءلون: من قتله؟ من قتله؟ فقال أبوه المهادي: ما حنا امفتشين في جماعتنا، ولكن اجمعوا لنا اديته من الجميع. . فقام الجماعة وكل واحد أتى بناقة وعقلها عند بيت المهادي، فاجتمع عنده أكثر من مائة بعير، ثم قال للسبيعي: خذها لك حيث لم يكن لك مال هنا، فأخذها السبيعي ووضع عليها وسمه وسرّح بها أولاده فتملّكها. .

ومضى مدة من الزمن، نحو ثمان سنين، وهم جيران كرامة وإجلال، ولا يعلم أحد طوال هذه المدة ما لجأ بقلب المهادي من لهيب النار على ولده.

ثم حدث عليه بلاء آخر من جاره هذا، هي جريمة خُلُقِيَّةٍ كادت أن تقع من ولد السبيعي على بنت المهادي، حيث كانت تسرح بإبل أبيها. ففي ذات يوم لما أتت البنت من السرح (البر بعد المغرب)، أخبرت أمها أن ولد جارهم السبيعي يراودها عن نفسها. . فالأم أخبرت الأب المهادي بذلك، فاستغرب الحال، وحدوث هذا من مثل هذا على مثله فأستكتمهن وقال: لا يظهر منكن علم بذلك. .

فلمّا أتت البنت اليوم الثاني أخبرت أباها أنه ضايقها وأنها إن سرحت بعد ذلك فسوف يَقْضِي على كرامتها، قالت: فلا تلومنّ إلاَّ نفسك إن تركتني أسرح. . فقال لها: إسرحي اليوم قريبًا من البيوت،

لا تختفين عنا وسوف نراقب عليك، ثم ذهب المهادي في الصباح إلى جاره السبيعي حول بيته وقال له: ألا تريد نلعب وإياك؟ قال: بلى، فجلسا يلعبان (الْبِيَّة) شبه لعب الصبيان بالطبه هذا الوقت، فجعل المهـادي يقـول وهـو يتـابعـه فـي اللعـب: ارحلـوا وإلاّ رحلنـا، ويلـك يا السبيعي إرحل وإلاّ أكلتك.. وهكذا، فلمّا انتهيا وذهب المهادي قالت امرأة السبيعي: ماذا يقول لك المهادي؟ فقال: لا شيء إنما نلعب، قالت: لا، بل أظن كلامه هذا جِد، قالت: ولكن دعنا نرتحل الصباح، فقال: أظنه ما يسمح لنا نرتحل عنه وهو مكرمنا هكذا؟ قالت: لا بد أن نختبره، فقال: بماذا؟ قالت: إذا كان الصباح فاهدم بيتك واحمل عفشك على رواحلك فإن أتى إليك حين تُسْقِط بيتك وتبدأ تطوي عفشك واستنكر شديدك هذا وارتحالَك عنه بدون مفاوضته فهو لا يريدك ترتحل عنه، وإن تركك تنهي ارتحالك وتحمل على رواحلك ثم يأتي إليك فهو يريدك ترتحل.

فلمّا أصبح السبيعي أسقط بيته وقرب رواحله وشدّ عليها وحمل عفشه وأثاثه، فلمّا قامت الرواحل بأحمالها، أتى إليهم المهادي وقال: وراكم ارتحلتم يا جيراننا.. هل أتاكم منّا حاسوس أو قاصر؟ فقال السبيعي: لا والله يا أبو فلان، ولكن العيال تذكّروا ديارهم وحِيَّانَهم، وطرىء لهم الرجوع إلى أوطانهم إذا أنت سمحت لنا.. فقال المهادي: لا بأس، إذا كانوا يريدون بلدانهم وجماعتهم فلا مانع إذًا، فأنتم مع السلامة، فساروا من عنده وانتهت الجيرة والصداقة.

وبعض الناس يأتي بهذه القصة بأسلوب غير هذا، ولكن كلامه في

هذه القصيدة ينطبق على ما ذكرنا هنا، حيث تمثل المهادي بقصيدة يصف بها الواقع، ويهيض عن نفسه بعض الضيقة، ويخبر بأنه سوف يجهّز سرية من ذويه تغزو على سبيع ليأخذ الثأر في حقه الضائع عند ولد السبيعي، (الولد الْفَدِم، فاقد المروءة والوفى)، كما تجد ذلك في قصيدته إن شاء الله.

وحالة المهادي هذه مع جاره هذا: هي التي ذكرها الشاعر زمن الفوضى وتنازع الإمارات، حين اختلفت أسرتان من قبيلة واحدة من أجل المراعي، وأرادوا يتحاربون، فتمثل الشاعر بقصيدة هائلة، يهدد بها خصمه وَيَشْحَذْ بها عزوم ربعه، فقال:

ساهر بالليل ما جاني إِنْوادِ ... من ظلايم شيخ جَرّاهِنْ علينا

إلى أن قال:

صَبْرنا ما يصبره كود الامهادي ... رافي خَمْلَةْ قِصِيرٍ له سْنِينا
يوم شاف الجار بالنسوان عادي ... حَزَّبَ النسوان عن علم بِيِنْنا

إلى أن قال:

لو تَهَيَّا كَثْلِةٍ حِسْنَ الامْرادي ... يَتْلِفْ التَّلافُ وْتَصْفِي مِنْ حَدَيْنَا
تَلْقى الرّؤس مثل نَطْلَ الهَوادي ... أو امْحاذَفْ حَنْظَلٍ بِيْدَ الْجاهِلِينا
الْوَعَدْ وإنْ سَيَّلَ الله كل وادي ... حَرْمَةْ الْيُسْرا تَرى الْمَمْشى يِمِيْنَا

إلى آخر القصيدة، وهي طويلة نحو ثمانين بيت، من هذا الكلام الهائل، حتى حصلت بينهم حروب وفتنة لا تقل عن فتنة حرب البسوس في الجاهلية، ودامت نحو ثلاث سنين حتى رحمهم أعداءُهُم، فاجتمع رؤساء القبائل الأخرى، أهل الحمية والمروءة، وحجزوا بينهم، وفرّقوا

بينهم في البلدان، فطفئت نار الفتنة حينئذٍ. قوله: (لو تَهَيَّ كتلة حسن الامراد)، يقول: نتمنى أن يحصل بيننا وقعة حرب ضروس يقتل فيها أحد الفريقين: أنتم، أو نحن. كما فسره بقوله: (يتلف التَّلَّاف وتصفى من حدينا).

وهذه قصيدة المهادي:

قال المهادي والمهادي محمد ... وبه علة كل الملا مادرى بها
أنا بلاي من علة باطنية ... بأقصا الضماير ما درى وين بابها
تِقِدْ الحشَا قَدْ ولا تنثر الدما ... ولا يدرى الهلياج عما لجا بها
إن أبديتها بانت لرماقة العدا ... وإن أخفيتها ضاق الحشا بالتهابها
ثمان سنين وجارنا مجرم بنا ... وهو مثل واطى جمرة مادرا بها
وطاها بعرش الرجل لو هي تمكنت ... بقى حرها ما يبرد الما التهابها
ترى جارنا الماضي على كل طلبه ... لو كان ما يلقى شهود غدا بها
ياما حضينا جارنا من كرامة ... بليل ولو بنى الغبا مادرا بها
وياما عطينا جارنا من سَبِيَّة ... إلى قادها قوادها ما انثنا بها
نرفا خمال الجار لو داس زلة ... كما ترفى البيض العذرا اثيابها
ترا عندنا شاة القصير بها اربع ... يحلف بها عقارها مادرا بها
ننال يا المهادي ثمان كوامل ... ترقى وتشدى بالعلا من أصابها
إلى قال منا خَيِّر فَرْد كِلْمِة ... بحضرةِ خوف الرزايا وَفا بها
الأجواد إن قاربتهم ما تملهم ... والأنذال إن قاربتهم عفت ما بها
الأجواد وإن قالوا حديث وفوا به ... والأنذال منطوق الحكايا اكذا بها
الأجواد مثل الْعِدْ مَنْ وَرْدُه ارْتَوى ... والأنذال لا تسقى ولا ينسقا بها

الأجواد تجعل نيلها دون عرضها والأنذال تجعل نيلها في رقابها
الأجواد وإن أضْعَفُوا فيهم عراشه والأنذال لو سمنوا معايا صلابها
الأجواد يطرد همهم طول عزمهم والأنذال يصبح همها في رقابها
الأجـــواد تشبـــه قـــارَةً مطلحـــزة إلى دارها الْبَرْدان يلقى الذرا بها
الأجـواد مثـل الجبـال الـذي بهـا شـرب وظـل والـذي ينقـل مـابهـا
الأجـواد صنـدوقيـن مسـك وعنبـر إلـى فتحـت أبـوابهـا جـاك مـابهـا
الأجواد مثل البدر في ليلة الدجى والأنـذال ظلمّـا تـايـه مـن سـرابهـا
الأجواد مثل الدَّرْ في شُمَّخْ الذرى والأنذال مثل الشرى مر شرابها
الأجواد وإن حايلتهم ما تحايلوا والأنـذال أدنـى حيلـة ثـم جـابهـا
الأنـــذال لـــو غسلـــوا أيـــديهـــم تنجســـت
نجـــاســـة قلـــوب مـــا يجـــوز الـــدوا بهـــا
يـــا رب لا تجعـــل بـــالأجـــواد نكبـــة
مـن حيـث الْيـاضِعْـف الضعيـف التجـا بهـا
أنا أحب نفسٍ يرخص الزاد عندها يقطعك يا نفس جداها هَبا بها
لعـل نفـس مـا لـلأجـواد عنـدهـا وقار عسى ما تهتني في شبابها
عليك بعين العِدْ إلى جيت وارد خـل الخبـارى فـإن مـاهـا هبـابهـا
تـرى ظبـى رمـان بـرمـان راغـب والأرزاق بـالـدنيـا وهـو مـادرا بهـا
سقاها الحيا ما بين تيما وغرب شمال غميز الجوع ملقى هضابها
سقاها الولي من مزنة عقربية تنثر دقاق الماء من ماء سحا بها
إلـــى أمطـــرت ذي وأرعـــدت ذي ســـاق ذي
سنـــا ذي وذي بـــالمـــاي غـــرق ربـــابهـــا

نسـف الغثـا سنـان مـاهـا إلـى أصبحـت

يحيـل الحـول والمـاي نـاقـع فـي ربـابهـا

دار لنـا مـا هيـب دار الغيـر نـا … والأجنـاب لـوحنـا بعيـد تهـابهـا

يـذلـون مـن دهمـا دهـوم نجـرهـا … نَفْجَـى بهـا غـراة مـن لادرا بهـا

ترى الدار كالعذرا إلى عاد مابها … حـر غيـور فُكِـلْ مَـنْ جـا زَنـا بهـا

فياما وطن سمحات الأيدي من الوطا … نصد عنها من دنا من أهضابها

تهـاميـة الـرجليـن نجـديـة الحشـا … عذابى من الخلان وأنا عذابها

أريتك إلى ما مسنا الجوع والظما … واحْتَرَّ من الجوزا علينا التهابها

وحما علينا الرمل واستاقد الحصا … وحما على روس المبادي هضابها

وطلـن عـذر مـن ورانـا مشـارفـن … عمـاليـج مَطْـوى العَبـايـا اثيـابهـا

سقـانـي بكـاس الحـب در منهنـه … عندل من البيض العذرا أطنابها

لهـا بيـاض أعيـون المـا منـازل … عـذب زلال المـاء قـراح شـرابهـا

إلـى نـزل فـي منـزل هجـر نـوالهـا … مرغيت تستنن لولاك في أعقابها

لحقوا عداوين على أكوار حزب … على رمك كن السراب نكسابها

قلـت اللّهـمَّ لابلهـم وَابـل الحيـا … ولا جاذبوا بيض الترايب اثيابها

(إلى سرت منا يا سعود بن راشد … على حرة نسل الجديعي ضرابها

سـرهـا وتلقـى مـن أسبيـع قبيلـة … كرام اللحا في طوع الأيدي لبابها

فـلا بـد مـا تـرمـى اسبيـع بغـاره … على جرد الأيادي درعوها زهابها

ولا بـد مـن دهمـا دهـوم نجـرهـا … نضـرب بهـا غـارات مـن لادرابهـا

عليهـا مـن أولاد المهـادي غلمـة … إلى طعنوا ما ثمنوا في اعقابها

محا الله عجوزا من سبيع بن عامر … مـا علمـت أقـرانهـا فـي ثيـابهـا

(لهـا ولـد مـا حـاش يـومـا غنيمـة حـذا كلمـة عجفـة تمـزوجـابهـا)
يعنونها عسمان الأيدي عن العضا محا الله دنيا ما أخذنا القضا بها
عيون العدا كم نوخن من جديلة إلـى قـام بـذاخ الجـاعـر يهـابهـا
أنـا أظـن دار شـد عنهـا مفـرج حقيـق يـا دار الخنـا فـي خـرابهـا
وأنـا أظـنّ دار نـزل يمهـا مفـرج لا بـد يُنْبِـتْ الـزعفـران تـرابهـا
فتـى مـا يظـم المـال إلا وداعـة ولو يملك الدنيا جميع صخابها
فتى يذبح الكوم وشديس وحايل والي قيل بيزي زادها من عذابها
وصلـوا علـى سيـد البـرايـا محمـد عدد مالَعا القمري بعالي هضابها

* * *

كُـلٌّ يهَضِّلْ شاتـه

كان الناس أهل المدن والقرى والفلاحون، يستأجرون من يرعى لهم الإبل والبقر والغنم، فيعينون حوشًا تُجمع فيه الغنم الصباح ثم تسرح، وفي المغرب يأتي الأولاد (وكل يهضل شاته وعنزه) لبيته. . وكان أهل قرية قد استأجروا أعرابيًّا يرعى غنمهم، أجرة الشاة: غمرين من الزرع، (غمر من القمح وغمر من الشعير)، لمدة ستة أشهر، وكان أحد الجماعة يغني بعض الأحيان إذا كان يسنى، فيسميه هذا الراعي: (المنافقي)، من أجل أنه يغني. . فلمّا كان في الصيف وحصاد الزرع، فهذا الرجل أعطى الراعي غمرين من القمح ليس فيه شعير، ففرح الراعي بالقمح، أحسن من الشعير، وقال: (تشوف أنا أحسبه يغني مْنافْقِيْ وَاثْرُه يْدَوِّرْ ما عند الله)! (ويمد آخر الكلمة تعجبًا).

والغمر من الزرع حين يحصد هو ما يحمله الرجل على ذراعه ومتنه، قصب فيه سنبله. (انتهى).

* * *

اتقاء عواقب الكلام

قيل: اتقوا أفواه (الشعراء والمشاويه)، والمشوه هنا عند العامة هو كثير الكلام البذيء ويتكلم بأكثر من اللازم: وهو الفاحش البذي: بخلاف مشوه الْخِلْقَة.

وقيل: (ما يقال يا ساكت وين انت غادي).

قيل: كان رجل يقال له حنيف: شاعر، جاء إلى رجل جالس على دلاله (أي عندها) يتقهوى قهوة، فجلس حنيف عنده، فصبّ له قهوة، وأراد الرجل أن يمزح على حنيف، فقال:

خمسة عشر فنجال لحنيف صبيت   لو هو يعبي قربة كِدْ مَلاها

فغضب حنيف وقال: (رادًّا على هاجيه):

لا تحسب إنِّي مِنْ إدْلالك تقهويت   ما تِنْقِهْ الشَّرّاب مِنْ كِثِرْ ماها
يا مُوَصِّي الحرمه على صَكّْ البيت   تقول ما هو عندي وَانْتَهْ وراها

فنزع الرجل عباءته وأعطاها حنيف، وقال: (خذها واسكت).

قيل:

الناس للناس من بدو وحاضره   بعض لبعض ولو لم يشعروا خدمِ

* * *

حُسن التدبير

قيل:

مُدَبِّرْ بِالدّار خَيْرٌ مِنْ حَدّار

الحدار: هو الرجل يسافر في طلب الرزق لأهله.. يعني: أن الذي يحفظ ما في البيت من الطعام واللباس وغيره على نظام معتدل قد يوفر أحسن من تحصيل المسافر: (والاقتصاد في النفقة نصف المعيشة)، (وما افتقر من اقتصد)،

وحفظ البيت ونظامه من خصائص المرأة غالبًا، قال تعالى: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص/ ٧٧]. (انتهى).

* * *

عاقبة سوء الأدب

(من مجموع أبا بطين: نلخص منها ما يناسب المقام).

فمما قال الشاعر الفقير إلى عفو ربه (محمد العلي الجاسر ــ راعي الزلفي)، بسبب أولاد قدموا عليه، وقام بالواجب المفروض على الإنسان تجاه ضيفه، وامتحنوه بطلب أشياء لم توجد لديه، وعابوا عليه القهوة التي قدمها لهم وأشياء أُخرى لزعمهم أنه لا يُحسن إصلاحها، واشترك بسبب إنشاء هذه القصيدة عجوز تتحدث مع زوجته بناحية البيت لتفسدها عليه، تقول: مالكِ وإياه أما آن لكِ أن تتركيه وتذهبين عنه. إلى آخر قولها، فقال:

خطو الولد يخطى على غير مقدات ... ويعجب بنفسه من قرادة نصيبه
ما يشكر المعبود وال البريات ... ويصبر بحكم الله على ما يصيبه
يوم ارتهى النعمة تماهن بالأوقات ... يقضي ولو سمع النداء ما يجيبه
ما تمنعه زجر المواعظ ولايات ... يقرأ كتاب الله ولا يقتديبه
بيحت سدى من سبب خارب الذات ... ما هوب ودي مَار ربي حسيبه
لَتَّيت له حب البن عشر مرات ... ويقول فنجالك كثير سريبه
والخبز ما جود على كل حزات ... والبيض مفروض لزوم تجيبه
عاف اللحم والعيش يوم الغذفات ... يقول ما نأكل افضال غبيبه

مـا صكتـه سـود الليـالـي ابليعـات   وافـق اسنيـن مـرغـدات خصيبـه
زَكَّـن علينـا بـالشـروط العنيفـات   مـن غيـر حـق واجـب يـدعيبـه
ليتـه بعمـره حـاضـر لـه اسنيـات   يـوم السحـايـل والسنيـن المشيبـه
يَوْمِنْ لحم الْحَرْج[1] يؤكل إلى مات   والرجل بالوجبه[2] يرهن قليبه
والله يـا عصـر علـى جيلنـا فـات   شـيء يُـرَوِّعْ القلـب مـا ينحكيبـه
بين العرب ضاع الحيا والمروات   والله مـا يـرحـم قـريـب قـريبـه
خَلَّـوْ حـريـم ضـايعـات وعيـلات   تصخف لهم صم القلوب الصليبه
تسمع لهم بين العشاوين جَضّات   جَـوْعًـا تَـلاعـا يـا لهـا مـن مصيبـه
يـم البنـادر بيَّعَـوْ بـالخـوينـدات   كـن العـذارى مـن جـلايـب عتيبـه
والله ما تسوي المرأة عشر بيزات   بارت ولو هي من بيوت عريبه
واليوم ما تلقى عجوز بالأميات   ومـا تنستـر لـو كـل شـيء تجيبـه
وإيلا قطعت اغلاطها بالغويشات   تقـول هـذا شـايـب ويـش أبيبـه
ما تستحي لو هي عجوز موذات   تقـول سـرحـي مـا يـوافـق عـزيبـه
وراع العقل من مقصر لابو طرفاة   منـاب أحبـه مـآر شـر يصيبـه
وَاللِّي عسى يبلاك رب السموات   الـواحـد اللـي فـوق خلقـه رقيبـه
بلـوًّا عظيمـة شـأنهـا كبـر إبـانـات   عشـريـن عـام ضـايـع بـك طبيبـه
لو هي تخاف الله وتدري العقوبات   مـا فـرقـت بيـن الحبيـب وحبيبـه
ومن لامني بالعجز شبك الحبالات   لعـل مـا صـاب الـرعيضـا يصيبـه
كـم مـن أسيـر فكتـه بـالْحَيَـلات   وكم من حبيب دارته عن حبيبه

---

(١) الحَرْج والحرجة، هنا: هو المريض من المواشي أو ميتة.

(٢) الوجبة: هي عشاء أو غداء لعائلته، يرهن من أجلها ملكه.

وكم غافل تضرب محله ابغارات ... إلى أذن المذن وكبر خطيبه
تقول أنا لكِ من زمان اموصات ... وعندي اغريض كان ودك نجيبه
تجيك مثل ابليس مع كل وجهات ... كلٌّ تويق ابعورته واتحكيبه
يكرم بعضهن ما نجيله ابعرضات ... ما هو كل العجز تتهم ابريبه
تلقى بهن خطو الحرار العفيفات ... اصايل من كل خير قريبه
وحاذور عن شوها من المشفحلات ... تْشَيِّبْ رأسك قبل حزة مشيبه
ما شومة من جاحدات الحسنات ... تحب عدوانه وتبغض قريبه
والثالثة خرقا سروق مطورات ... إلى تغرب زوجها تستغيبه
مجهولة تأخذ حلاله اميادات ... هذا اتبايع به وذا تشتريبه
والرابعه هَوْجّا هروم امشقات ... مع صِيَّر البيبان مثل الرقيبه
كم ليلة من وسط بيته امسرات ... يغتاب خلق الله وعيبه بجيبه
تقول كَلْ قُوْتُنا يا ولد هات ... وباقصى محله مثل نار اللهيبه
ولا تأخذ الرّفلا تشوف العزرات ... لو إن ابوها بالمثل ويش طيبه
خطو المرأة تحدث بالاجواد غمات ... ونانة منانة ما تثيبه
وخطو المرأة ما تثمن بالجنيهات ... مستورة عذرًا ودود حبيبه
عذرًا تباشر زوجها بالتحيات ... وتمشي بشفه عند حزة مشيبه
رعبوبة حسنًا من السفهلات ... هذيك من بين العذارا غريبه
ما كل من غاص البحر جاب حصبات ... وما كل حض وافر ينعديبه
يا ألله ابعفوك من جميع الخطيات ... توبة نصوح قبل فجوى المصيبه
يا موجد المعدوم والى البريات ... تضفى اثياب عفوك وهيبه
وتبدل السيات لي بالحسنات ... وتشفي جروح بالضماير عطيبه

* * *

معرفة الأعلام

قيل:

إن الرويـة لهـا نـار منضجـة ... وللبديهـة نـار ذات تلويـح
وقـد يفضلهـا قـوم لعـاجلهـا ... لكنـه فضـل يـذهـب مـع الريـح

كانت الخنساء من نساء العرب القدامى، لما مات أخوها صخر جعلت ترثيه بشعر جيد يستشهد به في العربية، فقالت:

ولـولا كثـرة البـاكيـن حـولـي ... علـى إخـوانهـم لقتلـت نفسـي
ومـا يبكـون مثـل أخـي ولكـن ... أسَلِّـي النفـس عنـه بـالتـأسـي
ألا يـا صخـرُ لا أنسـاك حتـى ... اوسـد صخـرة فـي وسـط رمسـي

وكانت تقول:

إن الـزمـان ومـا يبـد لـه عجـب ... أبقـى لنـا ذنبًـا واستـأصَـل الـراسـا
إن الجـديـديـن فـي ممـرهمـا ... لا يفسـدان ولكـن يُفْسِـد النـاسـا

وكانت تقول:

وإنَّ صخـرًا لتَـأتَـمُّ الهـداةُ بِـهِ ... كـأنـه عَلَـمٌ فـي رأسـه نـار

والعلم نوعان: نوع هو: العلم المعروف (البيرق) للحرب... والعرضة ونحوه، والنوع الثاني هو: (الرِّجِمْ) وجمعها رُجُوم، وهو

حجارة يوضع بعضها فوق بعض شبه مقاصير في البرية فوق مرتفع تدل على الطرق وعلى المياه البرية، ولهذا إذا كان الرجل لم يعجبهم، قالوا: (أنت رِجْمٌ على غير ماء) يعني يَغْتَرُّ بِهِ مَنْ لا يعرفه، وأما الهداة فهم الأدِلّاءُ، رجال يعرفون الطرق، يَدُلّون أهل القوافل في الطرق البرية ليلاً ونهارًا، كما في المثل: (فلان يَدُلّ أَدَلُّ من القطاة): يعني يعرف الطرق: وكانت القطاة تعرف محل بيضها في البر ولو ذهبت بعيدًا عنه.

ومِنْ الهداة، الرسل عليهم السلام، يهدون الناس الطريق الموصل إلى الله وهو الصراط المستقيم، الموصل إلى الجنة، المنجِي من النار، (وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم صراط الله). ومن الأعلام أيضًا: أنهم يوقدون نارًا بالليل فوق مُرْتَفَع حتى يراها من يريدونه يأتيهم، وهذا هو: قولها عَلَمٌ في رأسه نار، أو يرفعون النار برأس خشبة لترى من بعيد. ومن الأعلام أيضًا: النجوم في السماء بالليل، تعرف بها الجهات ويسير عليها المسافر يعرف بها جهة قصده، كما قال: راكان بن حثلين في قصيدته المعروفة:

إيلا قضيت اللازم اللي عَلَيَّهْ ... اللازم اللي ما قضاه الهداني
حطيت الجَدِي في وَرْكِ المطية ... وبانحورهن يطلع سهيل اليماني
نبي ندور طفلة عسوجيه ... ريحة نسمها كالزباد العماني

فلا يمكن أحدٌ يسري بالليل في الطرق البرية إلاّ على النجوم، ولهذا إذا غلط بعضهم في بعض الأمور وعتبوا عليه، قالوا: (أنت ضائع: سارٍ في ليلة ما فيها نجوم)، وكانوا يعرفون النجوم وأسمائها وجهاتها.

ومن الأعلام أيضًا العلماء الصالحون يدلون الناس طريق الهداية المنجي من الهلاك الموصل إلى النجاة على طريق الرسول ﷺ، ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِىۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [يوسف/١٠٨]. (انتهى).

* * *

ومن صبر الرجال في الشدائد

قـــال:

إذا مضى ثمانٌ مع ثمانٍ مع اربع   تلقـى رجـالاً مـع رجـالٍ عـلايـق

معناه أنهم كانوا يسافرون المسافات البعيدة، ويذهبون للأعمال والأشغال، يمشون خلف الإبل ليلاً ونهارًا، صيفًا وشتاءً، ويزاولون حمل الأثقال عليها في كل مرحلة، فإذا طالت المسافة والمدة نحو عشرين يومًا أو أقل أو أكثر، فبعض الرجال لا يتحمل ذلك ويظهر ضعفه، وبعض الرجال يزيد قوة وشجاعة واهتمامًا، لا سيما وقد كانت الطرق البرية ذات مخاوف ومتالف: مِنْ قوم حرامية، وسباع، وهوام، وحر، وبرد، ومطر، ورياح، وظمأ، وتعب، وغير ذلك. والعلايق هنا هي ما يعلق على ظهر البعير وجنبه حالة السير (المشي) من عفش ومتاع، فصار ذاك الرجل الردي مع أصحابه مثل المتاع المعلق على الإبل أو غيرها، لا مساعدة به لأصحابه، بل هو عبىء ثقيل عليهم، كما قيل:

مـا كـل رَجّـال يعيضـك بـرجـال   ولا كـل مَـنْ ركـب المطـايـا يـدلِّ

(انتهى).

* * *

مقابل البغيض علّة

قيل: كان الإمام الحاكم خارج البلد في غزو أو غيره، هو وأصحابه، وجاءه كتاب من أهله، فلما قرأه ظهر عليه أثر الكآبة والحزن، والتفت إلى أصحابه، وقال:

يــا مــل قلـب قــد بـدا فيـه خلـه
عيـا يطيـق الصبـر مـن شـد مـا جـاه

ثم قال لأصحابه حلوه: فلم يعرفوا حله، فقال: حلوه ولكم جائزة؟ فلم يعرفوا معناه، لكن عنده رجل يقال له ابن عرفج، فقال له: حله يابن عرفج ولك جائزة، فقال:

عِلْـمٌ لِفـا مِـنْ نـور عينـي لَعَلّـه ... لعل جَرْحُه طايِبٍ عِقْبْ شكواه
يـا أللّـه دخيلـك قُـرَّةَ العيـن خَلِّهْ ... الطـف مِـنْ الـروح والـرَّبْ يـاقـاه
مْقابَلْ اللِّي ما تَبَـى النفس عِلّه ... ودي بـامـلامـا حيـة الجحـر مـالاه

معناه: أن زوجة الأمير مريضة، ويدعو لها بالعافية. ثم ذكر القرين المحبوب وأنه ألطف من الروح، والقرين البغيض: وأنه أبغض من الحية في جحرها، فأعطاه الجائزة. وهناك رجل حصل

بينه وبين جماعته نزاع واختلاف، فشامت نفسه عـنـهـم، فتركهم واعتنق غيرهم فأكرموه وكانوا خيرًا له من أصحابه، فتمثل بقصيدة، منها قوله:

زِبَنْــت عنهــم رفقــة دَلَّهَــوْنِــي والبعــد عمــن لا تــوده جَــلاهَــمْ

(انتهى).

* * *

الصَّبر والصِّبر والصُّبُر

قيل: كان رجل يسكن بيتًا صغيرًا هو وعائلته، فقيل له كيف تستطيع تسكن أنت وعائلتك بهذا البيت الضيق؟ فقال: إننا نستعين على ذلك بالصَّبر، والصِّبِر، والصُّبُر، الأول بالفتح هو: ضد الجزع، والثاني بالكسر هو: الدواء المسهل، والثالث بالضم لكن ما هو؟ هو الحجارة الصغيرة تفرش في أرض البيت تمنع الغبار في كثرة الحركة، فيساعد على التحمل، ذكر معنا ذلك في (القاموس).

أما الصِّبر، وهو (الدواء المسهل)، ففيه منافع وصحة للجسم، إذا استعمله على نظام معتدل، بحيث لا يكثر منه ولا يقاطعه، فإذا أحس بثقل أو يبوسة في باطنه أخذ منه بقدر حبة ذرة أو حبتين أو أكثر، ويعرف ما تحمله معدته بالتجربة مرة بعد أخرى غير متوالية، فيذيبه بقهوة أو نحوها، فيشرب صافية ينقّي المعدة من التعفنات، وقد ذكر منافعه ابن القيم في كتابه (الطب النبوي) على حرف (ص) فليراجع، فصحّة الجسم تساعد على التحمّل. (انتهى).

* * *

الدم المظلوم مـا يضيع
(السـمـيـن)

كان رجل في القديم يقال له السمين، قد قُتل غيلة لم يعلم قاتله، وكانت زوجته حاملاً، فولدت له ابنًا، فلما كبر سئل أمه عن أبيه؟ فأخبرته أنه قد قتل ولم يعرف قاتله، فثارت غيرة الابن وحميته لأبيه، فذهب يتمشّى مع الناس يتوجّس الأخبار عن أبيه؟ وغيَّر اسمه، فيعمل عند هؤلاء الجماعة مدة ليأخذ أخبارهم، ثم يذهب يعمل عند غيرهم، وهكذا.

وذات يوم كان عند جماعة، وحصل عندهم استعراض على ظهور الخيل، وكان هو معهم على فرس، وكان من عملهم في هذا الاستعراض أن كل واحد منهم يتمدح أمامهم بأفعاله النادرة في نظره، وإذا أحدهم يعلن فعله أمامهم، فقال:

أنـا أحمـد الله ذبحـت السميـن　　　يـوم أنـا حققـت عِلْمـانَهـا

فانتبه ابن السمين واهتز وعرف أنه هو قاتل أبيه: فهو بُغْيَتُهُ إذًا، فانتعش ورجف فرسه لتستعد فتقدمت فأوقفها وقال:

اسمعـوا كلكـم يـا حـاضـريـن　　　كـل كِلْمَـةٍ بميـزانهـا

ذاهبـه ضـائعـة مـن سنيـن　　　واحمـد الله بعقـلانهـا

فعرف ذاك أنه يعنيه ففر ليهرب، فرجف هذا فرسه وأرخى لها العنان فلحقه وضربه بالسيف فقتله، وصدق الله العظيم: ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ ﴾ [الإسراء/ ٣٣].

وهناك قصة أُخرى:

قيل: كان شاب في البادية، قد عشق بنتًا وهي عشقته، ولكن هي قد حَجَّر عليها ابن عمها فلا يتزوجها غيره، كما هي عادة معروفة في البادية.. فهذا العاشق اختار أن يقتل ابن عمها الحاجر ليخلو له الجو ويتسنّى له تزوُّجها..

فذهب يترصّد له في البر، فوجده وحده، فقال له ذاك: لا تقتلني فإنك سوف تقتل بـي! فقال القاتل: ليس هنا من يخبر عني! فقال: بلى هذا القمر سوف يخبر عنك! فاستهزل كلامه.. فقتله، ثم ذهب وتزوج البنت،

فبينما هو عندها، إذ طلع القمر، فضحك هو، فقالت البنت: لماذا تضحك؟ فقال: لمّا رأيت القمر ذكرت فلانًا، قالت: وما ذاك؟ قال: إني لما أتيته في البر وحده لأقتله قال: لا تفعل فإنك سوف تقتل بـي! فقلت: ليس هنا من يخبر، فقال: بلى، هذا القمر سوف يخبر عنك، فعلوته وقتلته، فسُمع كلامه هذا وعَلِمَ به أهل المقتول: فأتوه وأخرجوه من عندها، قال ما شأنكم؟ قالوا: أنت قتلت فلانًا! قال: ومن أخبركم بذلك؟ فقالوا: أخبرنا القمر! فقال: عجيب! والله ما علمت أن القمر يخبر.. فقتلوه. (انتهى).

* * *

صِياحُ الفَزَع ملجأ المضطهد

فالصياح العالي مفزع وملجأ عند الخوف والإرهاق، للضعيف والقوي، رجال ونساء، كبار وصغار. . عندما يُضايقه أحد يعتدي عليه يضاربه أو يقاتله، أو المرأة يُعتدي عليها في عرضها؛ فتصيح لتسلم، أو يُنْتَهب شيء من ماله، أو يَدْخل عليه بيتَه سارق أو غير ذلك؛ فيصيح المظيوم بأعلى صوته عدة مرات حتى يأتيه فَزّاع. . فالصياح العالي أسرع وسيلة إنقاذ، (فأنا أعرف عدة قضايا عِدائية، الْمُنْقِذْ منها هو الصياح العالي من المضطهد)؛ فإذا صاح المرهق خاف المعتدي وانهارت أعصابه، وفزع الناس إلى الصائح بسرعة يساعدونه وينقذونه. . حتى البهائم والوحوش والطيور تصيح عندما تضايق، فالصياح ملجأ المظيوم، سلاح على المعتدي.

وإنك الآن لتعجب من الخذلان عندما يُعتدى على الإنسان، رجال ونساء، في عرضه أو ماله، لم نسمع أن أحدًا صاح في هذا الوقت للإفزاع، وهذا وهن من الشيطان يساعد المعتدي.

وفي المثل: (إذا فات الفوت ما ينفع الصوت)، يعني: أن الصياح (صُراخ الإفزاع) يُبادَر به في أول معاينة الاعتداء، ليتحاشا نفود الإعتداء فيه، وليُدرك المعتدي فيمسك.

وفي المثل: (ما يجتمع ركض وصياح).

وذلك أن الطليعة ونحوه إذا عاين الخطر قَوْمًا أو غيره، من الأخطار والأضرار، أتى يركض ويصيح بالإنذار، وقد يشيح بثوبه.. هذا إذا كان الصائح قوي الجهد.. فإن كان ضعيف الجهد: عجز عن الصياح وهو يركض، فيقال: (ما بِهِ ركض وصياح)، وذلك أن الركض يحتاج جهد، والصياح يحتاج جهد، ويضرب به المثل لمن يعجز عن تحمل بعض الأمور الشاقة إذا اجتمع منها أكثر من واحد، فيقول هو: (أنا ما بـي ركض وصياح).

أما قولهم في المثل السائر: (ما يؤخذ عقب النَّذَر إلاَّ الفلان)، يعني: لم يهربوا ولم يستعدوا للعدو وقد أُنْذِرُوا، فأخذهم العدو. فهو مثل لأمثالهم، فالنَّذَر هنا: هو الإنذار بالحرب وتوقع هجوم عدو، بإخبارية الطليعة أو أهل الحمية، فهذه عائلة معروفة بالتواني والتهاون وعدم الحزم بأخذ الحيطة للأمر المخوف: يضرب بها المثل: تحذيرًا عن التهاون في الأمور، حتى لا ينعكس عليه الأمر أو تفسد أحواله أو غير ذلك. (انتهى).

* * *

قال: أبكي على رجال الصدق

قالوا للذئب: نريد نعطيك الغنم تسرح بها ترعاها في البر، فجعل يبكي، فقالوا له: لماذا أنت تبكي؛ فهل لا تريد تسرح بالغنم؟ فقال: إنما أبكي على رجال الصدق، ومن عادة الذئب أنه إذا انفرد بالغنم أكلها، فهو يبك على ذلك،

فيُضرب به مثلاً عامًا لما يشبه ذلك، وهو الأمر المشفَقْ على حصوله: (أبكي على رجال الصدق). (انتهى).

* * *

.. وهناك كلمات سالفة

يقال: (عظم فيل: حي بالف ميت بالفين).

ويقال: (الجادة لو طالت، وبنت العم لَوْ بارَتْ)، والجادة: هو الطريق المأثور، لأنك إذا سرت في غير طريق مأثور فربما تضل عن قصدك.. وبنت عمك لو بارت، أي كانت غير مرغوب فيها، فأنت تتزوجها، تقصد بذلك (منفعةً وَصِلَة)، ودفن عيوبها لأن عيبها يمس كرامتك.. فعلى هذا ننصح أبناء الوطن أن يتزوجوا بنات الوطن ولا يزهدوا عنهن لغير بنات الوطن، لاشتراك المصالح في المواطنة.

وقيل: (طقني وبكى وسبقني وشكى)، وهذا نوع من الوقاحة.

قال: يا بيـي (يا بوي)، لا تمت في هذه السنة الطيبة، فقال الأب: والله إن أبيك كأنه يقاد على وجهه، يعني للموت.. والسنة الطيبة هي: سنة الخصب، تصلح فيها ثمرة الزرع وثمرة النخل والربيع، وتطيب صحة المواشي (الإبل والغنم وغيرها)، ويكثر درها (لبنها) فيفرحون ويرغبون بذلك.

يقال: (فلان ما يدفن أباه إلاَّ بأجرة)، يُضرب مثلاً في قلَّة المروءة والصلة.

يقال: (لا تعذر عن الموت من قلَّة الكفن).

قيل: (يتمنون لك الموت ويشحون عليك بالكفن).

قيل: (يشير عليك بالجواز مَن لا يعنيك على الجهاز).

قيل: (يقتل القتيل ويمشي في جنازته)، يُضرب مثلاً للمتمرد، كاليهود ونحوهم وكل متمرد.

قيل: (من حقر صيدته ما أنضجها)، يعني: لم يهتم لها ويحقق إنضاجها بالنار حين يشويها: وهذا عبارة عن احتقار بعض الأمور حيث يستحق اهتمامًا أكثر.

قيل: (كلب تعسعس ولا كلب ربض)، وذكره في (القاموس المحيط) على قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ١٧﴾ [التكوير/ ١٧].

والمعنى: أن الكلب الذي يسعى ويتسبب ويتعسعس لطلب الرزق قد يحصل على شيء من ذلك، بخلاف الرابض، فإنه لا يحصل على شيء، والمقصود بهذا المثل هو: الإنسان، فالذي يسعى ويتطلب أسباب الرزق ليس هو مثل النائم أو معطل الأسباب.

قيل: (يتعلم الحلاقة في رؤوس اليتاما): (التعلّم في الحلاقة يؤلمهم: وهم ضعفاء لا يدافعون عن أنفسهم).

المعنى: أن هذا لا يرحم الضعفاء. قيل:

وما الحسن في وجه الفتى شرف له ... إذا لم يكن في فعله والخلائق

وقيل:

ولا تمش في منكب الأرض فاخر ... فعما قليل يحتويك ترابها

وقال المتنبي:

كلٌّ يرى طُرْقَ الشجاعة والندا ... ولكنّ طبع النفس للنفس غالب

يعني: كلٌّ يعرف ويعشق حالة الشجاعة، وحالة الندى (الكرم)، ويعرف أهلها ويمدحهم، ويعرف ضدهم ويذمهم، ولكن تجده هو لا يتحول عن طبيعته التي جبل عليها، لغلبة الطبع على النفس.

وقيل:

من لم يمت بالسيف مات بغيره ... تنوعت الأسباب والموت حاصل

قال تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾ [الأنفال/ ٢٤].

يعني: أنه قد يحول بين القلب والهداية فليست هدايته باختياره، ولكن اطلبها من الله واعمل لأسبابها. (انتهى).

* * *

أيضًا: تابع سهولة أحوال الناس سابقًا

قد ذكر الأستاذ صالح السليمان العمري: في كتابه «تراجم علماء القصيم»، في ترجمة الشيخ عبد الله بن محمد بن سليم، قاضي بريدة سابقًا، قال:

وقد حصل مرة أن أحد حجاج العراق قتل صاحبًا له، فَأُحْضِر القاتل وولي المقتول لدى الشيخ عبد الله بن سليم، وكان جالسًا على الأرض في أحد الشوارع، يقضي بين الناس، والعراقي يظن أنه ذاهب إلى محكمة عليها أبواب وحراس ولها مكاتب وفرش وكتاب..

فعندما أجلسهما خادم الإمارة عنده وسألهما عن قضيتهما وحكم بينهما، عجب العراقيون من ذلك، وقال أحدهم: (هذه القضية تنتهي بدقائق.. إنها عندنا تحتاج إلى سنة أو سنوات ومحامين ومرافعات). ثم التفت العراقي إلى بعض من حوله من السعوديين وقال: «حرام عليكم تخلون هذا يجلس على الأرض»، يعني الشيخ (القاضي). (انتهى).

* * *

قاعدة فقهية

إن المسائل الفقهية ليست من موضوع كتابنا، فلها رجال مُضَمَّرون في ميدان سباقها.. ولكن هذه المسألة مبناها على العرف القديم، لهذا صارت من موضوعنا.. وهي مسألة تحديد مسافة السفر في مراحل الإبل، ثم تعريفها في مسافة سير السيارة حاليًا.

ويُرْجَع في معرفة تحديد مراحل السفر على الإبل: إلى إخبارية أهل الخبرة فيه، الذين قد جربوه وسافروا على الإبل المحمَّلة في الأسفار البعيدة، إذ السير في السفر على الإبل نوعان: (سير إرهاق ــ وسير إبقى)..

فسير الإرهاق هو بعد مسافة المراحل أو ثقل الأحمال أكثر من طاقتها المعتادة، فهي تتعب أجسامها وتُدْبِر ظهورها، إلاَّ أن يكون سفرًا قصيرًا فتستريح بعده وتبرد ظهورها فهذا لا حكم له ولا ضابط.

أما الأسفار البعيدة المعتادة، فلا بدّ فيها من مراعاة أحوال الإبل، بحيث تستمر في حمل أحمالها وقطع سفرها من غير إضرار بها؛ فمراحل هذا السفر هي التي تطبَّق عليها أحكام السفر، ولا يمكن الناس يعيشون ذاك الوقت إلاَّ على هذه المراحل الرفيقة..

بقي علينا أن نسأل أهل الخبرة بهذه المراحل، في تحديد مسافتها ثم تحديدها في مسافة سير السيارة حاليًا.

فأنا أدركت الناس في هذه المراحل، وسألت أهل الخبرة فيها الذين أمضوا فترة من أعمارهم في هذه الأسفار على الإبل المحمّلة، فوصفوا لنا المرحلة الواحدة (بما يقدر بثلاثين أو تسعة وعشرين كيلو متر للسيارة)، أخبرونا مثلاً أنهم يجعلون ما بين حائل وبريدة (عشر مراحل).. فهذه مراحل جيدة ليست قصيرة، ووصفوا طرقًا أُخرى كذلك، وذلك في وقت الشتاء فهو أصبر للإبل على المشقَّة، أما وقت الصيف في الحر فقد لا تطيق الإبل كل هذه المسافة دوامًا، إلاَّ أن يكون سيرهم في الليل أو بعضه، ونعرف أن سير الناس يختلف، والوقت يختلف، فإذا كان الطريق ربيعًا فبعض الناس يرفق ويبطىء بالسير لأجل تسمن الإبل تحت الأحمال.. وبعض الناس بالعكس يغتنم الفرصة ويزيد في السير لأن الربيع يساعد الإبل على تحمّل المشقة، وإذا كان الطريق مجدبًا، أي قحطًا ليس فيه رعي للإبل، إذ علف الإبل في السفر هو رعي العشب والشجر، فإذا كانت الأرض رديئة أسرعوا حسب طاقة الإبل ليمروها قبل أن تهزل الإبل.. فهذه الحالات هي سبب اختلاف الناس في تقدير المراحل، ولكن المعول على معرفة المراحل المعتادة (كرحلتي: الشتاء والصيف)، ونعرف أن الإبل تقصد الطريق، أي تختصره، بخلاف السيارة فقد ينحى بها الطريق جبريًا فيطول.

* * *

كذلك.. فوائد فقهية

يحسن ذكر فائدتين هنا، قررهما شيخنا صالح بن أحمد الخريصي، رحمه الله:

الأولى: إذا وُجِدت الرخصة فإنها تعم، فإذا كان يوم مطير يبل الثياب، فالأفضل جمع الصلاة العصر مع الظهر والعشاء الآخرة مع المغرب، جمع تقديم فأهل المساجد، والنساء في البيوت، ومن يصلّي في محل لا يخرج للمطر، حكمهم سواء فأخذ الجميع بالرخصة أفضل، ومثله الإبراد بالظهر وقت الحر، يعم أهل المساجد والنساء في البيوت ومن يصلّي تحت ساباط ونحوه فالأخذ بالرخصة أفضل للجميع.

الفائدة الثانية: معروف لدى الجميع أن مسافة السفر التي تطبّق فيها أحكام السفر: هي مسافة مسيرة مرحلتين قاصدين للإبل المحملة في السفر المعتاد: وقد عرف مما تقدَّم مسافة المرحلتين في سير السيارة حاليًا أنها نحو (ستين كيلو متر)، فإذا سار الإنسان على سيارة أو طائرة فإنه يقطع هذه المسافة وأكثر منها بوقت قصير، فقرر شيخنا رحمه الله أن الأفضل أن يأخذ بالرخصة، فيقصر الصلاة الرباعية ويفطر في نهار رمضان، يقول: فهذه أحكام شرعية ثابتة صالحة لكل زمان ومكان

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ [المائدة/ ٣]. فلا يغيرها حدوث عارض، كسرعة سير السيارة أو الطائرة.. وتعليل الحكم هنا بالمشقة وعدمها لا دليل عليه، فهو يعارض عموم الحديث: «ليس من البر الصيام في السفر» رواه البخاري ومسلم عن جابر رضي الله عنه.. فالاستحسان والقياس لا محل له في الأحكام المستقرة الدليل، علمًا أنه إن أتم الصلاة وصام في السفر فصلاته وصيامه صحيحان لكنه ترك الأفضل، وهذا كمثل الإنسان يقرأ القرآن وسمع المؤذّن فإنه يقف القراءة ويجاوب المؤذّن، ثم يدعو بالدعاء بعده، ثم يعود للقراءة وإن كانت القراءة أفضل من الذكر، لكن فعل السنة في محلِّها في وقتها له شأن فهذا من إحياء السنَّة.. فكل ذلك تقرير الشيخ رحمه الله. (انتهى).

* * *

الحمّامات في القديم

لم تكن الحمّامات الخارجية توجد في القديم، ولا كانوا يعرفونها، ولكنها من الصناعات الحديثة قريبًا، وكان غالب الناس صحراويين لا يحتاجون الحمّامات، إنما يقضون حاجاتهم خلف الشجر والأثل وخلف الأكوام وفي المنخفضات وخلف النخل والجدران وفي الخربات ويسمونها المزابل، وكانوا يستجمرون بالحجارة ونحوها ويكفيهم ذلك، كما هي في السنة، ولا يطمعون أن يحصل لهم الماء يستنجون به.

والناس يتفاضلون في هذه الحالة، فبعضهم يكون فيه مروءة وحياء واحترام لنفسه وللآخرين، فيبعد عن الناس حالة قضاء الحاجة، ويختفي عن العيون، احترامًا لنفسه وللآخرين، فيعدون ذلك من مكارم الأخلاق، أما الإنسان الذي لا يبالي في أي موضع سنحت له الفرصة جلس لقضاء حاجته، فهذا يسقط من عيونهم وتسقط عدالته؛ فإذا رأوه هكذا ذكروا المثل السائر (الخسيس من الرجال قريب المبال)، والجلوس للبول أخف من الجلوس للغائط.

أما أهل المدن فلا يتأتّى لهم الخروج للمزابل في قضاء الحاجة، فيضطرون لِاتِّخاذ مِرْحاض خاص لقضاء الحاجة في ناحية البيت، ولا

يصلح فيه استعمال الماء إنما يقطعون الخارج بحجر ونحوه، ثم يذهبون يستنجون بالماء في موضع الوضوء، ويجمعون الرماد ونحوه يلقونه بالمرحاض ينشفه. وهناك عمال متخصصون يستخرجون الزبالة من المراحيض مع السماد العادي للمزارع، ولهذا كانت البيوت في القرى أصح للأجساد من البيوت في المدن.

فائـدة أيـضًا:

حيث كانت الحمامات الآن هي موضع قضاء الحاجة، وموضع الوضوء والغسل.

(فأنا سألت شيخنا عن التسمية في الحمّام للوضوء؟ فقال: (ذكر الله في الحمّام مكروه، والتسمية للوضوء واجبة، فلا بد من التسمية للوضوء والغسل ولو في الحمّام، وإنما يحرم التكلم بالقرآن في الحمام). انتهى كلامه رحمه الله.

* * *

تابع: سهولة أحوال الناس سابقًا

جاءت امرأة إلى الأمير تشتكي رجلاً في ضواحي البلد، تطلبه خمسة عشر ريالاً، فأمر الأمير بإعطائها ورقةً (كتابًا) يحضر معها خصمها حالاً، فذهبت بالورقة ووقفت عند باب المسجد فسلّمته إيّاها وأشهدت الجماعة وأكدت عليه أن يحضر غدًا عند مجلس الأمير بعد طلوع الشمس، حيث كان يبتدىء دوام الحكومة من طلوع الشمس إلى وسط الضحى، وبعد العصر إلى قبل الغروب. .

فلمّا أصبحت حضرت حول محل الأمير، وانتظرت نحو ساعة، فلم يحضر خصمها، فتقدمت للأمير وأخبرته، فأمر خادمه أن يركب الحصان ويحضره جبريًا، فركب الخادم وذهب إليه فوجده يمشي في الطريق، فأتى به، وإذا الأمير قد فَزَّ من العمل وانتهى الدوام، فسلّمه السجان، فلمّا صلُّوا العصر حضرت المرأة، وأخرج الخادمُ الرجلَ من السجن وقدَّمهما للأمير، وقال: هذه المرأة وهذا خصمها قد أحضرته، فقال الأمير للرجل: لماذا لا تعطيها حقّها؟ فقال الرجل: أنا أريد قاضي الشرع، فقال الأمير للخادم: اذهب بهما للقاضي ثم ارجعهما إليّ، فاختصما عند القاضي، ثم أرجعهما الخادم للأمير وأخبره بحكم الشيخ بينهما، فقال الأمير: (زين)، قرِّب لي الرجل وابطحه بالأرض وامسك

رأسه؛ فمسكه، وقام الأمير وأخذ العصا وضربه عدّة ضربات موجعة حتى صاح الرجل: (يا ألله التوبة ــ يا ألله التوبة)، فقال الأمير: إذا جاءك كتابنا المرة الثانية اقعد اشتغل في مزرعتك واترك أمرنا وراء ظهرك، ثم غرمه ريالاً: لخدمات الخادم.

فصار الناس كل من علم بفعل الأمير بهذا وأمثاله يحضر مع خصمه بدون شكوى خوفًا من العقوبة. .

فالحكم رحمة من الله لعباده في الأرض، فقد أدركنا الناس على مثل هذه الأحوال. (انتهى).

* * *

فصـل
في دعاء اللّه سبحانه

قيـل:

يـا مَـنْ لـه الفضـل محضًـا فـي بـريتـه
وهـو المـؤمـل فـي البـأسـاءِ والبـأس

عـودتنـي عـادة أنـت الكفيـل بهـا
فـلا تكلنـي إلـى خلـق مـن النـاس

ولا تُـذِلَّ لهـم مـن بعـد عـزتـه
وجهـي المصـون ولا تخفـض لهـم رأسـي

وابعـث علـى يـد مـن تـرضـاه مـن بشـر
بـرزقـي وصنّـي عمـن قلبـه قـاسـي

وقال أيضًا:

يـا أللّـه يـا فـرّاج يـا وال الأفـراج
يـا للـي غنـي والنـاس يَمُّـهْ محـاويـج

إفـرج لمـن كنـه بحـق مـن العـاج
متحيّـر ضـاقـت عليـه المنـاهيـج

والحديث: «اللَّهمَّ أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، إقض عني الدين واغنني من الفقر» رواه مسلم.

وكان النّبي ﷺ إذا خاف قومًا، قال: «اللَّهمَّ إنّا ندرأ بك في نحورهم ونعوذ بك من شرورهم» الحديث رواه أحمد وأبو داود، وفي حديث أيضًا: «دعاء المكروب: لا إله إلاَّ أنت سبحانك إني كنت من الظالمين».

وقد وعد الله سبحانه بإجابة دعاء المضطر وغيره إذا دعاه.

وقولهم: (عبادة الله تشريف لا تكليف)، قال:

كفى بك عِزًّا أنَّكْ له عبدُ ... وكفى بك فخرًا أنه لك ربُّ

* * *

مسرح أجرب

كان الناس لا بد أن يقتنوا الإبل، يعيشون عليها حسب وجدهم، فصاحب الجمل والجملين وأكثر، وأكثر تغذيتها هو رعي العشب والشجر في البر وحول البلد، وبعض الإبل يكون صحيحًا سليمًا، وقد يحدث في بعضها مرض الجرب في بعض الأزمنة، وهو نوع من الحساسية الجلدية، فهو التهاب ونشوفة وحكّة شديدة يسقط معها جميع الشعر من جلد البعير، قال الشاعر:

ذهب الذين يعاش في أكنافهم وبقيت في خلف كجلد الأجرب

فهو من الأمراض المعدية سريع العدوى، كما في المثل (أعدى من الجرب)، والإبل قد يجمعها المفلي (المرعي)، في البر.

فصاحب البعير السليم يلزمه أن يحضر حول بعيره يذود عنه البعير الأجرب حتى لا يعديه جربه، فإن أهمله يخالط الأجرب فأعداه بجربه فهو الملوم، أما راعي البعير الأجرب فلا عليه ملاحظة بعيره عن الصحاح، فيضرب به المثل في إهمال الشيء (مسرح أجرب)، يعني: لا يهتم له ولا يخاف عليه من مخالطة الصحاح.

فيستفاد من هذا أن الإنسان يلزمه أن يذود أولاده وأهله عن مراتع الجهل والفساد، ولا يكون مثل مسرح الأجرب، كما قيل:

لا يضــر الجــربــا قــرب سليمــة		ولكن السليمة من قربها تجرب

وكانوا يكافحون الجرب بالدهن (السمن) يخفف النشوفة والحكة في الشتاء حتى يأتي وقت الطّلِي (الربيع). أما علاج الجرب في القديم للقضاء عليه في البعير: فهو بعمليتين، وكل عملية بمادتين من العلاج.

أولاً: عمليـة الطَّلِـي لإزالـة الشعـر وتنعيـم عمـوم جلـد البعيـر، بمادتين، مادة النورة ـ ومادة الزرنيخ: فالنورة شبه الجبس يأخذون منها صاع، بمعدل ثلاث كيلو ويخضونه مع الماء في قدر كبير ثم يغلونه على النار، ثم يضعون فيه المادة الثانية (الزرنيخ)، بمقدار فنجالين أو ثلاثة مسحوقًا يشبه كبريت الغور، ثم يطفئون النار عنه فإذا برد أخذوا رَطِيبَةً من جريد النخل الأخضر فدقوا طرفها الغليظ حتى يتفتت شبه فِرْشِه، فيغمسونه بالنورة المركّبة ويلطخون به جميع شعر البعير من أعلاه إلى أسفله دَلْكًا يزيل جميع الشعر، فيبقى جلده نظيفًا لطيفًا، (كما عملته العفاريت لسليمان بن داود عليهما السلام لإزالة الشعر عن أرجل بلقيس ليتزوجها سليمان، حيث كان بها شعر كثير)، وبعد يومين يغسلونه بالماء والتنظيف.

ثم يقومون بالعملية الثانية، وهي دَهْنُه بسمن الغنم الطبيعي ثلاث مرات في ستة أيام متوالية، ويخلطون السمن بالسم الزعاف، يسمونه (سم ساعة)، فلا يقضي على الجرب غيره، إلاَّ حشرة توجد في زهور العشب الربيع تسمى (الذرنوح)، شَكلهُ أسود مستطيلٍ بقدر رأس الأصبـع، يسحقـونـه ويجعلـونـه مـع دهـن الجـرب يكفـي عـن السـم، ويحافظون على تَذْراتِ البعير بعد الطلي عن البرد حيث يكون وقت

الطلي في أوقات الربيع، ويذرونه أيضًا عن حرارة الشمس إن كانت، حتى يستتم شعره فيذريه، أما في هذا الوقت فقد ظهر علاج الجرب بسيطًا والحمد لله.

ملحوظة: في حالة عملية الطلي يحصل من البعير رُغاء شديد حيث يؤلمه، كما في المثل: (قال ما علمتنا نعاونك على هذه الجربا؟ قال تسمع رغاها)، يعني: لو أنك صادق تريد تساعدنا لم يخف عليك الأمر لأنك تسمع الرُّغاء المعروف للطلي.. ولكنك تريد تتجمل بِالْهلُفِي، وهو الكذب المموّه خلاف الصدق والصراحة، فصار هذا مثلٌ سائر، (قال: ما علمتنا نساعدك على هذه الجربا؟ قال: تسمع رغاها). (انتهى).

* * *

الصبر على القرابة.. وتحمُّل النواقص منهم

قـــال:

والله لَـــوْ شِنْتُـــمْ علينـــا وشِنّـــا　　يا الكل ماله عن قريبه ولو شان

كما يقال: (لولا الحمايا أكل الذئب الغنم).

وكما يقال في الذي ليس به حمية للقرابة: (أنت شجرة ما تذرِّي على جذعها)، يعنون: شجر البر. . كان عامته يغطي جذوعه عن لفح الرياح والسموم.

هنا: كلمة شاعر بخيل. . لكنها عربية فصيحة، قال:

إنّـــا لا نـــدع إكـــرام الضيـــف مـــن قلّـــة

لكـــن مخـــافـــة أن يـــرغـــب فينـــا فيعـــود

قـيـل: معروف أن عنترة من أشجع العرب القدامى: ولكن انفلت ثور مخوف، فهرب الناس خوفًا من الثور وهرب معهم عنتر، فقالوا كيف تخاف من الثور وأنت عنتر؟ فقال: (ومن يدري الثور إني عنتر؟)، وهذا لأن الناس كانوا يخافون من الرجل الشجاع، وربما انفعلوا عند ذكره من مخافته قبل لقائه، وعنتر خاف من الثور لأن الثور ثور لا يعرفه فيخافه.

يـقـال: (السم ما يؤكل تجربه)، أي لا تأكل السم تقول أجربه، هل يقتلني أم لا؟ وكذلك كل شيء ضارًا أو به خطر فلا تجربه بآدمي.

وقال حكيم: (إن مَا اغْتَلَبْتَ ما قضيتَ لازم)، وهذا صحيح، لأنه ليس كل الأمور تأتيك متيسّرة وإذا لم تَصْبِر على الزيادة فقد لا ينقضي لازمك.

قـال شاعر نبطي:

طـالـب المقفيـن يقنـع بـالاهبـال مثـــل وَرّاد الطـــوال اِبْلَــيًّ عـــدة

الوراد: هو الإنسان يرد على البئر في البر يريد الماء منها لسقي المواشي أو يملىء القرب يحمله للشرب وغيره، وإخراج الماء من البئر البرية لا بد أن يكون بالدلو، فإن كانت البئر قصيرة فالماء قريب يستطيع الرجل أن يمتحه بيديه، وإن كانت البئر طويلة فالماء بعيد لا يستطيع إخراجه إلاَّ بِعُدَّة.. والعدة هي: الحبل الطويل مع الدلو والناعور: وهو خشبتين أو خشبة لها رأسان تنصب فوق البئر تركب فوقها المحالة (البكرة) من الخشب تدور على محورها وظاهرها مجرى الحبل (الرشا)، تدور به، ورأس الرشا يمسكه الرجال وينزعونه كما مر، أو يربط بالجمل ويركبه أحدهم أو يسوقه، وينزعه من البئر فإذا ظهر الدلو ملآنًا ماء، مسكه أحدهم وجذبه عن البئر، ويُرْجِع الجملَ صاحبُه قليلاً ويقف فإذا أفرغوا الدلو بالحوض أنزلوه في البئر جاء الجمل فإذا غطس الدلو بالماء أنزعوا الجمل وهكذا. ولكن المشكل أن الإنسان قد يـرد علـى البئـر الطـويلـة يـريـد المـاء وهـو ليـس معـه هـذه العـدة

الموردة الماء الطويل، فمثله الإنسان الذي يسعى في طلب أحد قد أقْفى عنه، أي منصرف عنه لا يريده: فمحصوله الاهبال، فمثله الذي يطلب معشوقته يريدها وهي لا تريده، أو هي تريده وهو لا يريدها وهذا يقع كثيرًا، وهذا من مشاكل الحياة، كما قال:

عَلُقْتُها حُبًّا وَعلُقَتْ بحبها رجلاً غيري
وعَلُقَ بحبه غيرَها الرجلُ

(انتهى).

* * *

إسأل الله البركة في رزقك

قيل: كان رجل فقير (زاهد) وله زوجة وقد ضاقت عليها الحال، وذات ليلة هتف به هاتف، قال: هنالك ألفا درهم، يقول: فقلت له: هل فيها بركة؟ قال: لا، قلت: لا أريدها.. فلمّا أصبح أخبر زوجته، فقالت: والله إنك طباقة تكفىء رزقك، تعاف ألفين جاءتك مجانًا؟ فقال: إذا كانت ما فيها بركة فلا خير فيها..

ثم هتف به مرة ثانية، قال: هنالك ألف درهم، قال: فقلت: هل فيها بركة؟ قال: لا، قلت: لا أريدها.. فلمّا أصبح أخبر زوجته، فتأسفت أكثر من الأول..

ثم هتف به مرة أخرى، وقال: هنالك خمسمائة درهم، قلت: هل فيها بركة؟ قال: لا، قلت: لا أريدها. ثم ما زال يهتف به وينزل من كميتها حتى بلغ درهمين، قلت: هل فيها بركة؟ قال: نعم، قلت: هاتها. وأخذها..

فلمّا أصبح أخبر زوجته، فقالت: هذا كفؤك، تترك ألفين وتأخذ درهمين، فقال: يا بنت الحلال هذا الذي حصل، فخرج بالدرهمين إلى السوق ليشتري بها طعامًا لأهله، فلم يحصل بالدرهمين شيئًا، ثم ذهب إلى باعة السمك لعله يجد شيئًا بالدرهمين، فلم يجد، فالتفت

السماك وإذا سمكة خضراء منتنة، فقال: إذا تبغي هذه بدرهمين؟ فقال الرجل: هاتها، وأتى بها إلى أهله، فقالت: هذا كفؤك هذه المنتنة، ثم تلثمت وقامت تغسلها لتقلاها، فلمّا شقّت بطنها وإذا فيه درة عظيمة، فنادته: أبشر أبشر.. فحمد الله سبحانه على رزقه وفضله، ثم خرج بالدرة إلى السوق وباعها بقيمة كثيرة والقيمة فيها بركة.. فقد يكون هذا من كرامات الأولياء.

وقد ذكر شيخ الإسلام مثلاً للبركة وعدمها، فقال: انظر قلَّة البركة في الكلاب، فالكلبة تلد في كل سنة مرة أو مرتين وتلد عدة أفراخ من أربعة إلى ستة إلى ثمانية في كل مرة، ثم انظر إلى قلّتها بالنسبة لهذا الإنتاج.. وانظر في نزول البركة في الغنم، تلد الشاة في السنة مرة واحدة وقل أن تلد اثنين، وليس كل شاة تلد في السنة، فبعض الغنم تحيل (حايل) ليس فيها ولد، ومع ذلك انظر كثرتها رغم ما يذبح منها كل يوم، وذلك بركة من الله رزقًا لعباده.. فالحمد لله على فضله وإحسانه.

وفي هذه الأزمان حيث ازدهر الاقتصاد، قَلَّتْ مبالاة الناس بالمحافظة على أسباب البركة، فكأنهم قد استغنوا عن الله، وما أسرع زوال النعم عند قلَّة الشكر، فقد أمر النّبـي ﷺ بآداب الطعام عند إرادة أكله وإصلاحه طلبًا لنزول البركة فيه وعبادة لله، فقال: «يا غلام سمِّ الله وكّل بيمينك وكل مما يليك» رواه البخاري ومسلم.

فمن أسباب البركة في الطعام: ذكر اسم الله في أوّله قبل الابتداء، ومنها الأكل والشرب باليد اليمنى، ومنها لعق أصابع اليد بعد الأكل،

ومنها الأكل مما يليه، ومنها لعق وتنظيف محل أكله من الإناء، لقوله: فإنكم لا تدرون في أي طعامكم البركة، وقد ترك أكثرُ الناس لعق أصابعه ولعق موضع أكله، فتجده إذا انتهى من الأكل مسح يده بشيء ما، أو رفعها حتى يغسلها، ويترك موضع أكله من الإناء، كأكل البهيمة تكبّرًا في حق النعمة وقلّة أدب مع الله، ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾﴾ [النساء/ ٨٠].

ومنها: حمد الله بعد الأكل، ومنها التواضع في الجلوس للأكل وعدم الاتكاء، ومنها احترام الإنسان الكبير عند الأكل فيتأدّب له من هو أصغر منه فلا يبتدىء بالأكل إلاّ بعده، فقد أدركنا الناس على ذلك حتى إنه إذا كان الطعام أنواعًا وانتهى الصغير من نوع منه فلا يبتدىء بالنوع الثاني إلاّ بعد ما يبتدىء الكبير فيه لأن صغار الناس يحترمون كبارهم وكان الناس يعلمون صغارهم الآداب في كل شيء واحترام كبارهم، ومَن حُرِم الأدب حرم الخير، ولولا الْمُرَبِّي ما عرفت ربي، كما قيل:

أَدِّبْ وليدك كان تبغيه يشفيك ... لو زعلت أمه لا تخليه يالاك

(انتهى).

* * *

سحر الكراسي

ومن شعر جمال الدين رجب، قال:

يشد إلى سحر الكراسي حياته ... ويرجع بعد الفوت ينشد ذاته
تلمح في تلك الأرائك نشوة ... تخيلها صحوا فكانت سباته
وفاق على سر الحقيقة صارخًا ... فأجهش إثْرَ الركبِ والركبُ فاته

والإجهاش هو الاستخفاف والعجلة، والركب هم: الجماعة ساروا في طريق راكبين الإبل ونحوها، وهو هنا كناية عن الحال. وكلام هذا الشاعر له معنى عميق، ولكن الذي يتبادر إلى فهم العوام أنه يعني بسحر الكراسي، هو الإخلاد إلى الراحة والتنعّم وترك التعب في طلب المعالي والشرف، وهذا الإخلاد والتنعّم في هذا الزمان هو الغالب على كثير من الناس، وهذا في الحقيقة هو فساد المجتمع، وهذا غاية دسائس أعداء المسلمين في دعوى تطوير الحياة. (انتهى).

* * *

مـن أقـوال السلف

قال بعض السلف: ليس بين الله وبين الخلق نسب إنما هو التقوى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات/ ١٣]. كما قيل:

مـن كـل شـيء إذا ضيَّعتـه عِـوضٌ   وليس في الله إن ضيَّعت من عِوضِ

وقـيـل:

. . . . .   وكـل شـيء سـوا التقـوى أبـاطيـل

وقـيـل: (بَذْرٌ بالرجال ولا بذر بالدمال)، يعني: بَذْلَ المعروف في الرجال ما يضيع وأحسن وأفود من بذر الزرع في الأرض لتحصيل المال.

وقـيـل: لا تُزَاعِمْ مَنْ إذا قال فعل.

وقـيـل: اضرب الحمار يستأدب الحصان. (انتهى).

* * *

كُـلٌّ لخدنه يطربِ

كانت البيوت من الطين، ويجعلون السطح به ميلان قليلاً لينحدر السيل بسرعة على الميزاب. . والميزاب قطعة من خشبة غليظة نحو طول ذراعين، ينحتون جانبها بالطول، فتكون شبه زاوية مثلثة، ثم يغرزون طرفها تحت السقف (الغما) جهة الشارع فوق الجدار، ينحدر عليها الماء من السطح، ومخرج الماء من السطح مفتوح على الميزاب، ويسميه بعضهم (المثعب)، فكان الصبـي يلعب فوق السطح، هو صغير يحبو حبوًا، فخرج من الفتحة على الميزاب يحبو حتى وصل رأس الميزاب الخشبة فوقف، وجعل يبكي لا يدري أين يذهب؟ ففزع الناس مع أهله وصاحوا وتنادوا ليمسكوه، ولكنه بعيد عن السطح لا تصله أيديهم، فينادوه ولا يعرف يأتيهم فيبكي. .

وطارت عقولهم أن يزلّ فيسقط، فأعياهم الأمر كيف ينقذونه؟ فحضرهم إنسان ذكي، فقال: هاتوا صبيًا مثله وأدخلوه عليه في الميزاب (المثعب) وأنتم ماسكوه، لعله إذا رأى جنسه يعرف يأتيه يدنوا إليه فتمسكونه: فأتوا بصبـي مثله وقرّبوه منه، فضحك الصبـي ذاك ورجع يدنو إليه، فمسكوه والحمد لله رب العالمين. (انتهى).

* * *

اغترار بالمظهر

قيل: قدم على الأمير رجل ذو هيئة، فلم يعرف الأمير مستوى الرجل، لأجل يعرف مقدار استحقاق الضيافة، لتفاضل الناس في المستوى، فالأمير استشار أحد رجاله، فقال خادم الأمير: أنا أختبره لك، فقال للرجل: تفضّل معي؟ فذهب به إلى مجمع الخيل يفرّجه عليها، فجعل الرجل ينظر فيها ويقول: ما شاء الله خيل طيبة؛ ولم يميز فيها شيئًا.. ثم ذهب به إلى الإبل فجعل ينظر فيها ويقول: إبل طيبة.. ثم ذهب به إلى الغنم فجعل يقول: ما شاء الله غنم طيبة.. ثم ذهب به إلى الفلاحة وأنواع المزرعة فجعل ينظر ويقول: ما شاء الله هذا زين هذا طيب، حتى مرَّ على جذع نخلة يابس فوقف عنده وضربه برجله وقال: والله مِنْ زِيْن الطِّيْران بهذا النبع (الجذع)، فعرف الخادم مستواه.

قوله (الطيران): هو جمع طار، وهو الدف، أو طار المنخل. (انتهى).

* * *

تكرمة الله بني آدم

قيل: لَمَّا تكونت إحدى الدول في الغرب واتسع نطاقها، اكتشفت غابةً وحشية في إحدى نواحي البَرّ حولها، وإذا فيها أُناسٌ من الآدميين، قد عاشوا مع الوحش، يستوحشون من الناس ويهربون منهم، لا يعرفون لغة أحد، ولا يعرف لغتهم أحد. فمسكوا جزءًا منهم، ولكن لا يَفْهَمون ولا يُفْهَم منهم. فاقترحت الدولة: أن يزوج الرجل الوحش امرأة مدنية، والمرأة الوحشية يتزوجها رجل مدني، لأجل ينتج بينهما طفل ينشأ على معرفة لغة أمه الوحشية، ولغة أبيه المدني. فلما نشأ أولادهم على هذه الركيزة: ذهبوا بهم للغابات يدعون الوحشيين بلغتهم يترجمون لهم ويفهمونهم بالحياة الإنسانية، فانقادوا لهم، فاستجذبوهم وأدخلوهم في الإنسانية. فسبحان الله المتصرف في خلقه، المحيط علمه بكل شيء. (انتهى).

* * *

جوخة أهل الضبط

كانت للناس عادات طيبة، ومنها التجمّل والتستّر أمام الناس، رغم أنهم في وقت قلّة وحاجة، فتجد الرجل قد أعَدَّ له بشتًا أو عباءة حياكة وطنية من الصوف أو الوبر، (فالصوف شعر الغنم والوبر شعر الإبل)، وهو أنعم وأحسن من الصوف ويوجد البشت من الوبر الناعم حتى الآن..

الحاصل: أن الناس إلى الوقت القريب، فالرجل لا يدخل السوق (الباعة) إلاَّ عليه بشت، وربما ترك حاجته من السوق إذا لم يجد بشتًا يلبسه، وكذلك حضور صلاة الجمعة وحضور المناسبات والأعياد، لا بد من لبس البشت، ويستعير بشتًا يلبسه إذا لم يكن لديه بشت أو عباءة، وهذا عندهم تجمّل وتستّر أمام الناس، فلو أن أحدًا منهم حضر أحد هذه المواضع وليس عليه بشت أو عباءة لتساءلوا: ماذا أصابه؟ وكيف انحط إلى هذه الدرجة؟ زد على ذلك أن أجسامهم تغلب عليها الخشونة والنشوفة بسبب الأعمال البرية وثيابهم واسعة صفيقة، أي (غليظة)، من القطن المسمى (الخام السواحلي)، ومثله للنساء يسمى (الجاوه)، ونحو ذلك من اللباس الساتر.. وفي هذه الأزمان قد تغيّرت الأحوال كما ترى، فقد تركوا لبس البشت إلاَّ قليلاً.

وأبو صالح كان يحافظ على لبسه البشت، يقول: فعذلني رجل بقوله: كل الناس تركوا البشت إلاَّ أنت يا أبو صالح؟ يقول: فهممت بترك البشت، وذات يوم وأنا أصلّي الجمعة في المسجد وعليّ بشتي وإذا أمامي رجل من بعض رجال هذا الوقت ثوبه ضيق وجسمه ضخم وليس عليه بشت، فإذا رفع رأسه من الركوع أو السجود، وإذا ثوبه قد عَظَّه مقعده ومسكه، فصار ملفت أنظار أمام الناس، فقلت في نفسي: إن الرجل الذي يعذلني ويشير عليَّ بترك البشت يبغيني أكون مثل هذا، يقول: فصممت على لزوم البشت ما دمت حيًّا.

وهذا التجمّل والتستّر هو فعل أهل الضبط.. فقد كانت عندهم جوخة شبه البشت، بل هي أفضل منه، من نوع الجوخ الرجالي غير النسائي، ومن أراد منهم أن يدخل السوق لبسها للتجمّل والتستّر، كما في المثل: (الكسوة جناح ابن آدم)، والمثل الآخر: (إِلْق عدوك مِكْتَسِي ولا تلقاه شبعان)، فصار الناس يظنونهم كلهم لهم جوخات ويغبطونهم على ذلك، ويضرب بها المثل: (جوخة أهل الضبط)، في القليل المستكثر. (انتهى).

* * *

الخلاوي راشـــد

هو من نوادر الرجال في نوعه، وقد أعطي الحكمة في معرفة الأوقات، والطوالع (الأنواء) والنجوم وأوقات الزراعة واختلاف الطقس، وغير ذلك مما اشتهر به عند كثير من الناس، حتى صارت أمثاله مرجعًا في ذلك، كما اشتهر بالصدق، وأنه لم يؤثر عليه كذبة، وكان من آحاد العرب المتنقلين على الحمير.

جاء مرَّة ونزل بجوار قطين من الأعراب فلم يأبهوا له لأنهم لم يعرفوه، وحصل عندهم مناسبة ولِيمة فلم يعزموه ولم يدعوه للحضور، فعرف أنهم لم يعرفوه، وأراد هو تعريفهم إياه، فلما أصبح شد على حميره أي حمل عليها أثاث الركوب والحمل، وقال لزوجته إني سوف أذهب أتطلب الصيد لأعزم الجماعة على العشاء، ولكن أنتي اجمعي حطبًا وقدورًا كبارًا (أواني الطبخ) وماءً لتكوني على استعداد حتى أجيء إن شاء الله، فذهب يصيد، وكان الصيد الوحشي ذاك الوقت موجودًا كثيرًا وافرًا من كل نوع: من نوع الظبا ونوع الوعول ونوع الوضيحي ونوع الأرانب ونوع الحبارى وغير ذلك، وكان الشجر في البر كثير وكبار، فيدرق فيه الصيد، فيصاد باليد، وبالعصا، ورمي الحجر والرمح والنبل، وغيره من الأسباب الخفيفة.

الحاصل: أنه تحصل على صيد كثير يكفي غرضه، فحمله على حميره، وأتى به إلى زوجته، فقامت بإصلاحه وطبخه، ثم ذهب للجماعة ودعاهم دعوة للعشاء، فلما حضروا وتعشَّوا، تمثَّل هو بقصيدة وصف بها الواقع وأنهم لم يعرفوه، فقال:

يقول الخلاوي والخلاوي راشد — للناس مِيْلانٌ وَنَا لِيْ لسانِيَهْ
إلاَّ نزل الناس الطّمان نزلت العلا — في منزل كل الخلايق ترانيه
وشبيت ضوٍّ يجذب الضيف نورها — عليها من لحم الجوازي ثمانية
ودعوة جيراني على طيب القرى — يوم إنْ داعِيهم دَعا ما دَعانِيَهْ
والله ما خَلِّيْ الطيب ونكس للردا — والأموال عارية والأعمار فانية

لذلك عرفوه فقاموا إليه واعتذروا منه، فصاروا يقدرونه بعد ذلك.

ومن فوائد أقواله:

يقول الخلاوي والخلاوي راشد — جديد البنا من زينات القصائد
قل لبيت الفقر لا يأمن الغني — وبيت الغني لا يأمن الفقر عائد
ولا يأمن الضعيف جمع يعزه — أولا يأمن القوي الضهايد
ومن عود الصبيان ضرب بالقنا — نخوه يوم الكون يابا العوائد
ومن عود الصبيان أكْلاً ابيته — نصوه بايام الليال الشدائد
ويا طول ما وسدت رأسي قتاده — من خوفٍ يعتاد لين الوسائد

إلى أن قال في مدح أمير:

سريع القرا للضيف في ليلة الشتاء — عيد المقاوي سيد الجود ما جد

يهلـي بضيفـه بـالنبـا حينمـا لفـا	عن العذر دون اللوايا الوهايد
وإذا بغي يمضي على العزم وانتوى	أخذ رأي ألف وانتقى منه واحد

فالصبيان هنا: هم شباب الرجال الشجعان، والقنا: هو الرمح، يعني التساعد على الحروب وغيره من الأمور المهمة، والقتادة: شجرة برية كثيرة الشوك، وهذا منه كناية لاعتياد الخشونة والتصلّب، للقوة والتحمّل والشهامة. وقال أيضًا في الشجاعة:

ولا تعف عن من لا يرى العفو مِنَّةً	من جاءك منهم بصاحب لا تصاحبه
ما طاعك إلا من فرا الزّانُ جنبه	ولا هابك إلا من وطا السيف غاربه
رأس تقصّــه تكتفــي بــأس شــره	وروح بلا رأس فلا جائتك حاربه

ولمّا قربت وفاته وظن أنه يموت، وكانت زوجته حاملاً، وكانت له بندقية فتيل، وكانت البندقية عزيزة عليه، لأنها ساعده الأيمن، ومن اعتـزازه بهـا لا يريـد أن يستعملهـا أحـد بعده إلاّ أن يكون لـه ولد ذكي مثله، فحفر بالأرض حفرة عميقة شبه بئر صغيرة، أو هو دَحَلٌ في البر بعيدًا من النـاس وعلّق بهـا البنـدقية وطبّـق عليها بحجر، ولم يخبر بها أحدًا، ولـكنه قـال لزوجته حين سألته عنها: إن ولدتي لـي ابنًا وسألكِ عنها قولي له:

عـن طُلَيْحـة الجـود تَـوْقِيـم رَوْحِـهْ	عليهـا شمـالـي النسـور يغيـب
عنهـا مَهَـبَّ الهيـف رجـم وفيضـه	حـــروري للـــرأس النجيـــب

ثم قال: وإن ولدتي بنتًا أو ابنًا ولم يسأل عنها فلا تخبري أحدًا بقولي هذا. فولدت له ابنًا، فلمّا بلغ الرشد وإذا هو يسمع الأخبار عن

بندقية أبيه، فسأل أمه عنها قائلاً: أما لأبـي بندقية؟ قالت: بلى، قال: وأين هي؟ قالت: لا أعلم عنها إلاَّ أنه قال: إن سأل ابني عنها فقولي له: إن أباك يقول.. ثم أخبرته بالقصيدة، فقال: خلاص: الآن عرفت محلها.

ثم ركب ناقة وذهب إلى طليحة الجود، وهي معروفة في طريق الموارد الشمالية الشرقية من نجد، فنزل عندها، فلمّا صار الليل وصار النسر الشمالي على المغيب، وهو نجم مضيء يغيب في الأفق الشمالي الغربـي، وضع رجمًا على صوب مغيبه علامة، ثم نام وأصبح في مكانه وأقام حتى كان بعد الظهر قبل العصر وقت الرواح، وهو وقت معروف عند أهل السفر والأعمال، يفيخ الحر ويبدأ البراد، فسيره إلى المغرب يسمي رواحًا وروحة، فركب ناقته وسار معدلاً على جهة مغيبه حتى وقت الغروب، وإذا الرجم والفيضة عن يساره خلف منكبه الأيسر، لأن الهَيْف هنا جهة ما بين الغرب والجنوب: (وسمي هيفًا لأن هبوب الريح منها مضرًا على الزرع القمح المتأخّر، لأنها ريح ناشفة.. فَيُهَيِّفْ: أي ينشف الزرع قبل استوائه إذا لم يتوفر له السقي، فتنقص ثمرته، حتى جسم الإنسان يحتاج شرب الماء إذا كانت الريح هيفًا، فنزل وبات في موضعه، فلمّا أصبح جعل ينظر حوله، وإذا حجر كبير شبه طبق، فتحامل له فرفعه وإذا الحفرة تحته، فنزل فيه وإذا البندقية معلّقة بجانبه لم يمسّها شيء من الخراب، فأخذها وخرج ونظر وإذا حولها صخرة كبيرة بيضاء، فقال الابن يعني أباه، شعرًا:

وراه ما قال علامتها فوق جالها　　　هَضْبَة كِنَّها خيمة بامراح عزيب؟

يقول: لماذا لم يذكر من علاماتها هذه الصخرة القريبة منها الكبيرة الظاهرة البيان. والأب لم يخف عليه ذلك، ولكنه أراد ألا يتحصل عليها إلاَّ إن كان رأسه نجيب، أي: ذكي يفهم الوصف، ويعرف العلامات، ودلائل الحال، والمقارنات، من هذا الشعر، كما وقع منه ذلك.

تعريفه الطوالع

أما ما يُذكر عنه في معرفته الطوالع (الأنواء) ومطابقتها لأحوال الزراعة واختلاف الطقس وغير ذلك، مما يتناقله الناس، فهو كثير، فنذكر بعضًا منها إن شاء الله تعالى، مما يستفاد بمعرفته معرفة الماضي وتصاريف الكون بقدرة الباري سبحانه.

فنجم الثريا يسميه (الخلاوي راشد): النجم الكبير، وهي مجموعة نجوم صغار كثيرة (الواضح منها نحو سبعة) على شبه خف أو عنقود، فَيُرَكِّب على طلوعها وغروبها كثيرًا من الأمثال وقواعد الزراعة، من ذلك قوله:

إذا طلعت الثريا من عْشَيّا   ترا زرع الشتا قد تهيا

يعني جاء وقته، ويقول في مقارنة القمر للثريا في الليل (اقران حادي برد بادي)، يعني: أول الشتاء المربعانية، (اقران تاسع برد لاسع)، يعني: وقت الشبط، (اقران سابع مجيع وشابع)، يعني: وقت العقارب، فيبدأ الربيع في البر، فبعض الدبش قد شبع من العشب

وبعضها حتى الآن، ثم قال: (اقران خامس ربيع طامس)، أي: جيد، (طَيْخَت الربيع، (اقران ثالث ربيع ذالف) ـ (تموت وهي على الجابية)، يعني: ينتهي الزرع القمح وييبس ولو كان على حوض الماء، (اقران حادي على الماء تنادي) ـ (على الحوض ترادي)، يعني: الإبل تتردد على الماء تشرب في وقت الحر، وقد كانت لا تحتاج الماء وقت البراد والربيع. ويقول أيضًا:

إذا غابت الثريا ثم قابلت فكل خضرا ودعت بسلام
وإذا غابت الثريا ثم قابلت ما نرجي الحيا إلاَّ من قابل عام

ويقول:

إذا وازنت الشعرا سهيل من عشا مثل مَتْحَةْ الدلو للرشا
أول يوم من الربيع وآخر يوم من الشتاء

والشعرا هنا هو (المرزم): النجم المضيء خلف الجوزاء، فإذا حاذى المرزمُ سهيلاً في كبد السماء أول وقت العشاء الآخر أيام انتهاء (العقارب)، مثل متحة الدلو للرشا، فهذا قوله أول يوم من الربيع وآخر يوم من الشتاء، ويقول: (إذا طلعت الجوزا املأ الحوزا)، يعني: قد بدأ اللون بالنخل، والحوزا هي المخباة، (وإذا طلع المرزم املأ المحزم)، (وإذا طلعن الكليبين تأخذ الحفنة من المدين)، يعني: قد بدأت عينة التمر في النخل (وإذا طلع سهيل تلمس التمر بالليل)، يعني: في النخل، ويقول: (إذا طلع سهيل فلا تأمن السيل)، ويقول:

التوبيع براق وراعي مخايل ولا ذكر وادٍ بالتوبيع سال

يعـني: أواخر الصيف، وكان يقول في أول وقت حصول التمر في النخل:

إذا غابن النسرين بالفجر علقوا مطاحينهم من فوق عوج الرطايب

وغيوب النسرين طلوع الكليبين (النثرة)، والمطاحن هنا: هي أواني جني التمر من النخل تصنع من ورق النخل: والرطايب: جمع رطيبة، وهو جريد النخل الأخضر، وكانوا يَرْطِبُون بها المجرمين من الناس، أي: يجلدونهم بها فالرَّطْب هنا هو الضرب (الجلد)، وقال في حُبَّةِ معشوقته:

أحلـى مـن المـاء علـى الظمـاء واحلـى مـن الشكـر وكـل معـاش
وألَـذْ مـن دَرْ الأبـاكـر بـالشتـا إيلاجت من خضر الفياض اتحاش
واحلى من اللي ينقد الطير راسها ينـوشهـا مـن بيـن الجـريـد نـواش

كانوا يشفقون على التمر بسبب قلّته عندهم، والتمرة التي ينقدها الطير (العصفور)، أي: يأكل منها، وهي في القنو في النخلة تكون أطعم من غيرها، فهو يخبر بأن حب محبوبته ألذّ من كل شيء حتى الماء على الظماء، وقال:

طَلْعَـتْ الشعـرا يستـاقـد الصفـا تلـوذ بعضـود المطـايـا جخـادبـه

الْجُخْدُب: نوع من الجراد، يطير ويقع وقت القائلة من شدة الحر ويسمع له صوت، وقال:

إذا مضـى مـن سهيـل عشـريـن أفختـت الجـوازي مقيلهـا

يعـني: إذا مضى من معدودة أيام سهيل عشرون يومًا فإنه يفيخ

الحر، أي تذهب شدة الحر، والجوازي هو الصيد البري الوحشي، جوازي: يعني لا تشرب الماء، كالظبي، والوعل، والاوضيحي وغيرها من حيوانات البر.. ففي شدة الحر لا بد أن تتخذ لها مقيلاً (ظلالاً) تألفه وتأوي إليه كل يوم وسط النهار وقت الحر، ثم بعد هذه الأيام لا تبالي أي مكان أدركها المقيل حين خف الحر، قوله: افختت مقيلها: أي تركته.

وأما ما يذكر عنه في صدقه في أخباره، ومطابقة وصفه للواقع وأنهم احتالوا عليه عدة مرات ليغلط فيكذب فلم يغلط، فهذا كثير، ونشير إلى بعض منه إن شاء الله. فكان من عادته أنه إذا قدم له طعام لا يأكله كله بل لا بد أن يبقي منه فضلة، فقالت امرأة عجوز: أنا سوف أجعله يكذب، فقدَّمت له طعامًا قليلاً من نوع الخبز، فأكل منه وأبقى منه شيئًا، فقالت: لماذا تركته، ألا أكلته كله يا راشد؟ تريده يقول إني شبعت عادة الناس في مثل ذلك، ولكنه قال: (ما أكلت خير ولا خليت خير). وقال رجل: أنا سوف أجعله يكذب، فقام على ناقته وطلا أحد جنبيها كأنها جربا، وكان الخلاوي راشد في منزل معروف ذاك اليوم، فركب الرجل ناقته وذهب يمر من حول منزل الخلاوي في جانبها المطلي ليعتقد أنها جربًا بسبب الطِّلا والدهن الذي هو علاج الجرب، فمر وذهب، ثم أتى بعده صاحبه يسأل الخلاوي: هل مرَّ من هنا رجل على ناقة؟ قال: نعم، قال: ما هو لون ناقته؟ فقال الخلاوي: (الجانب الذي يليني مطلي والثاني ما أدري عنه).

وهناك جماعة من البادية نازلين في موضع وكان الخلاوي يمرّ كل

يوم من حولهم صباحًا، وأرادوا إيهامه، فحملوا بيوتهم وعفشهم على الإبل حين مرور الخلاوي حولهم، ونظرهم قد ارتحلوا، فلمّا ذهب عنهم وضعوا بيوتهم ونزلوا مكانهم، وإذا صاحبهم يلتقي بالخلاوي يسأله: (العرب خلفك هل شدوا أو مقيمين؟)، فقال الخلاوي: (شَدَّوْا ولا مَدَّوْا شديد البدو مراوات)، فعجزوا عن إيهامه. (انتهى).

* * *

توقير الكبير: قال:

صغيرنا يعرف وَقَارَ المسِنِّين ولاهُو كِسُول إلاْ زَهْمته تَوَنّىْ

جاء في الحديث: «ليس منا من لا يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا» رواه الترمذي، عن ابن عباس رضي الله عنهما.. فقد كان الناس لهم عادات طيبة ومكارم أخلاق، من ذلك: توقير الإنسان الكبير واحترامه، سواء من الرجال أو النساء؛ فالصغير يستحي ممن هو أكبر منه، ولا يستهين بحقه ولا يكثر الكلام تجاهه بغير لازم، ويتأدّب له في المجلس، ولا يتقدَّم عليه في المجلس والأكل وغيره..

ولكن يا للأسف في هذا الزمان، قد ذهبت هذه المكارم والمروءة والحياء أو كادت، فلا تجد للكبير هيبة وإجلالاً عند من هو دونه، بل ربما ظهر منهم ازدرائه وعدم الاستفادة من آرائه وتجاربه، فتولد من ذلك تباعد القلوب، وتشتت الآراء، ونزعت بركة الفهم، وتفرقت الكلمة، وطغت النساء، وفسق الشباب، وتقلّد كل أحد زعامة نفسه، فلا احترام عندهم لقيِّمهم وممسك زمام أمورهم ورائد مصالحهم وداريء مضارهم، فأغْبَرَّت الأرض، وأظلمت السماء، وتنغصت الحياة، فلا حول ولا قوة إلاَّ بالله، وقد جاء في الحديث: «إذا رأيت شحًا مطاعًا، وهوًا مُتَّبَعًا، ودنيًا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بخاصة نفسك ودع عنك العامة» رواه الترمذي وأبو داود وابن ماجه. (انتهى).

ومن روابط الزوجية

خرج رجل بامرأته لتزور أهلها، وهو يريد يطلقها، ولم يعلمها حتى قرب من أهلها، فأراد إعلامها، فقال:

بيني وبينكِ لين أوديكِ مرباكِ ... ثم الكل منا ما يراعي رفيقه

فأجابته: وكانت امرأة عاقلة، قالت:

إن جيتنا يا عمرو نقوم بارضاك ... وإلاَّ كلٌّ الله يسهل طريقه

فلمّا وصلا أهلها وباتوا عندهم حاسب نفسه، وقال هذه امرأة طيبة وعاقلة ولا يحسن التفريط بها.. فلمّا أصبح قال لها: تبغيننا نمشي؟ قالت: بهواك، فقال: مشينا، فرجع بها وصلحت الحال والحمد لله. (انتهى).

* * *

اهتمام أهلينا بالدَّين.. واحترامهم صاحبه

قـــال :

أنـا أحمـد الله فـارقَـوْن الـدَّيـاييـن ذي نعمـة مـا يجحـده كُـود مكّـار

ولقد كانوا على واقع معقول فيقولون: (الدَّين هم بالليل، ذِلّ بالنهار)، ولا ينسون سرعة حلوله فيقولون: (ما غاب، احتضر)، وكانوا يحترمون صاحبه فيقولون: (دَيَّانِكْ سِيْدِك لَيْن توفيه)، وفي الحديث: «دعوه فإن لصاحب الحق مقال» رواه البخاري ومسلم عن أبـي هريرة. وعند الفقهاء: أنه لا يسافر إلاَّ بإذن صاحب الدَّين.

كان رجل هنا فلاّحًا قد كثر عليه الدين، فترك الفلاحة وسكن البلد، وكان يكثر من دعاء الله أن يرزقه ويقضي عنه دينه، وذات يوم قدم ابن أخيه من سفر طويل، فأعطاه إكرامية، (شماغًا وقهوة) ويسمونها (وَصْلاً)، فلبس الشماغ ليفرح ابن أخيه وكانوا يستكثرون لبس الجديد: من أجل ذلك خشي أن يراه عليه ديانه فيظن أنه قد تحصل على شيء من الدراهم فخول بها نفسه ولم يهتم بدَيْنِه فيقضي منه ولو بقيمة هذا الشماغ، فذهب إليه ودعا له بخير واعتذر منه: فأخبره أن هذا الشماغ جاءه صِلَةً من ابن أخيه، ولولا مدارات خاطره لبعته وأتيتك بقيمته، فرضي عنه ديانه ودعا له بخير، (فهذا يعد من مكارم الأخلاق).

وحدثني صاحب ثقة، أنه لما مرض أبوه مرض الموت: وكان تقيًّا نقيًّا عالمًا ورعًا، وكان فقيرًا، فأخبرهم أن عليه دين، عشرة ريالات لفلان، وحضهم على قضائه، يقول وذات يوم مات صباحًا، فقمنا بتجهيزه وجمعنا ما حولنا من جيران وصلّينا عليه في مسجدنا، وفرغنا من دفنه قبل الظهر، وقمنا بجمع دَيْنَه، عشرة ريالات، وبعد صلاة العصر أخذ أخوي الأكبر الفلوس وذهب يمشي على رجليه إلى صاحب الدين في قرية هناك. . فلمّا نَمْتُ بالليل رأيت أباي في المنام قد خرج من قبره ينطف عرقًا، فقلت له، ألا تشرب؟ فقال: إنني قد شربت من الكوثر: ولكن هلا أعطيتم فلانًا دينه؟ فقلت له: إن عبد الله قد أخذ الفلوس وذهب إليه ليوفيه حقه، ففرح وقال: الله يوفي عنكم دين الدنيا ودين الآخرة، ثم انقلب إلى قبره فاستيقظت من نومي. (انتهى).

* * *

أين التقي النقي؟

جاء أحد شيوخ البادية: إلى الشيخ (عبد الله بن محمد بن سليم)، قاضي بريدة رحمهم الله، وكانت إدارة جُلّ الأمور ذاك الوقت تحت إدارة عالم البلد بالاتفاق مع الإمارة على مدار أربع وعشرين ساعة..

الحاصل: أن هذا الزعيم طلب من الشيخ أن يعيّن له رجلاً من أصحابه ــ طلبة العلم ــ يرسله معه إمامًا، وقاضيًا، ومعلمًا، ثم قال: (وليكن يا شيخ، تقيًا، نقيًا).. فدمعت عين الشيخ وقال: الله أكبر نحن أحوج إلى هذا. (انتهى).

* * *

عين المظلوم.. ساهرة

قال شاعر حين ظُلم:

تحكمـــوا فـــاستطـــالـــوا فـــي تحكمهـــم
عمـــا قليـــل كـــأن الحكـــم لـــم يكـــن
لـــو أَنصَفـــوا، أُنصِفـــوا لكـــن بغـــوا فبغـــى
عليهـــم الـــدهـــر بـــالأحـــزان والمحـــن
فـــأضحـــى لســـان الحـــال يُنشِـــدهـــم
هـــذا بـــذاك ولا عتـــب علـــى الـــزمـــن

(ومن خدائع السراب في البر)، تكبير الأزوال، وإن كانت في القرب ليست بشيء، (والقيعة): هو القاع، وهو الأرض المستوية الصلبة يظهر فيها السراب وسط النهار شبه الماء. (انتهى).

* * *

مـروءة الزوجـة

كان بعض أهل البادية، أكثر وقتهم يعيشون أحوالاً فوضوية، فليس لديهم تمييز بين الحلال والحرام، فالحلال عندهم ما أمكنهم الحصول عليه.

فهناك عائلة في البادية، لمّا أتت إبلهم عشاءً من المرعى، وإذا قد التفّ معها حاشى لغيرهم، فطمعوا في أكله، فذبحوه ليلاً، وكانت عندهم أم الأب عجوز عمياء، قد بدأ بها التخريف، قال الرجل لزوجته: لا تعطوا أمي من هذا اللحم، ولا تعلم به، فإنها إن علمت به سوف تخبر عنا وتفضحنا إذا سمعت أحداً يشيد به، قالت الزوجة: وكانت من النساء الطيبات: لا يمكن أن نأكل جملاً لا نعطيها منه، ولكن سوف أعمل بها حيلة أَضَيِّع بها واهِسَها، فلا تستطيع تخبر بالواقع على حقيقته إن أخبرت. .

فقامت المرأة وأتت بعَظْم يد الخروف (العضد)، وأخذت قطعة من لحم الجمل القعود، فخرقت وسطها وأدخلت فيها عظم يد الخروف، ثم أتت على العجوز، فوضعت في يديها شيئًا من خرىء الجمل، قالت العجوز: ما هو هذا؟ قالت: هذا اخضاب (حنا)، قالت: وَشْ هو له؟ قالت: تبغين تعرسين الليلة، فضحكت العجوز

وقالت: من هو عليه؟ قالت: على (إبا الشَّفَنْتَرَهْ)، ففرحت العجوز وتضحك، ثم أخذت المرأة ماءً ورشّته فوق البيت (الشعر)، فوكف الماء فوق العجوز، قالت: ما هو هذا الماء؟ قالت: هذا سيل، الدنيا ترش وتمطر، فاستبشرت بالسيل كذلك، فحين استقرت هذه الأحوال في ذهن العجوز، أخذت المرأة اللحمة المعدَّة لها وأعطتها إيّاها وقالت: دونك هذه اللحمة كليها، قالت: من أين؟ قالت: من لحم خروف ذبحناه، فأخذتها، ومَغْوَلَتْها في يديها لتعرفها، ثم أكلتها.

وفي اليوم الثاني أو الثالث، أقبل رجل من هناك، يشيد عن جمل قعود، حاشى ضائع؟ فسمعته العجوز، فقامت ووقفت بوجه البيت (الشعر)، وجعلت تناديه وتشيح بثوبها، فأقبل الرجل إليها، فارتاعت المرأة وقالت: يا اللّٰه مقسوم خير، عز الله إننا وَرَطْنا، فلمّا وصلها قال: وش تقولين يا خاله؟ فقالت العجوز: (بَارحَتْ لُولىٰ، يوم عرسي على أبا الشفنترة، يوم هي ترش وتمطر، يوم حناي في إيدَيَّهْ، عَطَوْنِي لحمه، العظم عظم خروف واللحمه لحمة قعود عَرَمْرِمي: أظنه قعودك)، وإذا المرأة واقفة خلفها فقالت: أنت يا رجل: هذي عجوز مخرفة لا تعوقك عن شغلك وهي ما عندها سالفة، فقال إي والله إنها عجوز امْهَوْبِلِه، ثم راح يشيد عن قعوده هناك، فسريَ عن المرأة وفرج همّها، لِقاءَ إحسانها بها. (انتهى).

* * *

ندامة الكسعي

قال الشاعر:

ندمتُ ندامة الكسعي إذ غدت ... مطلقةً مني نوار

الكسعي: من العرب القدامى، وكانت له قوس يصيد بها من الصيد البري الوحشي، وكانت عزيزة عليه للاستفادة بها، وذات مرة رأى زيلة صيد من (الوعل) فدرقه ليرميه.. فلمّا وصل المرمى صوّب السهم في الهدف (الوعل) فرماه، وعلمه بساعده وقوسه أنها لا تخطىء، ولكن حين نظر في المرمى وإذا الصيدة مكانها، فغضب على قوسه.. ثم رمى مرة ثانية، ونظر وإذا الوعل مكانه، فاستشاط غضبًا على قوسه وحضرته الحماقة، وأقسم يمينه أنها إن أخطأت مرة ثالثة ليحطمنها.. ثم رمى الوعل مرة ثالثة، فنظر وإذا الوعل مكانه، لأنها وعلات كثيرة في صف بعضها، فكلما سقط واحد ظهر الثاني جنبه وهو يظنه واحد، فضرب بقوسه على الصخرة حتى حطّمها، ثم ذهب ينظر مكان المرمى وإذا قد سقط فيه ثلاث وعلات لكل رمية (وعل)، فندم على قوسمه ندامة يُضرب بها المثل بعد، فَعَضَّ شفته حتى قطعها ندمًا. فصار كل من ندم على فائت بسبب فعله هو، يصف ندامته بندامة

الكسعي، كهذا الشاعر حيث ندم على طلاق زوجته نوار. فإيّاك والتسرّع في الطلاق فتندم كندامته.

وقال الشاعر: (زين العين)، هو نبطي وطني، في ذم البخيل المحروم:

جيـت الخسيـس يـرعـى لإبليـس عبــاتـــه صلـــت يقـــالبهـــا
انفـــع حـــالـــك مـــن حـــلالـــك قبـــل الثـــلاث تجـــربهـــا
إمـــا مـــوت والا دهـــر والا ســـاحـــوت يسحتهـــا

(انتهى).

* * *

الخداع فخ الأطماع

كما قال بعضهم عند أهل السوق الباعة:

اللي يبي عَشْره تجي له ثمانين يجيب طلبة ناقصات العقول

ولقد عهدت الناس وفيهم عدالة وصدق وأمانة، يحافظون عليها سرًّا وجهرًا، لا يعوجهم عنها شيء من الأطماع، كما ذكر أنه قيل لفلان: ألا تتجر بالتمر؟ فقال: إني أخشى أن أفرح إذا غلي سعر الطعام على المسلمين..

وكان الأخ (فلان) صاحب دكان يبيع الثياب خياطة وطنية، وقد جلس عنده بعض أصحابه يتحدثون، لأن الأسواق باردة لا تشغل عن التحدّث، جاء رجل من الزبائن وقَلَّبَ الثوب، وقال: بكم هذا الثوب يا صاحبه؟ فقال له صاحب الدكان: بعشرين ربع، وكانت الأرباع قبل القرش السعودي، فقال الزبون: أعطنيه بثمانية عشر ربع! فقال صاحبه: مالك لوى، يعني (لا)، فذهب الزبون، فقال بعض الحاضرين: ألا بعته عليه بثمانية عشر؟ فإن البيع فرج، فقال: إنه سألني هو: كم قيمة الثوب؟ فأخبرته أنها عشرين ربعًا، ولو بعته عليه بعد ذلك بثمانية عشر لأصبحت كاذبًا.. فدمعت عين الشيخ الحاضر، وقال: الله أكبر، هذا صدق ما نعرفه. فقول الشيخ: (هذا صدق ما نعرفه)، هو من باب هضم النفس والتواضع، وإلاَّ هم أهل صدق وأمانة. (انتهى).

بلاش من الجمال إذًا

يأتي على الناس أزمنة فوضوية، يسودهم فيها الجهل ويحكمهم التعصّب والنخوة، يتقاتلون لأدنى سبب، حتى ربما تقاتلوا بسبب كلمة أو من أجل كلب، لا يتعقلون ما يأتون وما يذرون، ولا يتشاورون فيما يحذرون وما يرجون، فكل يأخذ لنفسه بنفسه، إلاَّ أنهم يخضعون (للسَّلم)، وهو العرف والعادة عندهم، فهذا هو الحاكم المطاع لديهم مهما كانت الحال، وبسبب ذلك كانوا لا يهتمون بجمال المرأة ولا يعولون عليه عندما يبحثون عنها للتزوج غالبًا، وإنما يعولون على شرف عائلتها ورجولة رجالها وشجاعتهم، وإن كانت هي غير جميلة.

فإذا اعْتَدى عليه أحد في عرضه، أو قتل أحدًا من قرابته، صار (ادوميّ) له، أي: مديم على عداوته حتى يقتص منه أو يقتله.

فهذا رجل وجد (ادوميه) وسط بيوت العرب (الشعر)، فقتله، ففزع الناس عليه ليمسكوه، فهرب وأراد أن يدخل في أحد البيوت يجيرونه إجارة مؤقتة حتى يمكنه التصرف والهروب، ولكن الناس لا يريدونه يدخل عندهم فيورطهم في حمايته والكفاح عنه، لأنه إذا دخل بيتهم لزمهم ذلك، فقاموا يمنعونه قبل دخوله، فإذا قرب من البيت جعلوا يَحْثُون التراب في وجهه فيرجع إلى بيت آخر، فيقومون في وجهه

ويحثون عليه التراب، حتى وصل بيتًا فيه امرأة غير جميلة والناس خلفه، فقال لها: أريد أدخل عندكِ عن الطلب؟ فقالت: نعم ادخل؛ فدخل، فقامت وأخذت عمود البيت (خشبة) ووقفت دونه، فرجع الناس عنه..

فاستقر عندها حتى جاء ولدها، فقالت: شف هذا الدخيل اذهب به ووصله مأمنه، فقال للرجل: أين تريد أوصلك؟ فقال: أخرجني من وسط البيوت فقط وجهك أبيض، فقام معه بالليل حتى أخرجه وأبعده عن البيوت والناس.. فلمّا أراد أن يرجع عنه وقف الرجل وقال: أريد أسألك عن مسألة؟ فقال الولد: نعم، ماذا؟ فقال الرجل: إني لما فعلت فعلي هذا الأمر المستنكر وطلبت من الناس أن يُزَبِّنُونِي أبوا وهم رجال؟ وأمك زبَّنَتْني وهي امرأة؟ فقال الولد: إن أبـي وجد أهل أمي أهل شرف وشجاعة ورجولة، فتزوَّج أمي منهم وأتى بها من بعيد فوجد في الطريق نهر ماء لا يستطيع كل أحد أن يعبره، فحملها على متنه وغامر في تعبيرها الشط فظهر بها، فلمّا ولدتني وكبرت، وركبت الخيل، ففي يوم من الأيام جاءنا قوم وأخذوا الإبل، ففزع الرجال منّا على الخيل، فلم يستطيعوا قتل القوم ورد الإبل، فقال لي أبوي: (أخس يا فلان، كيف تؤخذ الإبل وأنا حامل أمك على متني وقاطع بهاالشط، وهي غير جميلة، رجاء أن تلد لي ولدًا لمثل هذا اليوم[1].

(١) فمثل كلام هذا الأب لابنه هذا يقال له هزب: والهزب مشاعيب الرجال ولهذا أثّر فيه أعظم أثر في الشجاعة والتزام خصال الرجولة، (والمشعاب هو العصا الجيّد الذي يضرب به). =

يقول الولد: فثارت الشجاعة في نفسي ونسيت الحياة، فلحقت القــوم وقتلــت بعضهــم وهــزمتهــم وحــدي وأرجعــت الإبــل، والآن لا يستطيع أحد أن يجرؤ على أمي أو عليَّ. (انتهى).

* * *

هنــا ألغــاز

تزوَّج رجل بنتًا، وتزوَّج ابنه أمها، فولدت كل واحدة ابنًا، فما قرابة المولدين من بعضهم؟

قـيـل:

ومــا شـــيء إذا جــاء انبســـاطًــا وجـدت النفـس منـه فـي انقبـاض
قُبَيْـل الفجـر يسـرع فـي ارتفـاع وبعـد العصـر يسـرع فـي انحـدار

وقـيـل:

ما الحاكمون بلا سمع ولا بصر ولا لسـان فصيـح يعجـب النـاس

وقـيـل:

وأَتَــانَــا رأيـــتُ واردة المـــا ءَ زمـــانًـــا ومـــا تـــذوق بَـــلالاً
وعقــاب تطيــر مــن غيــر ريــش وعقــــاب مقيمـــــة حــــوالا

سيأتي حلّها بعد إن شاء الله. (انتهى).

* * *

أضرار بعض القرناء

قيل:

عن المريء لا تسأل وسئل عن قرينه | فكل قرين بالمقارن يقتدى

وقيل:

لا تصحب الارداء | إياك وإياه

كم جاهل اردى | حليمًا حين آخاه

يقاس المريء على المريء | إذا ما هو ماشاه

وقيل:

وما يضر الجربا قربُ سليمة | ولكن السليمة من قربها تجرب

ويقال: مَنْ رافق المصلّين صلّى، ومَنْ رافق المولين ولّى.

وإليك ما فعلت الكأس الأولى بصاحبها وسببها قرناء السوء.

قال صاحب (النظرات): كان لي صديق أحبه وأحب معه سلامة قلبه وصفاء سريرته، ووفاءه في حالي بعده وقربه، وغضبه وحلمه وسخطه ورضائه. ففرّق الدهر بيني وبينه فراق حياة لا فراق ممات، فأنا اليوم أبكيه حيًّا أكثر مما كنت أبكيه لو كان ميتًا، بل أنا لا أبكي إلاَّ

حياته ولا أتمنى إلاَّ مماته. . فهل سمعت بأعجب من هذه الخلة الغريبة في طبائع النفوس، علقت حبالي بحباله حقبة من الزمان، عرفته فيها وعرفني، ثم سلك سبيلاً غير سبيله فأنكرته وأنكرني، حتى ما أمر بباله، لأن الكأس التي علق بها لم تدع في قلبه فراغًا يسع غيرها وغير العالقين بها، وربما كان يدفعني في مخيلته دفعًا إذا ترائيت فيها، لأنه إذا ذكرني ذكر معي تلك الكلمات المرة التي كنت ألقاه بها في فاتحة حياته الجديدة، وما كان له ــ وهويهيم في فضاء متاهته التي يتخيّلها سعادة ــ أن يكدر على نفسه بمثل هذه الذكرى صفاء هذا الخيال. .

ثم لم أعد أعلم من أمره بعد ذلك شيئًا، لأن حياة المدمنين حياة متشابهة متماثلة، لا فرق بين صبحها ومسائها وأمسها و غدها: ذهاب إلى الحانات، فشراب فخمار، فنوم فذهاب، كالحلقة المفرغة لا يدري أين طرفاها، والمنظر المتكرر لا يلفت النظر ولا يشغل الذهن، حتى أن بعض من ينام على دورة الرحى يستيقظ عند سكونها وكان أحرى أن يوقظه دورانها، لذلك لم يشغل هذا المسكن محلاً من قلبي إلاَّ بعد أن سكنت دورته، وهدأت حركته، فلم أعد أراه معربًا في الحانات، ولا مطرحًا في مدارج الطرق، ولا معتقلاً في أيدي الشرطة. .

هنالك سألت عنه فقيل لي: إنه مريض، فلم أعجب لشيء كنت أعد له الأيام و الأعوام، لمثل ذلك، دخلت له أعوده فلم أجد عنده طبيبًا ولا عائدًا، لأنه فقير، والأطباء يظهرون الرحمة بالفقراء ويبطنون حب الصفراء والبيضاء، والأصدقاء يخافون عدوى المرض وعدوى الفقر، فلا يعودون المريض ولا يزورون الفقير. .

دخلت منزله، فلم أجد المنزل ولا صاحبه، لأني لم أجد فيه ذلك الروح العالي الذي كان يرفرف بأجنحته في غرفه وقاعاته، ولم أرَ دخان المطبخ، ولم أسمع ضوضاء الخدم، ولا بكاء الأطفال، ولا رنين الأجراس، فكأنني دخلتُ القبر أزور الميت، لا المنزل أعود الحي. .

ثم تقدّمت نحو سرير المريض فكشفت كتلته البالية عن خيال لم يبق منه إلاَّ إهاب لاصق بعظم ناحل، فقلت: أيها الخيال الشاخص ببصره إلى السماء، قد كان لي في إهابك هذا صديق محبوب، فهل لك أن تدلني عليه؟ فبعد لأيٍ ما حرّك شفتيه وقال: هل أسمع صوت فلان؟ قلت: نعم، ممَّ تشكو؟ فزفر زفرة كادت تتساقط لها أضلاعه، وأجاب: أشكو الكأس الأولى، قلت: أي كأس تعني؟ قال: أعني الكأس التي أودعتها مالي وعقلي وصحتي وشرفي، وهأنذا اليوم أودعها حياتي، قلت: قد كنت نصحتك ووعظتك، وأنذرتك بهذا المصير الذي صرت إليه، فما أجديت عليك شيئًا، قال: ما كنت تعلم حين نصحتني من غوائل هذا العيش النكد أكثر مما أعلم، ولكني كنت شربت الكأس الأولى، فخرج الأمر من يدي.

كل كأس شربتها جنتها عليَّ الكأس الأولى، أما هي فلم يجنها عليَّ غير ضعفي وقصور عقلي عن إدراك الأصدقاء والخلطاء الصالحين، لم تكن شهوة الشراب مركّبة في الإنسان كبقية الشهوات فيعذر في الانقياد إليها، فلا سلطان لها عليه إلاَّ بعد أن يتناول الكأس الأولى، فَلِمَ يتناولها؟ يتناولها: لأن الخونة الكاذبين من خلاّنه وعشرائه خدعوه عن نفسه في أمرها ليستكملوا بانضمامه إليهم لذتهم التي لا تتم

إلاّ بقراع الكؤوس وضوضاء الاجتماع، ولو علمت كيف خدعوه وزيّنوا له الخروج عن طبعه ومألوفه، وأي ذريعة تذرعوا بها إلى ذلك، لتحققت أنه أبله إلى النهاية من البلاهة، وضعيف إلى الغاية التي ليس وراءها غاية . .

أنا ذلك الأبله الضعيف، فاسمع كيف خدعني الأصدقاء وزيّنوا لي ما يزينه الشيطان للإنسان.

قالوا: إن حياتك هموم وأكدار، ولا دواء لهذه الأدواء إلاّ الشراب.

وقالوا: إن الشراب يزيد في رونق الجسم ويبعث نشاطه، وأنه يفتق اللسان ويعلّم الإنسان البيان، وأنه يشجع الجبان، ويبعث في القلب الجرأة والإقدام.

هذا ما سمعته فصدقته وخدعت به.

صدقت أن في الشراب أربع مزايا: السعادة، والصحة، والفصاحة، والإقدام.

فوجدت فيه أربع بلايا: الفقر، والمرض، والسقوط، والجنون.

غرّهم من الصحة ذلك اللون الأحمر، الذي يتركه الشراب وراءه في الأعضاء، وهو يتغلغل في الأحشاء، ومن الفصاحة: الهذر والهذيان، وهُجْرُ القول وبذاءة اللسان، ومن الإقدام: العربدة التي لا تسكن إلاّ في غرفة السجن، ومن السعادة: اللحظات القليلة التي يغشى فيها على عقل الشارب فيعمى عن رؤية ما يحيط به من الأشياء

كما هي، فتعكس في نظره الحقائق، حتى يتخيل الشتم طرفه والصفع تحية، فيضحكه من ذلك ما يضحك الأطفال والممرورين. .

أي سرور لمن يعيش في منزل لا يزور الابتسام ثغرًا ساكنيه؟. . أي سرور لمن يودّعه أهله كل يوم في صباحه بالحسرات ويستقبلونه في مسائه بالزفرات؟. . أي سعادة لمن يمشي في طريقه متلويًا متخلجًا يتسرب في المنعطفات والأزقّة، ويعوذ بألواذ الجدر والأسوار، فرارًا من نظرات الجزار، وتهكمات العطار، وصرخات الخمار، ولقد كنت أرى هؤلاء الأشقياء في فاتحة حياتي التعسة، فكان يمر بخاطري ما يمر بخاطر أمثالي من أنهم قتلى الإدمان لا قتلى الشراب، وكنت أقدر لنفسي القصد فيه إن قدّر لي في أمره شيء حتى لا أبلغ مبلغهم، ولا أنزل منزلهم، فلما شربت أخطأ العد وضاع الحساب، وفسد التدبير، واختلف التقدير، وغلبت على أمري كما يغلب على أمره كل مخدوع بمثل ما خدعت به، ولولا الكأس الأولى ما هلكت، وما شكوت الذي شكوت، ولولاها ما عافني الأصدقاء، ولا زهد فيّ الأقرباء، فكنت أنت وحدك صديق السراء والضراء، فعاهدته على ذلك، ثم تركته في حالة:

تُصِـــمُّ السميــعَ وتعمـــي البصيـ ـــرَ ويُسئَـل مــن مثلهــا العــافيــه

(انتهى).

* * *

هنا حل الألغاز

أما المولودين: فأحدهما عم الآخر، والآخر خاله.

والذي يجيء انبساطًا، هو: النوم.

والحاكمون بين الناس، هي: الموازين، هاك تكميله:

تلك الموازين انزلها رب العباد للناس مقياس

والأتان في الأصل هي: الحمارة، وتشرب على البركة زمانًا، هي هنا: حجر في جانب حوض الماء.

والعقاب: في الأصل: طير بري لونه يقرب من السواد، وهو من سباع الطيور يأكل الصيد ولكنه حسود، فإذا وجد صيدة وحوله إنسان تركها خشية أن يأخذها الإنسان، ويضرب به المثل في الحسد: (أحسد من العقاب).

وهي هنا: البكرة المحالة، تدور فوق البئر، والعقاب الثانية هي: العلم، وهو: (البيرق). (انتهى).

* * *

الكلام سهل.. لكن الفعل صعب

هل ترى أصدق مطابقةً للواقع من هذا المثال: تجد بعض الناس يحسن الكلام في وصف الأحوال وتفصيل الأمور، ولكنه لا يحاول أن يقوم بشيء من الأمور النافعة أو اللازمة والمصالح العامة، ولا يدعو ويوجه من يقوم بها، فهو إنما يعيش لنفسه.

كل يرى طرق الشجاعة والندى ولكن طبع النفس للنفس غالب

قيل: اجتمع جماعة الفأر: واشتكوا إلى كبيرهم ما يلقونه من الهِر، وأنه يأكلهم؟ فعقد لهم مؤتمرًا ليتشاوروا، وينظروا في أمرهم، فاجتمعوا وكلٌّ أبدى رأيه، ثم قال أحدهم قد فُرِقَ لي فيه رأى ناجح، قالوا ما هو بارك الله فيك؟ فقال: الأحسن أننا نعلق جرسًا في رقبة الهر لأجل نعلم به إذا أقبل علينا فيمكننا الفرار منه؟ فقالوا هذا هو الرأي، قال كبيرهم: فمن منكم يعلّقه برقبة الهر؟ فأحجموا كلهم، فقال: (إن الكلام سهل ولكن الفعل صعب). (انتهى).

قيل:

وعاجز الرأي مضياع لفرصته حتى إذا فات أمر عاتب القدرا

وقيل:

اللي جرى به القلم ذاك مكتوب واللي جرى به القدر ما به اطباب

(انتهى).

درّة ثمينة.. ولكن...

قيل:

يقضى على المرء في أيام محنته حتى يرى حسنا ما ليس بالحسن

هل يوجد أغلى على الإنسان من نفسه وأعزّ عليه من سلامة جسمه؟ إذا قلت: «لا» فقد صدقت، بل كل أحد يسعى جهده لتقوية صحته وتأمين سلامته، بل كل وسائل الحياة من أجل ذلك.

لكن شارب الدخان ماذا يقصد به؟ هل يقوي الجسم ويؤمن الصحة؟ ولو تسأل كل إنسان يشرب الدخان، هل فيه صحة أو قوة؟ فيقول ليس فيه أي نفع، بل به ضرر ظاهر ولكن:

ابتلينا به ونحن صغار حيث لا نميز بين النافع والضار
والآن عز علينا التخلّص منه ونحن كبار

(أَللّه أكبر، يا لها من مصيبة لا معوض عنها)..

سُئل حكيم عن الدخان: هل هو نافع أو ضار؟ فقال: إن الدخان فيه ثلاث خصال:

الأولى: أن شاربه لا يهرم.

الثانية: أن شاربه لا يدخل بيته اللص.

الثالثة: أن شاربه لا تنبحه الكلاب.

فقالوا: هذه خصال طيبة، ولكن أخبرنا بمعناها:

فقال: أما كونه لا يهرم: فإن الدخان يقضي عليه قبل الهرم.

وأما كون اللص لا يدخل بيته: فلأنه يبيت كل ليله يكح (يسعل) ويشرب، فيعرف اللص أنه غير نائم.

وأما كون الكلاب لا تنبحه: فلأنه يتوكأ على عصا لأنه هزلان بسبب الدخان.

وإذا نظرت بعين الحقيقة وإذا هذه نتائج الدخان، وأنت تشتريها لنفسك:

يقضي على المرء في أيام محنته حتى يرى حسنًا ما ليس بالحسن

عافانا الله وإخواننا المسلمين، آمين. (انتهى).

* * *

محبة الطيب والنساء.. مفيدة

قوله ﷺ: «حبب إليَّ من دنياكم الطيب والنساء» الحديث رواه أحمد والنسائي. فمحبة النساء والطيب فضيلة ومفيدة، ولهذا أمتن الله على رسوله وحبيبه محمد ﷺ بمحبتها فأعطاه قوة ثلاثين رجل في الجماع وزوجاته تسع، وكان يدور عليهنَّ بغسل واحد في بعض الأحيان، فأتباعه على الحقيقة لهم قسط من هذه المحبة وهذه القوة بحسب تحقيق متابعة الرسول ﷺ.

وهذا من أفضل نعيم الدنيا على الإطلاق، والحمد لله، وهذه الحال تناسبها محبة الطيب والتنعّم به والاستفادة منه، فإن الطيب الأصلي مفيد للدماغ مقوّي له (والدماغ هو المقوّي للبدن)، يشبهونه في بعض كتب الطب (بالحارس على البدن)، وهذه الاستفادة إنما تحصل في الطيب الأصلي على اختلاف أنواعه.

أما هذه الأطياب الكيميائية المعمولة بالكيمياء فلا تفيد الصحة كما يفيدها الأصلي، بل ربما تؤثر على صحة بعض الناس بتنشيف الدماغ، لعدم موافقتها له، وهذا شيء ملموس محسوس.

ويقابل هذه الأرواح والأبدان الطيبة المستفيدة من الطيب: أرواح وأبدان تتلذذ بالروائح غير الطيبة، مثل شارب الدخان يتلذذ برائحته

وغيره يستكرهها، ومثل من يباشر أعمال التنظيفات أو أعمال لها رائحة كريهة ويشب جسمه ودماغه عليها ففقدها يؤثر على صحته، مثل من ينام على صوت الرحا أو صوت ماكينة ونحوها فيستيقظ إذا وقفت، فهذا إذا فقد ما أعتاده دماغه وإن كان غير طيب تضرر لفقده.

كما حصل لرجل اشترى سيارة وايت، وجعل عمله شفط البيارات الفائضة، في بلاد أرضها حجرية لا تشرب الماء، وصار هذا الرجل نشيطًا في هذا العمل لأنه يَحْصُل على دخل (محصول) جيد لقلّة من يزاحمه في هذه المهنة، فاجتمع لديه مال كثير، فترك عمله هذا وتعاطى أعمال التجارة، ولكن صارت صحة جسمه تنقص، فعرض نفسه على الأطباء، فتقرر في تشخيص مرضه، أن دماغه وجسمه قد شبّ ونما على مثل تلك الروائح، فلا تعود عليه صحته إلاَّ بمباشرتها باستمرار. ثم إني حدثت صديقًا لي بهذه القصة، فقال: أنا أعرفه وأعرف قصته هذه صحيحة، فالحمد لله الذي أحلّ الطيبات وحرّم الخبائث، «حبّب إليَّ من دنياكم الطيب والنساء وجعلت قرة عيني في الصلاة». (انتهى).

* * *

النفس.. ومـا اشتهت

كان الناس يركزون على تنشأة أولادهم على الصلابة والتحمّل، ليستعدوا لمجابهة مشاكل الحياة من صغرهم، حيث كانت الحياة دائمًا مظنة صعوبات ومشاكل، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤﴾ [البلد/ ٤].

ولا بد أن يتركوا الولد يذهب عن أهله لينشأ على هذه الركيزة عند غيرهم، أي ليعتاد الاعتماد على النفس بعد الاعتماد على الله سبحانه، حيث كان الأهل فيهم حنان ورقة له، أما غيرهم فليسوا كذلك، فإذا ذهب مع الناس وقَحَلَ عقله، وحَنَّكته الشدائد، وحصَّل مالاً ورجولة، فَمَرَدُّهُ لأهله، كما في المثل: (غَذِّني وأَدِلْ بيت هَلِيْ)، وكانوا يرتجزون وهم يحملون عفشهم للسفر، مثل قولهم:

يـــــا دار الحـــــي منـــــا يجيـــــك
يـــــا دار الحـــــي منـــــا يجيـــــك

وليس على الولد خوف ذاك الوقت إذا ذهب عن أهله وهو صغير، من الاختطاف، أو الفساد، أو النهب، والاغتيال، لأن الناس أحوالهم متقاربة وكل معروف طريقته ومسلكه، ولهم اسلومٌ وعاداتٌ وأخلاقٌ

عربية سليمة، غالبًا بل يؤدبون حتى غير أولادهم، على الإلتزام بأحوال عامة لسائر الناس، إذ ليس في البلاد أجانب أبدًا.

فهناك رجل أراد أن ينشأ ابنه كذلك، فقال له إذهب تطلب المصالح للمعيشة وأسباب الرجولة مع الناس، ولا تبقى عندي فتنشأ (خرخوتي)، ثم أعطاه ثلاثة ريالات: وكان الريال له قيمة إذاك لقلته، وقال خذ هذه الريالات معك تحت الحاجة، فأخذها الابن وذهب. فبدأ يتنقل مع الناس لهذا الغرض، وذات يوم ضاف عند رجل (شايب)، فسأله: (من أين وإلى أين؟) فأخبره بأمر أبيه له وأنه أعطاه هذه الريالات تحت حاجته، فهذا الرجل الشايب أراد أن يعلم هذا الشاب ثلاث مسائل، لا بد أن تمر به في حياته، وربما استفاد منها، ولم يشأ يعلمه إياها مجانًا، فتذهب منه مجانًا، وينساها فلا يستفيد منها، بل باعها عليه بيعًا ليعظم شأنها عنده فلا ينساها، كما في المثل: (التربية بافلوس)، فقال له: ألا تشتري مني فائدة، لعلك تستفيد منها، يا ولدي؟ فقال الشاب: بلا يا عم، فقال هات ريالاً، فأعطاه ريالاً، فما هي؟ قال: (النفس وما اشتهت). ثم قال له ألا تشتري مني فائدة ثانية؟ قال الشاب: بلا، قال هات ريالاً، فأعطاه ريالاً، فما هي يا عم؟ قال: (إذا وافقك خير وافقه)، ثم قال ألا تشتري مني فائدة ثالثة؟ قال: بلا بكم؟ قال: بريال، قال هاك الريال فما هي؟ قال: (خان من خان آمنه)، فانتهى منه وسار لشأنه، ثم صادف في طريقه قافلة من رجال البادية يسيرون على الإبل قاصدين إحدى بلدان البنادر، ليكتالوا منها، فاعتنقهم هذا الشاب يمشي على رجليه خويا، بصفة ضيف لهم.

وفي أثناء طريقهم وردوا على بئر برية ليسقوا ركائبهم ويملئوا قربهم، فنزلوا عندها، وأحدروا دلوهم، فخرج الدلو ليس به ماء، فقالوا إن البئر تحتاج غَرْفٌ، (وهو حال معروفة في بعض الآبار)، لأن الماء في قعرها غير مسامت لفمها، فينزل أحدهم يملىء الدلو من الماء ثم يقربه حتى يحاذي الرشا فم البئر، فيرفعونه وهكذا. وحيث يكون النزول في البئر صعب فإنهم يبتدرونه، فكل واحد يريد يخدم ربعه في الأمر الصعب، لذلك قال أحدهم: أمسكوا بـي الرشا، فمسكوه فنزل فورًا حتى لا يسبقه غيره، (وأنا فعلت مثل هذا مع أصحابـي لحفر بئر وغيـره)، فلمـا وصـل القـاعـة وظنـوه ملـىء الـدلـو وسمعـوا قـول: (وَرا ــ وَرا)، عادة الناس، فرفعوا الدلو ملْآنًا فلما وصلهم وإذا رأس صاحبهم فيه مقطوعًا؟ فانزعجوا لذلك وعرفوا أن البئر فيها عفريت من الغيلان، فتوقفوا عن إنزال الدلو.

(أقول: فلو أنهم أذَّنُوا أو أَذّنَ الرجل الأول حين رآه في البئر مثل الأذان للصلاة لذهب عنهم هذا العفريت (الغيل) ولم يضرهم، لقول الرسول ﷺ: «إذا تغيلت الغيلان فنادوا بالأذان. . .» الحديث. وتقدم: فإنه يذهب الغيل والتزويل ولا يضر أبدًا.

الحاصـل: أنهم تراجعوا في أمرهم؟ وإذا ليس حولهم بئر غير هذه يستقون منها، وإذا ما استقوا من هذه فقد يهلكون ظمأ؟ وحيث داخلهم اليأس من الحياة بعد قتل صاحبهم على الماء، قال كبيرهم: من ينزل يسقينا وله نصف هذه القافلة، من إبل ودراهم؟ فأحجموا كلهم، فقال الشاب أنا أنزل أسقيكم إذا تعطونني نصف ما معكم من المال؟

فقالوا: نعم لك ذلك إذا سقيت لنا؟ فأمسكوا له الرشا ونزل مخاطرًا بحياته من أجل الطمع، فلما وصل القاعة وإذا فيها رجل أسود وبيده سيف وعنده بنتان، واحدة بيضاء، وواحدة سوداء، وحين استقر الشاب في القاعة، قال له الرجل: إلى أين؟ فقال نريد نشرب من هذا الماء إن أذنت لنا؟ فقال العبد: (أيَّ هذين البنتين أحسن؟). .

فنظر إليهما الشاب وخشي أن يقول هذه أحسن أو هذه أحسن فيخطىء رغبت العبد فيقتله كصاحبه، ولكنه طرأت عليه الفائدة التي سبق أن باعها عليه ذاك الشايب، بريال: فقال: (النفس أو ما اشتهت)، فقال صدقت اسق ربعك، فجعل يسقي لهم حتى رويت الركائب وملؤوا القرب وغسلوا، ثم فسدت نيتهم حيث علموا أن قد وجب حق الشاب عليهم، فإذا خرج من البئر أخذ نصف مالهم بسقية ماء، فقال كبيرهم: هل تعرفون هذا الشاب الذي نزل في البئر؟ قالوا لا، قال اتركوه في بئره لا يخرج يأخذ حلالنا، فطووا رشاهم وحملوا مائهم وعفشهم وساروا وتركوه في البئر، فلما انقطع حسّهم، (هو وحي صوتهم). .

قال العبد للشاب: كأن ربعك ذهبوا وتركوك؟ فقال: الظاهر أنهم ذهبوا، فسأله ماذا بينك وبينهم؟ فأخبره أنهم قد أجروه بنصف ما معهم من المال، ثم سأله أين يريدون؟ قال يريدون البندر: أي البلد الفلاني، فقال العبد: سوف أساعدك عليهم وأنا هنا، سوف يأتي إلينا هالحين خَوِيٍّ لنا اصْلُبِي بلحم من الصيد (الجلا) (والجلا): هو الظبي أو الوعل أو الأوضيحي، كان وجودها في البر كثيرًا، فإذا ذبحوه سلخوا جلده وسطحوا بطنه وأعضائه، وصلة واحدة مملوحًا فيضعونه

فوق شجرة ينشف وييبس ثم يحملونه معهم في الأكياس والمزاود، يأكلون ويهدون منه مدة بقائه عندهم أحسن لحم يوجد، (لَحَم جَلاَ).

الحاصل: أن العبد قال للشاب: أخليه يحملك ويذهب بك في طريق أسرع من طريقهم، فتصل قبلهم وتشتكيهم على الأمير تأخذ حقك منهم.

وفي الوقت نفسه أتى الرجل الخلوي، وأنزل عليهم لحم الجلا، ثم قال العبد للخلوي يا فلان امسك الرشا يخرج إليك هذا الرجل، وأحمله إلى البلد الفلاني مسرعًا على طريق كذا وكذا، حتى توصله قصر الأمير، لأجل يشتكي اخوياه يأخذ حقه منهم، فأخرجه الخلوي وحمله على جمله حتى أوصله محل الأمير في البلد، فتقدم الشاب إلى الأمير وأخبره بما فعل به أصحابه، فأمر الأمير بعض خدامه أن يذهب معه يأتي بهم إذا قدموا، فخرجوا يلتقونهم وأحضروهم عند الأمير، فسألهم الأمير عن أمرهم مع هذا الشاب؟ فاعترفوا، قال ولماذا تركتموه في البئر؟ قالوا حتى لا يأخذ منّا شيئًا، فقال الأمير حيث اعترفتم بالصحيح فإنّا نعفوا عن معاقبتكم، وأعطوه حقه واذهبوا، فأعطوه حقه وذهبوا، فهذا الشاب استقر في البلد واشتهر في الرجولة والأدب، وصار صديقًا للأمير ومن جلسائه.

وذات وقت: أرادت ابنة الأمير أن تحجّ، ولكن لا بد من عميد يعرف الطريق ويتولا إدارة أمرها؟ فطلب الأمير من هذا الشاب أن يكون هو عميدًا في ذلك، لأمانته ورجولته؟ فأجابه وسافر معهم يدير أمورها، ولكن هي فسدت نيتها، فهمت به، وجعلت تراوده عن نفسه؟ ولكنه

احتزم بالاعتصام بالله، وتذكر الفائدة التي سبق أن اشتراها من الشايب برِيال (خان من خان آمنه)، فكيف اشترى هذه الفائدة ولا أعمل بها، فأخون الأمير وقد أتمنني على محارمه؟. فجعل يدافعها بالتي هي أحسن فيقول: إننا في شدة خوف من الحرامية، وتارة يقول: إننا قد ضلّينا الطريق وتارة يقول: إننا على وشك هلاك من الظمأ ونحو هذه الأعذار، حتى وصلوا مكة المكرّمة، واشتغلوا بالحج، فلما خرجوا راجعين أرسلت له تراوده؟ فجعل يعتذر بهذه الأعذار حتى أمعنوا في الطريق وقاربوا وصول بلدهم فتركته، ولكنها أخذت تفكّر في العاقبة، وخشيت أنه يخبر عنها بذلك فيظهر لها سمعة سيئة عند الناس..

فحين قربوا من البلد، كتبت كتابًا لأبيها قالت فيه: إذا جاءك حامله فاقطع رأسه! وأعطته إيّاه، وقالت: اذهب به لأبي بشره أننا وصلنا بالسلامة، فأخذه وانطلق مسرعًا حسب أمرها، إكرامًا للأمير في عائلته، فلما دنى من البلد وإذا جماعة نازلين في ناحية الطريق قد عملوا لهم قهوة وفطورًا، فأومئوا له تَقَهُوْ يا ولد، فقال: لا، والله أنا عجل، فقالوا: يا رجّال (إذا وافقك خير وافقه)، فتذكر فائدته التي قد اشترى من الشايب بريال، فقال في نفسه كيف اشتريها ولا أعمل بها؟ فليس ذلك من الحزم، فانثنى إليهم وجلس معهم وصبُّوا له قهوة، فلاموه على العجلة الزائدة عن العادة؟ فقال: أنا معي مكتوب للأمير من ابنته بشارة أنها جاءت من الحج بالسلامة..

فطمع أحدهم بجائزة البشارة من الأمير، فقال: أعطني الكتاب أذهب به إلى الأمير عنك، وأنت وسّع صدرك تقهو وتغد مع الجماعة،

ففرح الشاب بهذا الذي سيقوم مقامه بإيصال الكتاب سريعًا للأمير، فأعطاه إيّاه وجلس يستكمل جلوسه مع الجماعة، فذهب ذاك من سوء حظّه بالكتاب للأمير: فلما قرأ الأمير الكتاب أشار لخدّامه فأخذوا الرجل وقطعوا رأسه، فلما انتهى الشاب من القهوة مع الجماعة أتى وسلَّم على الأمير وجلس معه، ولم يعلم بما فعل بصاحب الكتاب، فلما جاءت البنت ونظرت الشاب جالسًا مع أبيها، قالت لأبيها: لماذا لم تقتل حامل الكتاب إليك وأنا قد كتبت لك بذلك؟ فقال: إننا قد قطعنا رأس الذي أتى بالكتاب، فقالت: أنا أقصد صديقك هذا الشاب؟ فقال وما هو فعله الموجب قتله؟ فقالت لم يفعل ما يوجب ذلك ولكني أنا عملت معه كذا وكذا فلم يجبني وأخشى أن يفضحني بعد ذلك؟ فقال أبوها الأمير: إننا الآن سوف نزوّجه إيّاك بالحلال إذ كنتِ تريدينه؟

ولكن الشاب رفض، وانتقل عن بلدهم، ورجع لأهله. (انتهى).

* * *

مغنّي الحي

قالوا: (مغنية الحي ما تطرب)، معناه أنهم قد سمعوا صوتها أو صوته مرة بعد مرة فَمَلُّوه، وهذا شيء مطرد في كل شيء يكثر ترداده على النفوس فتَمَلُّه.

ومثله الخطيب، ومثله قولهم: (من عرفك صغيرًا حقرك كبيرًا).

ومثله قول النساء: (الزوج غير القريب له شمة)، وهذا له معنًا صحيحًا، فإن الزوج غير القريب إذا تزوج غير القريبة قد يكون أصبغ للنفوس بالمودة، لأن القريب قد ملها وملّته، وهذا على الأغلبية. (انتهى).

* * *

موعظة في الموت وما بعده

لا تنسى الموت وما بعده، فالدنيا خدّاعة حلو رضاعها مر فطامها، قيل:

قد نادت الدنيا على نفسها لو كان في العالم من يسمع
كم واثق بالعمر أفنيته وجامع بددت ما يجمع

والقبر أول منازل الآخرة: إما روضة من رياض الجنة، وإما حفرة من حفر النار، كما قيل:

إن تنج منها تنج من ذي عظيمة وإلاَّ فإني لا أخالك ناجيا

مرض رجل فراح أخوه واشترى له كفنًا فبريء المريض ومات الصحيح وَكُفِّنَ بالكفن: فإذا رأيت مريضًا مُدْنِفًا فلا تيقن أنه يموت قبلك، ولكن قل معنا روح ومعه روح، ولا نعلم أينا أولاً يروح.

يقال: (كم فاطر شربت بجلد إحوارها) الفاطر هي: الناقة الكبيرة السن، والحوار هو ولدها الصغير، فقد يموت قبلها ويعمل من جلده حوض تسقى فيه الإبل، وهكذا الناس قد يموت صغير قبل كبير وصحيح قبل مريض.

وفي الحديث: «لو تعلم البهائم من الموت ما تعلمون ما أكلتم

منها سمينًا» رواه البيهقي. وقد قيل:

النـاس فـي غفلـة عمـا يـراد بهـم كـأنهـم غنـم فـي بيـت جـزار

وقيل:

. . . . وكـل الـذي فـوق التـراب تـراب

وقيل:

هـو المـوت مـا منـه مفـر ومهـرب إذا حُـطَّ ذا عـن نعشـه ذاك يـركـب

وقيل:

تمنـى رجـال أن أمـوت وإن أمـت فتلـك سبيـل لسـت فيهـا بـأوحـد
أرى الموت عداد النفوس ولا أرى بعيدًا غدا ما أقرب اليوم من غد

وأما هول القيامة فإنه يشيب منه المولود، كما قيل:

يـوم القيـامـة لـو علمـت بهـولـه لفـررت مـن أهـل ومـن أوطـان
يـوم تشقـق السمـاء لهـولـه فيـه تشيـب مفـارق الـولـدان
يـوم عبـوس قمطـريـر شـره فـي النـاس منتشـر عظيـم الشـان

وفي يوم القيامة: إذا حكم الله بين الخلائق، وأسكن كُلًّا بداره التي استحقها بعمله، فأهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار، ثم يؤتى بالموت بصورة كبش فيذبح بين الجنة والنار، ثم يقال يا أهل الجنة خلودٌ ولا موت، ويا أهل النار خلودٌ ولا موت، فيزداد أهل الجنة نعيمًا حيث أمنوا من الموت فطاب لهم المسكن، ويزداد أهل النار حسرة وندامة حيث يأسوا من الخروج والموت وأيقنوا بالخلود في العذاب، أعاذنا الله منه.

ثم يقوم إبليس خطيبًا في أهل النار، لأنه إمامهم، إنما دخلوها واستحقوها بسبب إغوائه وتسويله لهم، فيقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ﴾ [إبراهيم/ ٢٢].

والإصراخ هو النصرة والغياث، أي لا أنا ناصركم ومغيثكم ومنجّيكم من العذاب ولا نافعكم بشيء أبدًا، وأنتم كذلك لا فيكم لي نصرة ولا نجاة من النار، فكل قد بلغ نصيبه ومنتهاه بموجب عمله. (انتهى).

* * *

من أغاني عرضة الحرب

قال الإمام عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود رحمه الله تعالى:

نَحْمِـــدَ الله والثَّنـــا لِلَّـــه   والْمِبـــانِ تَـــمٍّ حـــامِيهـــا
إِنَّـــا جِهـــادُ ومِـــنْ مـــديـــدَ الله   لَكِلْمَـــةِ التَّـــوْحِيـــدِ نبغيهـــا
ربـــع يـــوم فـــي سبيـــلَ الله   يـــازن الـــدنيـــا أو مـــا فيهـــا
وايـــلا مشينـــا يـــا عبيـــدَ الله   وكلـــوا بـــالنفـــس واليهـــا

وقال أيضًا:

آه: وويـــلاه ضـــاقـــت كـــل حيلـــة   سِهِـــرْ عَيْنـــي والْعُيُـــون منـــومـــات
رَوَّحَـــنْ غُصِيـــر مـــن جـــال الثَّمِيلِـــه   زِمَّـــعِ تَظْفِـــي عليهـــن العبـــاة
وَرَّدَوْهِـــنْ هِيْـــت واخطـــاه الـــدليلـــه   والمـــوارد غيـــر هِيـــت مقضبـــات
وَاهَنِـــيَّ التَّـــرْف مَنْشُـــوعَ الجـــديلـــه   مـــا ضـــواه الليـــل دون امغـــرزات

وقيل:

يا عزيزٌ عِزْ ابو تركى يَوْمِنَّهْ ظهر   ظـاهـر للـديـن يبغـي يعـدل مـايْلـه
ذالِنا بِاعْمانِ حَوْلَيْنِ والزايد شهر   والنساء مِنْ عقبنا يا عشيرى حايله
مَنْ عصا الإسلام ما زَبَّنْه عنا البحر   وْلا ظهر من غِبَّةٍ كُودِ نَفْسُه زايله
ربعنا القصمان ما منهم اللي ماحضر   من هل العادات كَسّابة للطائلة

وقيل:

إنَّا هل العوجا مخابيط الظفر   وما ظهر من سربة حنَّا لها

وهذه الكلمة هي نخوة أهل الرياض في الحرب.

وأصل هذه الكلمة حين ظهر الشيخ محمد بن عبد الوهاب بتجريد التوحيد، وهو تحقيق: لا إله إلاَّ الله، وناصره على ذلك آل سعود رحمهم الله، وكان عامة أهل نجد قد عتادوا الشرك، فاستنكروا هذه الكلمة (لا إله إلاَّ الله) وقالوا للشيخ هذه كلمة عوجاء، شف لنا غير كلمتك العوجا؟ فقال ما هنا غيرها، فألزمهم بها الإمام محمد بن سعود وأولاده، فصار المنافقون يلمزونهم بها (أهل العوجا) فقال الشيخ وآل سعود وأهل الدرعية (نعم حنا هل العوجا) حسب تسمية المنافقين لها، فصارت النخوة بها شرفًا لهم (حنا هل العوجا)، لأنهم يعلمون أنها أعدل الكلام، ومن أجلها خلقت المخلوقات.

وقيل:

من لا يحوش الغنيمة حوش ذرعانه   ما تنفعه طُعْمَةٌ من عند جيرانه

(انتهى).

* * *

شجاعة الأمير غزالان

الأمير غزالان من أسرة آل سعود، وكان جميل الهيكل، شجاعًا، لا يوقف في وجهه شجاعةً، ولما جرى ذكر شجاعته عند بعض الأمراء المضادين له، فذكره المُضَادُّ بكلام غَضَّ من قَدْرِ غزالان، فبلغت غزالان هذه اللمزة، فتمثل غزالان بقصيدة وأرسلها إليه، حيث عابه المضاد بجمال هيكله، فقال:

يـا راكـب مِـنْ فـوق سبـع وثمـان ... مع مثلهن يا صاحبي وين يِلْفِنْ

إلى أن قال:

الـزيـن مـا يثلـم شبـاة السنـان ... والـزيـن مـا يقصـر اشبـار يطـولـنْ
إيـلا اجتمـع زيـن وفِعْلَـةْ أيْمـان ... لـذة نعيـم بـالحشـا وإن تـوافـنْ
وإيلا عَلَوْت بسرج بنت الحصان ... يُحْـرَمْ علـيّ إيـلا اقبلـن مـا يـردنْ
أَضْرِبْ بحد السيف وأرخى العنان ... لِيَمـا الْعَـذَارَا يـا سعـد لِيّ يَعَشْقِـنْ

والسنان هو: السيف أو الرمح، والسرج هو: ما يربط على ظهر الفرس يركب عليه الراكب، يقول وإذا ركبت على ظهر الفرس وأقبلت الخيل المحاربة فأنا أقتلها كلها ولا يرجع منها شيء وذلك من شجاعته.

قوله: لِيَما الْعَذَارَا لِيْ يعَشْقِنْ، فالعشق ومحبة النساء هو أكثر ما يحدو النفوس على الشجاعة وطلب المعالي والشرف، ويهذب النفوس، ويلين الطبع إلى غير ذلك، كما بسط في غير هذا الموضع. (انتهى).

* * *

مقرود نجد

قال الشاعر:

واصبر على القدر المقدور وارض به   وإن أتـــاك بمـــا لا تشتهـــى القـــدر

وفي الحديث «احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن»، رواه مسلم، وقال الشافعي:

فليـــس ينقــص الـــرزق التـــأنـــي   وليـــس يـــزيـــد فـــي الـــرزق العنـــاء

فالله سبحانه قدر مقادير الخلق قبل أن يخلقهم بخمسين ألف سنة. الحديث: رواه مسلم. فالرزق لا يزيده الحرص ولا ينقصه التأني، ولكن يجب فعل السبب والاعتماد على الله سبحانه. وقيل:

رزق المشيــح الــذي تهــذل مطيتــه   رزق المريح الذي يمشي على الهون

قيل: إنه كان رجل قد ضجر ولم يرض بما قسم الله له فزعم أن حظه سيّء، وسمع بأن هناك مَلَكٌ يخبرك، عن حظك؟ فلبس نعليه وأخذ عصاه وسار قاصدًا هذا الْمَلَك، وفي طريقه مَرَّ على ذئب نائم تحت شجرة، فقال له الذئب: إلى أين تريد؟ قال: إلى مَلَكِ الحظوظ لأسأله عن حظى؟ فقال الذئب: وأنا من فضلك اسأله عن حظي فإني دائم جائع؟ فقال: نعم ومضى، ثم مر على صاحب نخل فلاح، فقال

له: إلى أين؟ فقال: إلى ملك الحظوظ اسأله عن حظي، فقال: وأنا من فضلك اسأله عن حظي؟ فقال الرجل وهذه النخل عندك؟ (وكانت النخل خير مال)، فقال: إنها لا تثمر، فقال: لا بأس ومضى، ثم مر على سمكة طافحة على ظهر البحر، فقالت له: إلى أين تريد؟ فقال: إلى ملك الحظوظ، فقالت: وأنا أسأله لي فإن بـي وجع في رأسي، فلا أستطيع اتبع ربعي؟ فقال: نعم، ثم مضى، ومر على مَلِكٍ من الْمُلُوكِ، فقال: إلى أين تريد؟ فقال: إلى مَلَكِ الحظوظ لأسأله عن حظي، فقال: وأنا من فضلك اسأله عن حظي؟ فقال: كيف وأنت مَلِكٌ؟ فقال: ليس لي هيبة عند الرعية، فقال: لا بأس ثم مضى، وأتى الْمَلَكَ وسأله عن حظه، فقال له: ليس لك حظ، ثم سأله عن الذئب، فقال: ليس له حظ، ولكن له أن يأكل أقرد الناس، ثم سأله عن الفلاح صاحب النخل، فقال: نعم له حظ، قل له: يَنْبُشُ جذوع النخل ويجد فيها ذهبًا، ثم سأله عن السمكة، فقال: نعم لها حظ، قل لها: تنفط أنفها ويخرج جواهر في رأسها وتبرىء، ثم سأله عن الْمَلِكِ، فقال: إنها امرأة، قل لها تزوج وتشركه في الملك ويصير لها حظ، فانتهى منه ورجع، فمر على الْمَلِكِ فأخبره بما قال، فقالت: صحيح أنا امرأة، إنه مات أبوي وخفت على الملك، فلبست ثيابه وجلست مكانه، ولم يعلم بـي أحد إلاَّ أنت الآن، ولكن أريدك تَتَزَوَّجْنِي وتساعدني على الملك؟ فقال الرجل: لا، لا، ما أنا قَيْد مُلْك، ثم مضى وأتى على السمكة فأخبرها، فقالت: أنا ليس لي حاجة بالذهب ولكن افرش حِجْرَكَ انْفُطُهُ فيه، فقال: لا، ما أنا حامله من هنا إلى أهلي؟ فنَفَطَتْ خَشْمَهَا في البحر

وخرج منه الجواهر مثل الخرز وخَفَّتْ وطابت، ثم راحت مع ربعها.

فمضى الرجل وأتى الفلاح، فأخبره، فقال له الفلاح: ساعدني ولك نصف الذهب، فقال: لا، ومضى فقام الفلاح وجعل يحرث الأرض وينبش جذوع النخل فطاب النخل وصار يثمر، فحصل الذهب في فروعه، بسبب تحريك الأرض وتسميدها.

ومضى الرجل، فأتى على الذئب، فقال: هل وجدت ملك الحظوظ؟ قال: نعم، قال: ماذا يقول في حظي؟ فقال الرجل: إنه يقول الذئب ليس له حظ، وله أن يأكل أقرد الناس، فوثب الذئب على الرجل وقال: ما أقرد منك أحد، تعال أوَرِّيك ثم افترسه وأكله، وانتهت رحلة الرجل أنْ صار عشاءً للذئب. (انتهى).

* * *

الصنعة تدل على الصانع

ورد سؤال من بعض الدهريين: على شيخ الإسلام ابن تيمية، أو أبـي حنيفة رحمهم الله تعالى، قالوا: (نريد دليلاً عقليًا على وجود الرب الخالق؟).

فقال: أما الآن فأنا مشغول فكري، بخبر ورد إلينا عجيب، وذلك أنه ذكر لنا أن سفينة تسافر بدون ملاح (سائق) فهي تذهب للهند وغيره وحدها، وتقف بالميناء وتحمل حمولتها وترجع إلى بغداد أو غيره، ثم تنزل حمولتها ثم تسافر، فلا تزال كذلك وهي ليس فيها أحد. فقال الدهريون: هذا ما يكون، هذا محال! فقال الشيخ: إذًا هذه المخلوقات محال أن تخلق نفسها وتدبر نفسها، فاعترفوا بذلك وأسلموا.

ومثل ذلك: سئل أعرابـيّ من العرب القدامى: كيف عرفت الله؟ فقال: يا سبحان الله، إن البعر يدل على البعير، وإن الأثر يدل على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، ألا يدل ذلك على العزيز الخلاق.

قلت: فالصنعة تدل على الصانع لا محالة، (الآكل شيء ما خلا الله باطل). (انتهى).

* * *

البريم

البريم من الأحوال والأزياء الماضية التي انتهى دورها، وهو لم يستبدل بأحسن منه حين ترك، ولكن لكل زمان دوره.

والبريم حزام مستديم على جسم الإنسان من وقت صباه إلى منتهاه، على أسفل البطن والظهر، لاصق للجسم داخل الثياب، وهو خاص للبادية: وأما الحاضرة فهم يحتزمون حزامًا فوق الثوب حالة العمل والمشي في الطريق ويفكونه حالة الراحة، والبريم تعمله نساء البادية عملاً بديعًا، وهو مفيد لصاحبه رجالاً ونساء فائدة ملموسة. فهو يساعد على النشاط والقوة وشد الجسم حالة العمَل وحالة متح الماء من البئر (زعبه) بالدلو أو الغرب لسقي الإبل والغنم وغيره، ويشد الجسم حالة الركوب والمشي وهز الرماح حالة الحرب والضرب وغيره، ويأمن معه من البعج في البطن مهما تحامل عليه، فإذا انقطع بريمه فسد وضعف عزمه، فلا يستطيع يعمل عمل من يشده بريمه، فيضرب به المثل: (مثل مقطوع البريم)، يعني لا فائدة به، ويتخذونه أيضًا لغرض آخر: فهو يمنع تضخم سرة البطن من صغره فلا يفكونه عن بطن البنت حتى تنشأ بحمل، إذ أن ضمر بطنها مقصود عندهم، كما قال الشاعر النبطي: يصف محبوبته:

مـا هـي مـن اللـي لهـا حِثْلَيْـن   رويـانـة العـود واد قـاقـه

ثم يزيدون البريم سعة حسب نمو الجسم.

وأما صفته هو: أن تأتي النساء بجلد ولد شاة مدبوغ مدهون منزوع شعره لين ناعم، فتقرض منه ثلاث شرائح طوال فتعملها حبلاً مجدولاً مثلثًا بقدر ضخم الأصبع الغير غليظة أو أقل، فتكلل به الجسم على أسفل البطن والظهر نحو خمس لِيّات إلى عشر لِيّات من غير شد، وتجعل طرفيه زْرَارًا ودِرْكَة لأجل يسهل فيه الشد والمد، والجلد لا يُحْدِث حساسية في الجسم أبدًا، وحيث اعتاده الإنسان فإنه لا يرتاح إلاَّ معه.

ولا يخفى على الحضر فائدة البريم لمتخذه: إلاَّ أنهم يحتزمون بدله حزامًا حالة العمل، فمن أجل معلومية فائدة البريم صاروا يصفون به الأحوال والأشياء المماثلة له بالشد والتقوية، فالجدار القديم من الطين إذا فسد أُسه وخافوا سقوطه كللوا أُسَّه ببناء جديد تقويةً له، يسمونه بريم الجدار، والزرع القمح ونحوه إذا حصل به ضرر في سنبله وهو أخضر بسبب البرد أو جراد يأكله فلا بد أن يظهر له أفراخ من جذوره يظهر به سنبل يعوض عن السنبل الأول يسمونه بريم الزرع.

وإذا حصل حرب قرب البلد أو البيوت وخرج رجال الحرب خرج خلفهم أقوياء الأشياخ (الشيبان) وكبار الأولاد وشجيعات النساء ينخونهم ويشجعونهم ويساعدونهم بنقل الماء لهم، ومناولت بعض أجهزة الرمي وإنقاذ الجريح ومعالجته وغير ذلك، (يُسمّون البريم) يقال خرج الرماة وخرج معهم البريم، وقس على ذلك. (انتهى).

* * *

اختبار الصاحب

قال:

والصاحب اللي بالعطايا يمنيك   انْصِه لِمَقْضات الغرض قبل ينصاك
إما تجود إن كان هو جايد فيك   وَإِلاَّ فْيَقْصُرْ ناظره عن مراعاك

المعاني:

فبعض الأصحاب يتودد إليك بالقول ويظهر التزامه بمساواتك عند طوارىء حوادث الزمان: فيلزمك حينئذٍ أن تكون له كذلك.

ولكن المشكل أن أكثر الناس لا يفي بقوله وإن كان صاحبًا، فإن كنت له كما يدّعيه هو ويعدك به فربما أتعبك، في حين أنك لا تدري أيفي لك بوعده عند اللازم أو ينعزل عنك؟ وهذا هو الأغلب، كما قال علي رضي الله عنه ــ أو الشافعي رحمه الله:

فما أكثر الإخوان حين تعدهم   ولكنهم في النائبات قليل

يقول الشاعر: ولكن أنت اِنْصِهْ: أي ائْتِه واطلب منه قضاء غرض (حاجة) يعني اختبره بقضاء غرضك، فإن قضاه وساواك فأنت تكون له كذلك وأحسن، وإن تخلّى عنك وخالف فعلُه قولَه فيعرف قدره عندك بعد ذلك وتنكسر عينه عن مراعاك (النظر إليك بالإدلاء) ففعله معك يكفيك إيّاه فلا يأتيك يطلب منك قضاء حاجة وهو قد تخلّى عنك حين اختبرته بحاجتك. (انتهى).

نبذة من ترجمة شيخنا:
صالح بن أحمد الخُرَيصي رحمه اللّه

كان من أخص تلامذة آل سليم: علماء بريدة سابقًا، بل هو شيخ بريدة بعدهم، ملتزمًا أحكام ملَّة إبراهيم (في الولاء والبراء)، حسبه الله، وكان سمحًا كريمًا ورعًا تاركًا فضول الدنيا، محبًا للإصلاح، تعلوه السكينة والطمأنينة، ملازمًا ذكر الله سبحانه وتلاوة القرآن والخشوع فيه، وكان يقول في دعاء القنوت (اللَّهمَّ أحيينا بعافية، وأمتنا بعافية، وابعثنا بعافية، وأدخلنا الجنة بعافية)، فنحن نرى أنه قد عاش بعافية، ونرجوا أن يكون مات بعافية، ففي آخر مرضه ضعف عن الكلام إلاَّ ذكر الله، وإذا لم يستطع يكلم زائره استطاع أن يقول: (اذكروا الله كثيرًا) أو يقول: (الدنيا عِبَر). وصبر على المرض في بيته حتى توفاه الله، لم يُسافَر به للخارج للعلاج، ولا غرفة الأنعاش هنا. وكان محبوبًا، مُنْسَجِمًا مع ولاة الأمر مناصرًا لهم، وكان يناصحهم، لكن سرًّا، فكثر في المجتمع إصلاحه. وكان له تلامذة كثيرون، أكثرهم علماء صالحون، حسبهم الله لا نزكي على الله أحدًا هو أعلم بمن اتقى، وله أَبْناءُ طلبة علم، نسئل الله أن يجعلهم صالحينِ مصلحين مباركين، وأن ينفع بهم كما نفع بأبيهم، وصلَّى الله على نبيِّنا محمد. (انتهى).

* * *

تواضع الكريم، وحكمة طبيب

قيل: كان في أيام حرب، طبيب حكيم يخيط الجرحى، ومعه مساعد يتعلم الطب، فجاءهم جريح وأرادوا خياطة جرحه، وإذا الجرح مفتوح لا يلتئم، فجعل الطبيب يمجد الجريح ويمدحه، ويقول: أنتم كرام الناس وشجعانهم وأنتم تستحقون الكرامة وكذا وكذا، فجعل الجرح يهضم ويتلائم حتى خاطوه، وانتهى، ثم جاء جريح آخر مرة ثانية وجرحه مفتوح مثل الأول، ولكن الطبيب غير موجود، فقام المساعد يريد خياطته مثل الأول، وجعل يمجّد الجريح مثل ما فعل الطبيب أولاً، ولكن تغيرت الحال، فصار كلما مدحه زاد انفتاح الجرح، فتركه ثم جاء الطبيب فأخبره المساعد بالواقع وأنه عمل فيه مثل ما عمل الطبيب بالأول، ولكن زاد جرحه انفتاحًا، فقال الطبيب: أنا أوَرِّيك فيه: ثم أخذ الطبيب النعل ورفعها على الجريح، وقال: اخسىء يا الخسيس اخسىء يا النذل، ما أنت كفوء المراجل أنت ساقط أنت أنت وجعل يحطمه ويقرعه، ويهزله، ويرزله، فهضم الجرح، وقال للمساعد (خطه وإلاَّ أدوسه بالنعل؟)، فتلائم الجرح وخاطوه وانتهى.
وبعد انتهاء العمل، قال المساعد للطبيب: أخبرني يا سيدي بالحكمة والفرق بين الرجلين، فالجرح متماثل والواقع اختلف؟ فقال الطبيب:

إن الرجل الأول كريم رفيع النفس وحين مدحناه تواضع، وهذه عادة الكريم إذا مدح وأثنى عليه لا يتكبّر بل يتواضع، كأنه أعطي حقه فسكن، وأما اللئيم فإنه إذا مدح وأثنى عليه اغتر وتعاظم، وذلك دليل لآمته. (انتهى).

* * *

مريض يعالج بالضرب

ذكر ابن الجوزي في كتابه (الأذكياء)، قال: كان مريض قد عرضه أهله على جميع الأطباء، فلم يعرفوا مرضه، وقد أُدْنَفَ: ثم جاءهم رجل متطبّب غير ماهر بالطب، فلما نظره قال: أنا أريد أتصرف في معالجته؟ فإن برىء فهو المطلوب والحمد لله، وإن مات فلا تقولون أنْتَ مَوته؟ فقالوا: نعم تصرف فيه ولا ملام عليك، فأتى الرجل بعصًا غير غليظة وجعل يضربه وعمم جسمه بالضرب، فانتبه المريض وصحا، فسألوا الرجل: كيف عرفت أن علاجه الضرب؟ فقال: إن الجسم مركّب على مادتين: مادة الحرارة، ومادة الرطوبة، فإذا نقصت إحداهنَّ احتاجت إلى مساعدة، [فإن نقصت الرطوبة ارتفعت الحرارة، احتاج الجسم إلى استعمال المبردات كالخضار والحليب وما طبعه بارد، وإن نقصت الحرارة زادت الرطوبة فيحتاج الجسم إلى استعمال الحوار لتقوم الحرارة وتخف الرطوبة، فتعتدل صحة الجسم].

قال المتطبّب: وإني أرى حرارة جسمه قد هبطت وضعفت فغلب على ظنّي أن الضرب يُحْمِي الجسم فترتفع الحرارة فيصحو، وهكذا وقع. انتهى بتصرّف زيادة ما بين القوسين من بعض الكتب في الطب.

❋ ❋ ❋

فصل

تنبيهات: في صفاة الباري جل جلاله

أولاً: أصل أسماء اللَّـهِ: اسم الجلالة (أللَّـهُ)، كما هو في القرآن كثير: (الحمد لله رب العالمين)، (قل هو الله أحد الله الصمد)، (هو الله الذي لا إلـه إلاَّ هو عالم الغيب والشهادة)، (الله لا إلـه إلاَّ هو الحي القيوم): وغير ذلك كثير:

ثانيًا: أصل صفاة الله سبحانه: ثلاثة: الحياة، والعلم، والقدرة.

فالله سبحانه له الحياة الكاملة، حياة لم يسبقها عدم، ولا يلحقها فناء، ولا يعتريه سِنَةٌ ولا نوم، ولا غفلة ولا نسيان، فهو الحي القيوم، قائم بنفسه، ومقيم لغيره، (قائم بالقسط)، (قائم على كل نفس بما كسبت).

والعلم: فله العلم الكامل من كل وجه، فهو عليم بكل شيء على الإطلاق: عليم بالموجود، عليم بالمعدوم، عليم بالمستحيل، وما لم يكن لو كان كيف يكون، علم كل شيء قبل إيجاده، (يعلم السر وأخفى)، (عالم الغيب والشهادة) أوجد الخلق بعلمه وقدرته على غير مثال سبق.

والقدرة: هي قدرة كاملة له سبحانه، فهو قادر على كل شيء، فإذا أراد إيجاد شيء (قال له كن فيكون) كما يريده، (لا معقب لحكمه) فلا يكفي أن يقال إنه قادر على ما يشاء، بل هو قادر على كل شيء، سواء أراده أو لم يرده، فليس كل ما يقدر عليه يشاءه، فإنه قادر على أن يخلق مثل هذه السماوات والأرض، ولكنه لم يشأ ذلك، فهو القادر على كل شيء. ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾ [الأنعام/ ١٨].

والفوقية: هو العلو الكامل له من ثلاثة وجوه، علو الذات ـ وعلو القهر ـ وعلو القدر، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون والجاهلون علوًا كبيرًا.

ثالثًا: فالرسل عليهم الصلاة والسلام، في طريقة (صفات الله تعالى) جاؤا بإثبات مفصَّل، ونفي مجمل، كما في سورة ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ ﴾ [الإخلاص/ ١ ـ ٢]، هذا إثبات مفصَّل، وقال: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾ ﴾، فهذا نفي مجمل، وقال في الإثبات أيضًا: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الحشر/ ٢٢].

وقال في النفي: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ ﴾ [الشورى/ ١١].. وأمثال هذا كثير.

رابعًا: اجتماع صفات الكمال زيادة تعظيم، (ولله المثل الأعلى):.

فإذا قلت زيد عالم، فقد وصفته بالجلالة، وإذا قلت زيد عالم وكاتب فهو أجل، وإذا قلت زيد عالم وكاتب وشاعر فهو أجل، وإذا قلت زيد عالم وكاتب وشاعر وشجاع وسخي فهو أجل وأعظم، وهكذا صفات الله سبحانه كلها صفات كمال واجتماعها لذاته سبحانه زيادة تعظيم، وورد هذا كثير في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية.

خامسًا: إذا ذكر الله في الآية حكمًا ختمها باسم من أسمائه يناسب المقام.

لَمَّا أمر بقطع يد السارق، قال: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾﴾ [المائدة/ ٣٨]، فالعزة والحكمة تناسب القطع، ثم قال: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾ [التوبة/ ٣٩]. فالمغفرة والرحمة تناسب التوبة، كما قال في مقام الأمر بالعفو: ﴿أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾﴾ [النساء/ ١٤٩].

وإذا ذكر أمور الغيب ذكر أنه عليم خبير وأنه لطيف وهذا من عُظْم بلاغة القرآن وإعْجازه.

سادسًا: ما قاله ابن القيم رحمه الله في النونية:

لسنا نشبه وصفه بصفاتنا ... إن المشبه عابد الأوثان

كلا ولا نُخْلِيه من أوصافه ... إن المعطل عابد البهتان

(يعني) أننا نؤمن بصفات الله سبحانه على ما يليق بجلال الله، ونثبتها كما جاءت في القرآن وأحاديث الرسول ﷺ، فلا نشبهها بصفات المخلوقين، ولا ننفي ما دلت عليه من صفات الكمال لله تعالى، ولا

نعبىء بشناعة المعطلين والمشبهين والملحدين على أهل التحقيق والإثبات.

سابعًا: فالله سبحانه واحد لا ثاني له في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، وكثيرًا يتكلم بلفظ الجمع، قلنا، خلقنا، نرزق، نحيي، ونميت، ونحشر، ورحمنا، ونعذب، وغير ذلك كثير بلفظ الجمع: فهذا اللفظ يقوله الواحد ومعه غيره، ويقوله الواحد المعظم نفسه، والمتبوع الذي له جنود وأتباع ولله المثل الأعلى، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [الواقعة/ ٨٣ ـ ٨٥].

وقد قرر هذه المسألة بعينها شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه (شرح حديث النزول)، فليراجع، كما بسط القول في مثل هذه المسألة، العلامة ابن القيم في مقدمة كتابه (طريق الهجرتين وباب السعادتين)، وهو كتاب نافع لإصلاح القلب، على حديث (اللَّهمَّ أنت الأول، فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء) الحديث. وتقدم، ثم تكلم على معنى الباطن، وأنك إن فهمته على الحقيقة وإلاَّ وقعت في مذهب الحلولية، ثم قال فالأحسن لك إذا لم تفهم المعنى على الحقيقة أن تضرب عنه صفحًا وتترك البحث فيه، ثم استشهد بقول الشاعر:

إذا لم تستطع شيئًا فدعه ... وجاوزه إلى ما تستطيع

وفي العقيدة الواسطية على معنى مَعِيَّةِ الله لخلقه، قال: والقمر

خلق من أصغر المخلوقات، هو في السماء وهو مع المسافر وغير المسافر، ولله المثل الأعلى.

ثامنًا: قوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنبياء/ ٢]، فالقرآن هو الذكر: وهو كلام الله، ولا يزال الله يحدث من كلامه ما يشاء، إذا شاء (فكلام الله قديم النوع حادث الآحاد).

أما حديث قسمة غنايم حنين:

حيث أعطى النّبـي ﷺ بعض رؤساء القبائل على مائة بعير، يتألف قلوبهم لأنهم حدثاء عهد بالإسلام: وترك بعض أصحابه لما في قلوبهم من صدق الإيمان (يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة)، فتقدم رجل من شيعة الخوارج (هو ذو الخويصرة)، فمسك ثوب النبـي ﷺ وجذبه جذبة قوية وقال إعدل يا محمد فإنك لم تعدل، فقال له النّبـي ﷺ خبتَ وخسرتَ إن لم أعدل) الحديث متفق عليه:

فقوله خبت وخسرت هو بفتح تاء المخاطبة جوابًا للمخاطب: يعني: يقول إذا لم يعدل النبـي فقد ضل وإذا ضل فقد ضلت أمته فخابتْ وخسرتْ: وأنت من أفرادها، فقد خبتَ وخسرتَ إن كان نبيّك قد ضل، وهذا من النّبـي ﷺ تقريرٌ إنكاري إذ النبـي معصوم أن يضل: فما قسم إلاَّ عن أمر الله ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم/ ٣ ــ ٤]، قاله شيخنا رحمه الله.

وإنني إذ أتعرض لذكر هذه الفوائد في الصفات، مع أن التحدث

عنها يستدعي الحذر والحيطة: وغيري أعلم مني بذلك، لكن تنبيهًا للقارىء الكريم عن الوقوع فيما يخلطه أعداء العقيدة، من الجهمية والرافضة الشيعة ومن سايرهم، وللباحث الكريم أن يرجع للعقيدة الواسطية وشرحها وفتح المجيد وما ذكر آنفًا وغير ذلك، وقد أخذنا معرفة هذه الصفاة من تقرير شيخنا صالح بن أحمد الخريصي رحمه الله على العقيدة الواسطية وفتح المجيد وتفسير ابن كثير وغيره، والله أعلم وصلّى الله على محمد. (انتهى).

* * *

مغفل صريح

استأجر أحد الزراع عاملاً من الجماعة، ومعه أهله يقوم بعمل السواني لزرع القمح شتاءً، والزرع في أول وقته أقل عملاً، ثم تتزايد حاجته للماء (السقي)، فيضطرون للقيام بالسواني بِلَيْلٍ، وموعد القيام بالسواني بالليل: على طلوع النجم، المعروف (النسر الأول) حيث كان في أول وقت الزرع يطلع الفجر، ثم قبل الفجر ثم نصف الليل، ثم قبل نصف الليل، ثم الهجعة، وهكذا حتى ينتهي عمر الزرع وسقيه، ويأتي حصاده وعمليات درسه وطيابه، فهذه أحوال معروفة مألوفة عندهم، ومن أراد من الطرفين غير ذلك فلا بد من الاشتراط عند القعد، فهذا العامل كان مغفلاً، وحين استأجره الرجل المزارع لعمل السواني أراد العامل أن يحدد أوقات العمل بحضرة الجماعة في مجلسهم، فقال: (إسمع يا ولد وايل، تراك أنت ما تِنْطَحْ بالشغل، غدًا تقول عطّشتوا زرعي، موّتوا زرعي: ترانا ما نعمل إلاَّ الليل والنهار بس)، فقال الرجل: الشكوى إلى الله، يكفينا عملكم الليل والنهار. (انتهى).

* * *

فصل
في ملة إبراهيم عليه السلام

مما قاله الشيخ سليمان بن سحمان في كتابه: (إرشاد الطالب إلى أهم المطالب):

على الدين فليبكي ذوو العلم والهدى فقد طُمِسَتْ أعلامه في الْعَوَالَمِ
وقد صار إقبال الورى واحتيالهم على هذه الدنيا وجمع الدراهم
وإصلاح دنياهم بإفساد دينهم وتحصيل ملذوذاتهم والمطاعم
يعادون فيها بل يوالون أهلها سواء لديهم ذو التقى والجرائم
إذا انْتُقِصَ الإنسان منها بما عسى يكون له ذخرًا أتى بالعظائم
وأبدا أعاجيبًا من الحزن والأسى على قلة الأنصار من كل حازم
وناح عليها آسفًا متظلمًا وباح بما في صدره غير كاتم
أما على الدين الحنيفي والهدى وملة إبراهيم ذات الدعائم
فليس عليها والذي فلق النوى من الناس من باكٍ وآسٍ ونادم
وقد درست منها المعالم بل عفت ولم يبق إلاّ الاسم بين العوالَم
فلا آمر بالعرف يعرف بيننا ولا زاجر عن معضلات الجرائم
وملة إبراهيم غودر نهجها عَفَاءً وأضحت طامسات المعالم
وقد عُدِمَتْ فينا وكيف وقد سفت عليها السوافي من جميع الأقالِم

وما الدين إلاَّ الحب والبغض والولاء كـذاك البـرا مـن كـل غـاوٍ وآثـم
وليـس لهـا مـن سـالـك متمسـك بدين النبـي الأبطحي بن هاشم
فلسنا نرى ما حل بالدين وانْمَحَتْ به الملة السمحاء إحدى القواصم
فنأسى على التقصير منا ونلتجي إلى الله في محو الذنوب العظائم
فنشكوا إلى الله القلوب التي قست وران عليهـا كسـب تلـك المـآثـم
ألسنـا إذا مـا جـاءنـا متضمـخ بأوضار أهل الشرك من كل ظالم
نهـش إليهـم بـالتحيـة والثنـا ونُهْـرَعُ فـي إكـرامهـم بـالـولائـم
وقد بريء المعصوم من كل مسلم يقيـم بـدار الكفـر غيـر مصـارم
ولا مظهـر للـديـن بيـن ذوي الـردا فهل كان منا هجر أهل الجرائم
ولكنمـا العقـل المعيشـي عنـدنـا مسـالمـة العـاصيـن مـن كـل آثـم
فيا محنة الإسلام من كل جاهل ويـا قلـة الأنصـار مـن كـل عـالـم
وهذا أوان الصبر إن كنت حازمًا على الدين فاصبر صبر أهل العزائم
فمـن يتمسـك بـالحنيفيـة التـي أتتنـا عـن المعصـوم صفـوة آدم
لـه أجـر خمسيـن امـرىء مـن ذوي الهـدى فـي الصحـب أصحـاب النبـي الأكـارم
فَنُـخْ وَابْـكِ واستنصـر بـربـك راغبًـا إليـه فـإن الله أرحـم راحـم
لينصـر هـذا الـديـن مـن بعـدمـا عفـت معـالمـه فـي الأرض بيـن العَـوَالَـمِ
وصـل علـى المعصـوم والآل كلهـم وأصحـابـه أهـل التقـى والمكـارم

بِعَــدٍّ وَمِيــضِ البــرق والــرمــل والحصــى

ومــا انْهَــلَّ وَدْقٌ مــن خــلال الغمــائــم

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «من أحب في الله وأبغض في الله ووالى في الله وعادى في الله فإنما تنال وَلايَةُ الله بذلك، ولن يذوق عبد طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصومه حتى يكون كذلك، وقد صارت عامة مواخاة الناس اليوم على أمر الدنيا وذلك لا يُجْدِي على أهله شيئًا، رواه ابن جرير وغيره. فمن نوع الموالاة في الله والمعاداة في الله، كان رجل هنا في بيته، وكانت للناس عادة عامة راتبة للقهوة: بعد صلاة الفجر وبعد صلاة الظهر، وكان الرجل يعمل قهوته بنفسه على النار في مجلس القهوة، وهذا كانت عنده أمه عجوز عمياء، ولكنها امرأة صالحة (صاحبة علم ودين وعقيدة صحيحة)، فطرق الباب عليه رجل فقير يريد القهوة، فعرفوه بصوته، فقالت المرأة لولدها (افتح له وأعطه قهوة هذا فقير وفيه أجر)، فقال ولدها: أنتِ ألْزَمْ عليَّ منه، لا أحب أن أحرمكِ القهوة فتخرجين؟ فقالت: أنا أجلس خلفك وراء الستارة وتصب لي من غير يشعر، (وذلك لأن البيوت القديمة فيها ظلام والفقير هذا قليل الإبصار)، فقامت وجلست خلفه في محل الحطب، فقام وفتح له وأدخله ورحب به وصب له قهوة، ولكن صار الفقير رجل شقي فاسد العقيدة، (والشرُّ كامِنٌ في النفوس كُمُونُ النار في الزند) فَاقْدَحْ زَنْدَ مَنْ شئت منهم يظهر لك شَرَرُه، وظن أن صاحب المحل مثله، (وكل إناء بما فيه ينضح)، فجعل يسب أهل الدين وأهل الحسبة والوِلاية، فتكلمت المرأة من وراء الستارة، حيث أخذتها الغيرة لله،

فقالت: (خلاص يا فلان خله يقوم يخرج)، فأراد الرجل أن يعتذر ليتركوه يشرب باقي القهوة، فقالت المرأة: والله ما تذوقها غير ما ذقتها؟ (أدخلناك لله ونخرجك في الله) فأقاموه وخرج، وقد جاء في الحديث القدسي: يقول الله تعالى: «من عادى لي وليًّا فقد آذنته بحرب» رواه البخاري عن أبي هريرة، أي: أعلمته أني محارب له، ومن حاربه الله فهو مخذول مغلوب.

وقال الشاعر:

خَلِيلَـيَّ مـا وافٍ بعهـديَ أنتمـا إذا لم تكونا لي على مَنْ أقاطع

وقال ابن القيم رحمه الله في (النونية):

تحـب أعـداء الحبيـب وتـدعـي حبًّـا لـه مـا ذاك فـي إمكـان

أقول: فيا ما في الزَّوايا من الخَبايا، فكم لِلَّـه في خلقه من عناية ولطف ورحمة، وكم يختص خواصًا من خلقه أودع في قلوبهم كنوزًا من معرفته ومحبته وتعظيمه وخوفه ورجائه والرضا عنه وإدامة ذكره، والانقياد لأمره وأمر رسوله ﷺ، ومطالعة منَّة الله عليه، ومطالعة عيب النفس والعمل، ولازم ذلك كله (محبة أولياء الله وبغض أعدائه) أين كانوا، ومتى كانوا، ومَنْ كانوا، فاحذر أن تبغض أولياء الله فتكون حربًا لِلَّـه، ولكن إذا رأيت من أحد خطأ أو تقصيرًا، فارجع على نفسك وفتّشها وحاسبها عن مثل هذا الخطأ أو التقصير، واتَّهِمْ نفسك فإنها أولى بالذم، فهذا أسعد لها في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف/ ٥٣]. وقال: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾ [الحشر/ ٩].

وكان الناس يحجُون على الإبل: والمرأة معهم يجعلون لها شبه غرفة صغيرة، من عودان الخشب الخفيف، تلف وتربط فوق مقعدها وفوقها سترة، وتجلس المرأة وسطها وهي بالأرض عند باب الخيمة فيحملها الرجال ويعلقونها على جنب البعير يسمونها (الكَواجه، والمقصر، والهودج، والمظَلّة) ويعادلها مثلها على الجنب الثاني أو شيء من العفش.

ثم المرأة (ذات الهامية) يستأجرون من أجلها رجلاً يمسك زمام البعير من حين يمشون حتى ينزلون، وينزلونها في الخيمة لا يفلت حبله من يده ما دامت على البعير وذلك تأمينًا لسلامتها، خوفًا من نفور البعير فتسقط.

فمن ذلك حجاج من أسرة آل سعود رحمهم الله في زمن، قبل ولاية عبد العزيز الدور الثالث وقبل أن يستتب الأمن، وكان في الطريق قبل وصول مكة المكرمة، أناسٌ قد استولوا على الطريق ولديهم صنم لا يتجاوزه أحد من هذا الطريق حتى يقرب هدية للصنم، (والسَّدَنَةُ يأكلون ما يُهْدى للصنم والقبر وغيره من المعبودات، وهم يدعون الناس ويرغبونهم في تقريب الهدايا للقبور وغيرها، ويخوفونهم إذا لم يقربوا له شيئًا، وذلك تحصيلاً لمصالحهم الخاصة، ويروون لهم حكايات وأكاذيب لما يزعمونه، كما هو معروف.

الحاصل أن حجاج آل سعود لما وصلوا هذا الموضع، الذي فيه الصنم وإذا امرأة من هؤلاء الحجاج في هَوْدَجِها والرجلُ الخادم ماسكٌ بها زمام الجمل، وحين قال أهل الصنم قربوا هدية لفلانٍ (الصنم)

فامتنعوا وأبوا أن يقربوا شيئًا، (لصنم)، وقال الخادم الممسك بزمام جمل المرأة (نقرب له هَالتُّراب)، فتكلمت المرأة في هودجها وقالت: (يخسأ، ما نقرب له ولا تراب)، وهي تعرف معنى كلام الخادم ومقصده، وأنه يعني دحر الباطل، وقذفه بالتراب ومعاداته، ولكن هي أرادت بكلامها زيادة إيضاح لدحر الباطل والبراءة منه ومن أهله وأنه لا يستحق ولا تراب، كما في حديث طَلْق بن شهاب «دخل الجنة رجل في ذباب، ودخل النار رجل في ذباب، فهذا أبى أن يُقَرِّب للصنم ولا ذبابًا فدخل الجنة، وهذا قرب ذبابًا للصنم فدخل النار». الحديث: رواه الإمام أحمد مفصلاً. (انتهى).

* * *

صاحب سبأ

كانت بلاد سبأ في اليمن من أخصب البلاد وأعظمها نعمة، وَنَوَّه الله بشأنها، وقد ذَكَرُوا أنَّ الأعرابي والأفقي إذا مَرَّ بِبِلاد سبأ مات ما في ثوبه من القمل من أجل طيب هواها، وذُكِرَ أن المرأة تخرج وعلى رأسها زنبيل ويمتلىء من تساقط الثمار، وهي تمشي في الطريق، ولكنهم بطروا النعمة وعصوا أمر ربهم، فسلط الله عليهم سيل العرم، والعرم هو وادٍ عظيم عندهم، وقد كان فيه سد يمنع كثرة الماء عنهم، ولما أراد الله إهلاكهم سلّط على السد جرذيًا، فحفر تحت السد، ولما جاء السيل دخل في جحر الجرذي وخرب السد.

وكان في سبأ رجل ذكي صاحب ملك (عقار) أحسن ملك فيهم، وقد اطلع على ما حدث في السد من خلل قبل مجيء السيل، حيث رأى حفر الجرذي وعرف أنه سوف يسبب خرابًا في السد ويهلك الأمة فاحتال لبيع ملكه لينتقل عن البلاد قبل أن يعلموا بذلك فلا يشتري، فأخبر ابنه وقال له إننا لو عرضنا ملكنا للبيع لاستغربوا ذلك ويبحثون عن سبب بيعنا، فربما عثروا على ما عثرنا عليه فلا يشترونه، ولكن إذا أنا جلست في النادي مع قومي فَأْتِ أنْتَ إليَّ أمام الناس واضربني كَفًّا على وجهي واستغضبني لأجل أعْرِضُ ملكي للبيع قبل يحل العذاب

بالبلاد، فذهب الرجل وجلس في النادي فأتاه ابنه واستغضبه وضربه فاستشاط الرجل غضبًا، وقال: لا أسكن في بلد يضربني ابني أمامهم، فمن يشتري ملكي فباعه بثمن جيد، ثم احتمل ماله وأهله وخرج من البلد ونجا، ثم أرسل الله السيل عليهم ومزقهم كل ممزق كما ذَكَرَ [سبأ: ١٥].

والْعَرْم: هو المرتفع الحاجز، ومنه العرمة: هي الزبرة المرتفعة. (انتهى).

* * *

خاتمة

انتهى المجلد الثالث، ويليه إن شاء الله،

المجلد الرابع، وأوله: كرم المروءة

فهرست المجلد الثالث

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
* الكلام سهل والفعل صعب	٢٣٦
* درة ثمينة ولكن	٢٣٧
* محبة الطيب والنساء مفيدة	٢٣٩
* من حكمة وجود المماليك سابقًا	٢٤١
* النفس وما اشتهت	٢٤٣
* موعظة في الموت وما بعده	٢٥١
* من أغاني عرضة الحرب	٢٥٤
* شجاعة الأمير غزلان	٢٥٦
* مقرود نجد	٢٥٨
* البريم	٢٦٢
* ترجمة الشيخ الخريصي	٢٦٥
* تواضع الكريم وحكمة طبيب	٢٦٦
* تنبيهات في صفات الباري جل جلاله	٢٦٩
* في ملة إبراهيم عليه السلام	٢٧٦
* صاحب سبأ	٢٨٢
* خاتمة	٢٨٤
* فهرست	٢٨٥